أ. د. حلمي محمد القاعود

التاريخ والواقع في الرواية

نجيب الكيلاني نموذجا

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

810.9 القاعود، حلمي محمد .
ا . ح
التاريخ والواقع في الرواية (نجيب الكيلاني نموذجاً / حلمي محمد القاعود.- ط1.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،2022 .
278ص ؛ 17*24 (دراسات في الأدب والشعر)
تدمك : 8 – 770 -308 -977 -978
1. الأدب العربي – تاريخ ونقد.
أ. العنوان

رقم الإيداع : 14174

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركزي
هاتف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201097564757-00201277554725
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

2022

المحتويات

.

بسم الله الرحمن الرحيم

استهــلال

لله الحمد والمنة.

أحمده على توفيقه بإنجاز هذه الدراسة المتواضعة حول روايات نجيب الكيلاني التاريخية، وأشكره على فضله في إعانتي على تجاوز الظروف الصعبة التي أعيشها، وكتابة ما أعده بعض تقدير لرجل وهب حياته وفنه لدينه وأمته ولغته، فكانت كل كلمة خطتها يده في اتجاه خدمة العقيدة وإنهاض الأوطان الإسلامية من عثراتها وآلامها، وبث روح الأمل في نفوس الأجيال الجديدة، لتعمل وتنتج وتبني وتعمر، وتدافع وتجاهد..

لله الحمد والمنة في كل حال. وله الشكر أولا وآخرا، حين تتحول المحن إلى منح، وحين يشعر الكاتب أنه استطاع أن يكتب صفحات يراها ذات فائدة، أو فيها بعض الفائدة. فاللهم تقبل ما نكتبه خالصا لك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، واللهم صل وسلم على خير أنبيائك وأبويه إبراهيم وإسماعيل، واجعلنا بالقرب منهم يوم الدين..

حالة فكرية ونفسية

لا أعرف متى بدأت أتعلق بالرواية التاريخية، ولا كيف صار التاريخ من خلالها يمثل لي حالة فكرية ونفسية أعايشها بتلقائية منذ سنوات الطفولة الأولى حين تسلمت في الصف الأول الابتدائي جائزة كانت قصة أطفال تاريخية جائزة، نظير حل مسألة أو إجابة على

سؤال لم ينهض بها غيري بين أقراني. ولعلني منذ ما يقرب من ستين عاما بدأت أتعلق بالرواية التاريخية من خلال على أحمد با كثير وعلي الجارم ومحمد فريد أبو حديد وغيرهم.

وجدت في الرواية التاريخية فضاء يختلف عن واقع الفضاء العربي الإسلامي المهزوم. فضاء التاريخ يحوي انتصارات وبطولات وفيه أيضا معادلات للواقع البائس الذي تعيشه الأمة من هزائم وانكسارات وخيانات، ولعل هذا كان من وراء تخصيصي لدراسة طويلة قبل ربع قرن أو يزيد، وطُبعت عدة طبعات؛ تتناول الرواية التاريخية تناولا تطبيقيا، قسمت فيها الرواية التاريخية إلى ثلاثة أقسام: رواية التعليم كما قدمها جرجي زيدان ومن سبقوه وبعض من لحقوه، ورواية النضج التي صاغها روائيون يملكون تقاليد الفن الروائي وأسسه المتطورة، كما نراها عند كثيرين من أمثال على أحمد با كثير ومحمد فريد أبو حديد ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الحميد جودة السحار وغيرهم، ثم رواية الاستدعاء التي تستدعي التاريخ إلى الواقع المعاصر ليكون في خلفية الأحداث الراهنة، وقدمت نماذج لنجيب محفوظ ونجيب الكيلاني، ومحمد جبريل.

عرضت من خلال الدراسة لأكثر من ثمانين رواية ركزت فيها على ما كتب في مصر كي لا يتمدد البحث إلى مساحة شاسعة يصعب تناولها. ومع ذلك جاءت الدراسة طويلة ممتدة قاربت أربعمائة صفحة. وأضحت مرجعا لكثير من الباحثين الذين درسوا الرواية التاريخية، في صورتها العامة أو صورها الجزئية.

إضافة بحثية

في قراءتي لنجيب الكيلاني(1931-1995م)، الذي تناولت رواياته من قبل في عديد من الدراسات الطويلة والقصيرة، أبرزها الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني- رأيت أن الرواية التاريخية لديه تحتاج إلى جهد دراسي يضاف إلى ما سبق أن تناولته من قبل. فأدب الرجل خصب ومثمر وحي، ويقبل أن تتم دراسته من خلال جزئيات وجوانب كثيرة، من أكثر من باحث، ومن خلال وجهات نظر متعددة.

إن الرواية التاريخية لدى الكيلاني تمثل إنجازا فنيا جميلا يفرضه واقع الأمة في جهادها ضد أعدائها الأقوياء؛ متمثلين في الغزاة الأجانب الذين يهدفون إلى طمس الهوية الإسلامية وتحقيرها وازدرائها، ونهب ثرواتها وخيراتها، وفتحها سوقا يصدرون إليه منتجاتهم وبضائعهم. ويمتد هذا الإنجاز إلى مواجهة الحكام المستبدين الذين يحرمون شعوبهم الحرية والكرامة ويتضامنون مع الأعداء الخارجيين بصورة مباشرة، أو يتيحون لهم بقصورهم وفشلهم وخلافاتهم وأنانيتهم؛ فرصة تحقيق أطماع هؤلاء الأعداء وأهدافهم الشريرة.

ثم تحرز الرواية التاريخية لدى الكيلاني هدفا حاسما ضد بعض النخب أو الأشخاص الذين يفضلون الخيانة وطعن الوطن في ظهره إرضاء للأعداء والمستبدين الطغاة، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان، وقد بدا وجودهم كثيفا في العصر الحديث، وهو ما دفع

نجيب الكيلاني لاستخدام التاريخ والدخول من خلاله إلى قضايا مهمة وخطيرة تمس واقع الأمة وتؤثر فيه.

تركيز على جلاء المسيرة

ومن ثم؛ فقد اهتم نحيب الكيلاني بجلاء مسيرة الدعوة الإسلامية وما واجهته من صعاب وعقبات، وأبرز دور اليهود في التآمر على الإسلام والمسلمين، وخيانتهم للعهود ونقضهم للمواثيق، ولم ينس أن يقدم نماذج يهودية حكّمت فطرتها وعقلها فانحازت إلى الإسلام ونعمت بالعيش في رحابه، ونماذج أخرى لم تكن مخلصة، وآثرت الهوى، فعاشت في حمأة النفاق، تظهر الإسلام وتبطن الكفر، وهي من أشد النماذج خطورة، على نفسها وعلى غيرها. وقد خصص الكيلاني روايات كاملة لمعالجة السلوك اليهودي وتجلياته البشعة: على أبواب خيبر- حارة اليهود- أرض الأنبياء- عمر يظهر في القدس.

وقد ألحت على نجيب الكيلاني خلافات بعض المسلمين ، وشهواتهم للحكم ومن أجل ذلك استباحوا دماء أخوتهم المسلمين بغير حق، وسوغوا ذلك بتأويل خاطئ للدين وأصوله، وهو ما أضعفهم وجعلهم قصعة للأمم في بعض مراحل التاريخ، كما جرى في أواخر العصر الأموي على سبيل المثال.

ثم كانت وقائع التاريخ الحديث ملحة على الروائي نحيب الكيلاني، فتناول الحملة الفرنسية على مصر أواخر القرن الثامن عشر، وحملة فريزر التي تلقى فيها هزيمة ساحقة في رشيد، وثورة 1919 التي واجه فيها الشعب المصري ضراوة الاحتلال الإنجليزي .. وفي

سياق هذه الروايات نعثر على نماذج أجنبية: أرمن ويهود وإنجليز وغيرهم يعيشون بين المصريين ويعملون ويغتنون، وينعمون بالأمن والمودة، ولكنهم في الغالب يعضّون اليد التي أحسنت إليهم، ويظهرون تعصبهم لمعتقداتهم وعنصريتهم، وينزلق أغلبهم إلى قاع الخيانة والعار.

العنصر الإيماني

في مختلف الروايات التاريخية التي كتبها الكيلاني يظهر العنصر الإيماني قويا وساطعا في مواجهة خصوم الإسلام والمتآمرين عليه، والغزاة الذين يستبيحون بلاد المسلمين، والأشقاء الذين يثيرون الخلافات ويشوهون الدين لأغراض دنيوية. ويوظف الكيلاني هذا العنصر توظيفا فنيا جيدا دون افتعال أو تكلف، ويفيد من الآيات القرآنية الكريمة والحديث النبوي الشريف، والأقوال المأثورة والشعر وغير ذلك؛ إفادة ممتدة في رواياته جميعا، حيث تأتي الإفادة داعمة ومساندة للسرد، بل تتحول إلى حالة عضوية لا تستشعر بُعْدها عن السياق أو إقحامها فيه.

العنصر الإيماني في الجهاد والفتح والمقاومة والفكر لدى الكيلاني يمنح رواياته التصور الإسلامي عند مواجهة أعداء الدين والأوطان، والتصور الإسلامي هو الرؤية الإسلامية للكون والحياة، ويختلف عن التاريخ الإسلامي وأحداثه، التي يعتقد بعض الناس أنها المقصود بالأدب الإسلامي، فالتاريخ أحداث ووقائع قد تكون قائمة على

التصور الإسلامي أو بعيدة عنه. أما التصور الإسلامي فهو الرؤية والفكرة التي ينظر بها المسلم إلى ما حوله، وإلى الماضي وتفسيره له.
والعنصر الإيماني هو الذي يعضد العنصر الخلقي في الأدب والفن، ويجعله ضروريا لكل أدب رفيع، عكس ما يقوله الذين يلقون بالعنصر الخلقي وراء ظهورهم. لقد أكدّ " أوسكار وايلد " على الرسالة الخلقية للفن بالمعنى الواسع، وتعنى هذه الرسالة لديه: مساعدتنا على فهم الحياة، وقد آمن بهذه الرسالة أفلاطون وأرسطو من قبل، ثم مونتانى وموليير من الفرنسيين وبن جونسون ودكتور جونسون من الإنجليز (محمود حامد شوكت ، مقومات القصة العربية الحديثة فى مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1974م ص 14).

دموع الأمير

تجدر الإشارة إلى أن نجيب الكيلاني أفاد من التاريخ الإسلامي في كتابة القصة القصيرة بشروطها الفنية، فأصدر مجموعة تحمل اسم "دموع الأمير" ضمنها عددا من القصص التاريخية؛ تغطي مساحة مكانية عريضة وفترة زمنية واسعة ، فأحداثها تغطي الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر، وتبدأ من عصر النبوة مرورا بالصراع مع الصليبيين والتتار حتى العصر الحديث وانهيار دولة الخلافة العثمانية ومقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر.
تضم المجموعة اثنتي عشرة قصة هي:

دموع الأمير– القلب الكبير– الإمام الأعظم– أبو معزي– صانع الرجال– العرش المحطم– ابن سبيل– أبو خيثمة– سلطان العلماء– واحسيناه– على أبواب دمشق– رجل في المنفى .
ويؤكد الكيلاني في تقديمه لهذه المجموعة ما كتبه في مكان آخر حول القصص التاريخي الإسلامي، ويشير إلى أن هذه المجموعة تكاد تكون الأولى من نوعها في قصصنا الحديث، وأظن أن على أحمد با كثير قد سبق إلى كتابة هذا النوع، وأكثر منه في صياغة مسرحيات من فصل واحد، نَشر كثيرا منها في الأربعينيات والخمسينيات، وقد أعيد نشر معظمها في العقدين الأخيرين بمجلة الأدب الإسلامي الفصلية.

الواقع التاريخي

ويشير الكيلاني إلى أنه حاول جاهدا أن يحافظ على مفهوم القصة القصيرة الحديثة، إلى جانب تضمينها أحداثا تاريخية مهمة. ويذكر أنه سبق أن قرر أن "الواقع التاريخي" لا يقل روعة أو أهمية عن الواقع الحاضر، فكلاهما مادة للقصاص يستطيع أن يضمنها ما يراه. (انظر: نجيب الكيلاني، دموع الأمير، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت ،1405 هـ = 1985م).

وفي تصوري أن هذه القصص يمكن أن تكون مشروعات لروايات طويلة مثل نور الله وحارة اليهود وأرض الأنبياء وغيرها، وعلى سبيل المثال فقصة دموع الأمير التي تحمل اسم المجموعة تتناول نظام الولاة في عهد بني أمية من خلال هشام بن إسماعيل المخزومي والي المدينة الذي كان أداة في أيديهم لإرهاب مناوئيهم وقمع مخالفيهم

واستخدام أساليب القوة والبطش والترهيب والترويع ضدهم بكل فظاظة ووحشية.

توسيع الفكرة

صحيح أن الكيلاني طبق قواعد القصة القصيرة في التقاط اللحظات المناسبة للقصة القصيرة، ولكن الفكرة نفسها يمكن أن تتسع وتصل إلى موضوع روائي ناجح.

وينطبق الأمر ذاته على بقية القصص التي تضمها المجموعة ففكرة الظلم والعدل والرحمة في قصة القلب الكبير التي تروي طرفا من حياة الزاهد عبد الله بن المبارك، يمكن أن تتحول إلى عمل روائي ضخم وبخاصة أن حياة ابن المبارك حافلة بالقصص والمواقف التي تصنع عملا روائيا مهما... وهكذا بقية القصص.

ويبدو أن الثروة التي كانت في حوزة الكيلاني من موضوعات تاريخية كانت كبيرة، إلى جانب موضوعات أخرى كثيرة لم يستطع أن يتناولها في حياته التي لم تتجاوز الستين إلا قليلا.

سرد متميز

ومهما يكن من أمر؛ فإن خبرة الكيلاني الفنيّة استطاعت أن تقدم لنا سياقا جميلا للرواية التاريخية نراه في توظيف العناصر الروائية المختلفة من فكرة وزمان ومكان وبناء وشخصيات ووسائط؛ لتقديم سرد متميز يضيء الفكرة ويقدمها في إطار شائق وجذاب، تجتهد الدراسة في الكشف عنه وجلائه.

إن الوقوف عند النماذج الجيدة في أدبنا الحديث، وتناولها بالدرس والبحث والتحليل أضحى أمرا ضروريا، ليتعرف القارئ إليها، بعد أن سادت العملة الرديئة حياتنا الأدبية والثقافية، وأصبح القصور الفني والجهل بأوليات الكتابة لا يثير امتعاضا لدى من يتصدرون المشهد الأدبي والثقافي، بل يجد ألوانا من التشجيع تصنعها الدعاية الفجّة، والآلة الإعلامية الطائشة التي يحركها من لا يعنيهم أمر الأدب أو الثقافة، أو الفكر الناضج والمنطق العلمي.

صحيح أن ما أقوله أو يقوله أمثالي يبقى في دائرة ضيقة محدودة، لا تثير نقاشا ولا تحض على تداول، ولكنها كلمة إبراء الذمة، وإرضاء الضمير، وقبل ذلك وبعده، إعذار لله جل وعلا، في مناخ لا يعبأ غالبا بالذمة ولا الضمير، ولا الخوف من الله.

في كل الأحوال تبقى الكلمة الطيبة، وتذهب الكلمة الخبيثة، وصدق الله إذ يقول: "فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض" (الرعد: 17).

وصلى الله وسلم على نبينا الكريم محمد بن عبد الله وآله وأصحابه أجمعين.

حلمي محمد القاعود

المجد في ذي القعدة 1438هـ

أغسطس 2017 م

تمهيـــد

الروائي الإسلامي وضيافة التاريخ

لماذا التاريخ؟

هناك أسئلة عديدة تطرح حول طبيعة الرواية التاريخية، ونشأتها، وبداية السرد التاريخي في الحضارة الإسلامية، وصعوبته بصفة عامة، واختيارات الكتّاب لمعالجة التاريخ من خلال الفن الروائي،...

وهي أسئلة تحتاج إلى إجابات ولو كانت موجزة، لأنها ترتبط بموضوع بحثنا عن الرواية التاريخية لدى نجيب الكيلاني.

سوف أحاول تقديم شيء من هذه الإجابات بقدر ما يسمح به المجال، وأوجز بقدر الإمكان؛ لأن الغاية هي قراءة روايات نجيب الكيلاني التاريخية، ومحاولة التعرف على جمالياتها، ومدى قدرتها على توصيل الفكرة التي أراد الكاتب أن يدفع بها إلى قارئه العام أو قارئه المتخصص.

طبيعة الرواية التاريخية

تعد الرواية التاريخية نوعا من الجنس القصصي بصفة عامة، يلجأ إليه الكاتب حين يريد تجاوز الواقع الذي يعيشه لسبب ما؛ قد يكون قهريا في الغالب، فيختار شخصية أو حدثا أو عصرا، أو قضية تاريخية ويمزجها بخياله، ليقدم فكرة روائية جذابة أو قصصية شائقة، تتيح له أن يروي التاريخ دون التزام بقيود الدراسة والبحث التاريخي.

يفترض أن يلتزم الروائي التاريخي بما هو ثابت أو متفق عليه في كتب التاريخ، وله مساحة يختار فيها شخصيات خيالية تظهر الحدث التاريخي الأصلي وتبرزه، وفي الوقت نفسه تبلور الفكرة الروائية وتقدمها بصورة مقنعة للقراء، ولذا يرى بعض الباحثين أن معظم الروايات التاريخية الرائدة في أوربة، ولدى العرب أيضا: ضعيفة فنيا إلى حد ما، باستثناء قلة من الروايات الشهيرة، مثل رواية (الحرب والسلام) للكاتب الروسي الأشهر تولستوي، و(أحدب نوتردام) لفيكتور هوجو، و(قصة مدينتين) لتشارلز ديكنز.. فقد حققت المعادلة بين الفن والموضوع، وابتعدت عن جمود الحدث التاريخي، وجفاف الفكرة القصصية (انظر: مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت،1984، ص184- موسوعة ويكيبديا الحرة)

ويعود ازدهار الرواية التاريخية فيما بعد إلى تحليلها للأحداث التاريخية، والاجتماعية بشكل فني بارع. لأنها ظهرت في عهد كان الناس فيه يعتقدون بقيمة سلطان الفرد على التاريخ، لذا اهتمت بشخصيات مؤثرة في الوطن وروح العصر والقيم الشعبية والطبقات الاجتماعية لذلك العصر مع تميز تلك الشخصيات الروائية بالقدرة على التأثير في الأحداث والتحكم في سير التاريخ . (انظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة (240)، الكويت، 1419هـ =1998م، ص 34).

وكان فوكنر يرمي إلى معارضة الرواية التاريخية، التي تجعل من الشخصية كل شيء في العمل السردي بعامة والروائي بخاصة تشبيها لها بسلطان الفرد المؤثر في الأحداث وحده- يقصد عظماء الناس– وحدهم، فإن الأعمال الروائية والسردية بوجه عام لا تتناقض مع الحقيقة التاريخية، والعيب أن ننشد التاريخ في الرواية ونعدها وثيقة من وثائق التاريخ. (انظر: السابق، ص 31).

جدل حول المصطلح

وقد ظهر مؤخرا جدل حول استخدام مصطلح "الرواية التاريخية"، فهناك من يفضل عليه مصطلح "التخيل التاريخي". وقد تبنى بعض الأشقاء المغاربة هذا المصطلح الأخير، ولهم في ذلك وجهات نظر لا بأس بها.

وقد أشار سعيد يقطين(القدس العربي، لندن، 31من مايو2017) إلى ما كتبه زميله عبد الله إبراهيم عن ضرورة أن يحل مصطلح «التخيل التاريخي» محل مصطلح «الرواية التاريخية» ليدفع بالكتابة السردية إلى آفاق جديدة من التطور الفني والتنوع التقني.

وقد كتب أحمد عزيز الحسين(في العدد نفسه) أنّ مصطلح (التخيُّل التاريخيّ) أكثر شمولا في دلالته من مصطلح (الرواية التاريخية)، ويمكن أن تنضوي تحته أجناس أدبية وفنية متعددة مثل (القصة التاريخية) أو (المسرحية التاريخية) أو (الشعر التاريخي) أو (الفن التشكيلي التاريخي)، هذا إذا فهمنا من المصطلحات السابقة قدرتها على أن تجعل من (المادة التاريخية)

متناً لها، مع القدرة على إعادة تشكيل هذه (المادة) تشكيلا جديداً تُطوَّع من خلاله لحمل دلالة مغايرة لدلالتها التاريخية التي تحيل إلى سياق زمني محدد، أما مصطلح (الرواية التاريخية) فيدل على جنس أدبي محدد يستثمر الوثيقة التاريخية، ويعتمدها متناً له، ولكنه يعيد تشكيلها وقولبتها بما يقتضيه مفهوم (التخيل) من إعادة بناء، ويبعده عن المطابقة مع هذه الوثيقة، وينزاح عنها في الوقت نفسه ليغدو (تخيُّلا) لا تاريخاً.

وجاء رد سعيد يقطين في القدس العربي بتاريخ 21يونيو 2017 ليؤكد ما ذهب إليه من قبل وأن مفهوم التخيل التاريخي محاولة ملتبسة لتقديمها نوعا بديلا عن الرواية التاريخية، مع رفض تام لنظرية الأنواع السردية. وأنه يرى الكتابات الروائية التي تمتح مادتها الحكائية من التاريخ العربي، رواية تاريخية «جديدة»، تسهم في تطوير العلاقة بين السرد الروائي والتاريخ عبر تقديمها من زوايا جديدة ومتنوعة، تختلف عن الطريقة التي اعتمدها الروائيون العرب منذ البدايات إلى أواخر الستينيات من القرن الماضي. ويلزم هذا التطوير إعادة النظر في هذه النصوص الروائية بكيفية ترصد تطور النوع وسياقاته وضروراته، بما يتلاءم مع تطور الأنواع السردية العربية بوجه عام.

وأحسبني أميل إلى استخدام المصطلح السائد الرواية التاريخية، وليكن التصنيف تحته نوعيا وغنيا بالصورة التي يراها الباحث والدارس، كما سبق أن أشرت في دراستي عن الرواية التاريخية حين

رأيت أن في الرواية التاريخية، رواية تعليمية وأخرى ناضجة تقوم على قواعد فنية كلاسيكية، ومنها ما يمثل الاستدعاء التاريخي متخطيا النمط الكلاسيكي.

لغة الفن

في كل الأحوال؛ يجب ألا يشغلنا المصطلح أيا كان عن طبيعة الفن الذي يفيد من التاريخ، ويستخدمه بذكاء يمتع القارئ ويوصل رؤية الكاتب بسلاسة وجاذبية. فقد رأى أرسطو منذ زمن بعيد أن الفن أفضل من التاريخ ومن الفلسفة، وهو ما أكده الكلاسيكيون القدماء من بعد أرسطو، أمثال هوراس، وسكالفيرو، وبوالو، ودريدن، فقد أعلوا من قيمة الفن على حساب بقية فروع المعرفة والعلوم.

ويشير مصطفى محرم (الأهرام 2017/7/4)، أن الذين كتبوا أعمالا فنية مستوحاة من التاريخ لم يذكروا المراجع التي استعانوا بها مثل شكسبير في المسرح وسير والتر سكوت في الرواية، وكذلك توفيق الحكيم عندما كتب جوهرته «السلطان الحائر» وفريد أبو حديد ومحمد سعيد العريان وعلى أحمد با كثير. فكان الوحيد الذى يذكر المراجع في رواياته هو جرجي زيدان الذى كتب روايات خلفيتها التاريخ الإسلامي لأنه كان يدرك أنه يكتب عن أحداث دين غير دينه.

وتجب الإشارة هنا إلى أن نجيب الكيلاني أثبت مراجع روايته حارة اليهود التي تعالج جريمة يهودية تاريخية اقترفها يهود دمشق في القرن التاسع عشر ضد رجل الدين المسيحي البادري توما حين ذبحوه وصنعوا من دمه قربانا، فقد أثبت المراجع التي تناولت الجريمة، ومن بينها محضر تحقيق رسمي حيث ألحق صورة لبعض مقاطعه بصفحات الرواية.

شعبية واسعة وصعوبات كبيرة

وتنعم الرواية التاريخية بشعبية واسعة، وتحظى روايات الرواد الكبار من أمثال والتر سكوت(في الإنجليزية) وتولستوي(في الروسية)، ألكسندر دوما الأب (في الفرنسية) بإقبال كبير من القراء في اللغات الأصلية أو لغات العالم التي ترجمت إليها.

وإذا كان الأمر هكذا مع القراء، فإنه يختلف مع الكتاب، وخاصة من يلتزمون في أدبهم بكتابة فن هادف يسعى لإمتاع القارئ، وفي الوقت نفسه يقدم له رؤية تسمو به وترقى، وهو ما نبه إليه نجيب الكيلاني في أكثر من مناسبة تعبيرا عن حيرة يعيشها كتاب الروايات الهادفة والأدب الملتزم، فهم يرون أنفسهم حائرين بين السبك الفني والهدف العقدي، وإذا غرق الفنان في إغراءات الفن وشروره فقد يضر بالهدف الأسمى، وإذا ركز على الهدف وتجاهل متطلبات الفن، تحول العمل الأدبي من رواية إلى شيء آخر غير الرواية.. ومن ثم فلابد من إدارة لقاء مخلص بين الفن والهدف حيث يمضيان معا متكاتفين متصافحين في هذا الطريق المقدس..(انظر: نور الله ج1،المختار الإسلامي، ط 20، القاهرة، 2005، ص9)

من الحيرة إلى الصعوبة

وينتقل الأمر من الحيرة إلى الصعوبة حين يتمنى الكاتب أن يكتب بعض الروايات عن الفترات الحاسمة في التاريخ الإسلامي، فإن مهمته تكون عسيرة وشاقة بالنسبة لعصر النبوة على الأقل. فهو عصر فذ حافل بالبطولات والأحداث، وهناك حرج بالغ يقع فيه

كاتب الرواية التاريخية لا يعانيه كاتب التاريخ أو المؤرخ، لأن الرواية لها متطلباتها الفنية في مقدمتها حرية الحركة والحوار، وهناك توابل أو مشهيات لابد منها وهو ما يفرق بين الرواية والتاريخ.

فالحوار مثلا على لسان الصحابي يمثل صعوبة- هل من حق الكاتب أن يخترع حوارا على لسانه؟ وما مدى حريته في هذا المجال؟ وكيف يقابل العلماء مثل هذا التصرف؟ أدباء الغرب يتخذون من التاريخ وسيلة للتعبير عن آرائهم الخاصة ولا يجدون أنفسهم في حاجة إلى قيود من نوع معين؛ فهم يرون التاريخ وفق قول أحدهم "ما التاريخ إلا مشجب أعلق عليه لوحاتي". ولا شك أن هناك فرقا بين رؤية العرب ورؤية الغرب.

جرجي زيدان

ومن ثم ينتقد نجيب الكيلاني روايات جرجي زيدان التي عبر فيها عن التاريخ الإسلامي؛ فمع نجاحها المبدئي، فإنها تخفي سوءات تاريخية وعقدية وفنية كثيرة. ويرى أن هناك مناهج أخرى بأيدي فنانين يؤمنون حقيقة بالعقيدة الإسلامية ودورها الحضاري الخالد..

ويشير الكيلاني إلى أن الحدث هو العمود الفقري للرواية، وأنه يحاول تقديم الانعكاس النفسي للأحداث الضخمة على صفحة النفوس الطاهرة والشريرة، لأن القارئ يجد الأحداث في آلاف الصفحات، أما التوترات النفسية والقلق الخالد والإيمان الصامد.. فهي أشياء يجد الروائي الجاد فيها بغيته وينطلق فيها قلمه برغم تجاهل أكثر المؤرخين لها(راجع: نور الله ج1، ص7- 9)

ويرى واسيني الأعرج (القدس العربي، لندن، 5 من أبريل2017)، أن كتابة الرواية التاريخية تمثل صعوبة بالنسبة للروائي بصفة عامة، وعند تناول الشخصيات الدينية والقومية أو الوطنية بصفة خاصة..

المؤرخ والموظف

فالكاتب ليس مؤرخاً مع أنه يحاسَب كذلك أحياناً. وليس موظفاً وفياً في أية مؤسسة، مكلفاً من طرفها لإنشاء سيرة ترضيها. الكثير من الكتب تمّت مصادرتها مع أنها ليست سيراً بالمعنى التقليدي المتعارف عليه. منجزات إبداعية بالدرجة الأولى. لهذا فالكتابة عن الشخصية، مغامرة حقيقية، غير مضمونة. تحتاج إلى وسائل صحيحة ودقيقة، أولاها المسئولية الذاتية والجمعية أمام ما يقوله الروائي، معرفة الميدان جيداً إذ هو المرحلة الأولى لتحقيق الانتصار في حرب ليست دائماً مؤمّنة سلفاً، كل عناصرها هشة مثل الكتابة.

الرؤية الغربية

ويبدو واسيني منحازا إلى الرؤية الغربية بالنسبة للشخصية ذات العصمة أو ذات الشعبية، حيث لا يمثل الأمر مشكلة، فالتاريخ عند الغربيين- كما قال بعضهم- مشجب يعلق عليه لوحاته، وتظهر المشكلة بقوة كما يشير واسيني عندما يتم التعامل مع شخصية موضوعية حقيقية عند العرب. تتمتع بطابع مقدس، أو بسلسلة من الصور التي جعلت منها أيقونة (رمزا)، ويريد الكاتب أن يؤنسنها– أي يجعلها شخصية بشرية عادية- من خلال مدارات الفعل الروائي! الأيقونة في اللاوعي البشري ترفض الكسر، أو المس، أو إعادة النظر

كما يقول: ليس للتقليل من قيمتها أو المس بتاريخها كيفما كان، ولكن لإدخالها في مدارات الحياة العامة والعادية. العقل العام المبني على ميراث سياسي وثقافي معين يرفض أي تغيير، وقد يتحول الرفض إلى صراع، وربما استفحل وتحول إلى عداوة معلنة أو مخفية تصل إلى حد اتهام الروائي بضرب تاريخ أمته، أو في حالة استفحال الاختلاف، الإدانة وتهمة العمالة السهلة، والمسّ برموز الدولة، بالخصوص إذا كانت هذه الأيقونات المشتَغَل عليها من نتائج ثورات وطنية أجمعت الأمة على أنها أيقونتها المركزية.

ويخلص واسيني الأعرج أنه لهذا، تحتاج الكتابة الروائية عن الشخصية التاريخية إلى جهد فوق الجهد الاعتيادي. أي جهد المواجهة وإثبات أن النص الروائي ليس تاريخاً، لكنه ليس أيضاً لعبة فوضوية باسم حرية الكتابة عن كل شيء، وبالشكل الذي نريده.

جهد فني فوق جهد

يريد واسيني أن يثبت أن كتابة الرواية التاريخية عمل صعب يحتاج إلى جهد فني فوق الجهد الذي يبذل في كتابة الروايات الأخرى، وإن كان من الضروري أن نشير إلى أن هناك من يتلاعب بالحقائق التاريخية لإرضاء الغزاة السابقين، أو التشكيك في جهاد الأمة ضد المحتلين، وقد رأينا في شمال إفريقية بعض النماذج لهؤلاء الذين حولوا التاريخ إلى لعبة فوضوية، وخاصة بعض العرب الذين يكتبون بالفرنسية.

ومهما يكن من أمر فإن نجيب الكيلاني قد حل مشكلة الشخصيات الدينية وغيرها بالتركيز على انعكاسات الأحداث على نفسية هذه الشخصيات.

***

رائد الرواية التاريخية

ويجمع كثير من الدارسين على أن رواية (وايفرلي) لوالتر سكوت Walter Scott، التي صدرت عام 1814، هي أولى الروايات التاريخية، ويعد مؤلفها رائد كتابة الرواية التاريخية في القرن التاسع عشر، وقد كتبها استجابة لنمو المذهب الرومانتيكي وشيوعه في أوربة وخاصة إنجلترا وفرنسا، وهو مذهب يهتم بالذات الفردية والطبيعة وروح الدين، ويعلى من قدر النزعة القومية، وإحياء الأمجاد الوطنية والبطولات الشعبية، مع نشر قيم التضحية والفروسية والمثالية التي تبذل كل شيء في سبيل البلاد.

لقد كان والتر سكوت، يتخير أبطاله من العصور الوسطى، ويمزجها بشخصيات خيالية مختلفة نابضة بالحياة، غير متعارضة مع العصر التاريخي الذي يصفه، كما كان بارعا في تصوير عادات العصر وتقاليده وملابسه ومقوماته، وتجسيدها متحايلا على حقائق التاريخ. (محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، ط6، 1981، ص 213).

ولاريب أن والتر سكوت كتب الرواية التاريخية ليعرّف بتاريخ شعبه وبطولاته، وإن لم يلتزم بالحقائق التاريخية التزاما كاملا، بل أباح لنفسه التصرف في الأحداث والوقائع ليقدم وجبة قصصية شائقة تجذب القراء؛ خاصة الشباب. ثم يؤثر في الشعور الفردي ليجيب على سؤال فحواه "أتقف مع هذا المجتمع أو ضده؟"، والإجابة تجعل القارئ يطابق بين نفسه وبين فكرة ما. فالأحداث المؤثرة عند والتر سكوت عملية تحويل وجود الناس ووعيهم في أرجاء أوروبا. (موسوعة ويكيبيديا الحرة)

وظهر بلزاك في فرنسا ليضيف للرواية التاريخية ما يسمى وصف تاريخ العادات، حيث أصبح التاريخ هو المجتمع، وبهذا يريد أن يسمو بالرواية إلى قمة التاريخ الفلسفية، بإعطاء الصورة الكاملة لمدينة ما. (فليب فان تيغم: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، ترجمة: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1967، ص 239).

وفي فرنسا أيضا كتب ألكسندر ديماس الأب عام 1844التاريخ الفرنسي ، ابتداء من عصر لويس الثالث عشر حتى عودة الملكية، وحقق نجاحا منقطع النظير. ويعزو فان تيغم، ذلك لإحيائه الماضي الفرنسي وتمجيده لانتصاراته، مع عدم التزامه بالصدق التاريخي، وعدم دقته في التصوير. (المرجع السابق، ص242).

لقد انتعشت الرواية التاريخية وانتشرت في أوربة واتجه كثير من روائيها إلى كتابتها وعرفوا أهميتها، حيث ساد الإحساس بالروح القومية الأوروبية، واللحظات المجيدة في تاريخ أممها، فكتب فكتور

هيجو رواية أحدب نوتردام في 1831، وألف تولستوي رواية الحرب والسلام وظهر في إيطاليا ألكسندرو مانزوني برواية المخطوبين عام 1923، مستحضرا أحداث عصور روما القديمة.

بدايات في حضارتنا

وقد عرف تراثنا العربي القديم محاولات سردية كان يهتم بها القصاص في المساجد وأماكن أخرى تتناول أحوال الأمم السابقة للعظة والاعتبار، وحمل إلينا القرآن قصص الأنبياء السابقين على رسولنا الكريم– صلى الله عليه وسلم- وما جرى لأقوامهم الذين اتبعوهم أو خالفوهم، كما رصد مصايرهم ونهاياتهم.

وهناك نوع من التراجم للشخصيات الإسلامية التاريخية نشأ علماً من العلوم التي تخدم الحديث النبوي أول الأمر، وعندما بدأ مدونو الحديث النبوي المدققون يتتبعون حياة الرواة بهدف تقويم صدق رواياتهم أو احتمال الكذب والتدليس والانتحال، ظهرت مؤلفات الجرح والتعديل، وتوسعت على أيدي علماء أسهموا في تدوين سير الرواة وأضافوا إليهم غير الرواة من الأعلام، كما فعل الذهبي في موسوعته الضخمة سير أعلام النبلاء، وابن عساكر في موسوعته الأضخم تاريخ دمشق.

وفي العصر الحديث عندما فتحت أبواب الأدب لقوالب جديدة ظهر قالب أدب التراجم، ليجمع بين المعلومة العلمية من جهة وبين التحليل الأدبي من جهة أخرى، وليحمل شحنات وجدانية تضيف إلى المادة التاريخية رسالة الأديب الذي يعيد تشكيل تلك المادة. ومن

النماذج البارعة في هذا الميدان كتابات الدكتورة عائشة عبد الرحمن عن آل بيت النبوة، نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بناته. وما كتبه خالد محمد خالد عن أبناء الرسول في كربلاء، وما كتبه آخرون في سياق يلتزم بالوقائع التاريخية دون تحريف، مع الإضافة الوجدانية والتحليلية والتصويرية.(انظر مقالا لعبد الباسط بدر، بعنوان : الشخصيات التاريخية في الأدب الإسلامي، مجلة الأدب الإسلامي الإلكترونية بتاريخ 2017/4/25 والرابط هو: http://www.adabislami.org/magazine/2017/04/2915/154

***

التاريخ مادة قصصية

بيد أن الأدب العربي عرف الرواية التاريخية متأثرا بالآداب الأوربية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عن طريق الترجمة والتعريب والاقتباس، وكان للأدباء العرب في الشام دور أكبر في هذا المجال؛ وخاصة نجيب حداد وقيصر زينية، فقد عرّب نجيب حداد رواية الفرسان الثلاثة لألكسندر ديماس ورواية صلاح الدين لوالتر سكوت التي تصرف فيها وحوّلها إلى نص مسرحي، أما قيصر زينية فقد عرب في سنة 1881 رواية الكونت دي مونتجومري لديماس، وبين عامي 1842 و1914 عرّب ست عشرة رواية أخرى. (عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص142).

وهناك شخصية مهمة برزت في مجال التعريب هي شخصية المترجم والمعرب سليم البستاني (1848- 1881) الذي ترجم إلياذة هوميروس، وكتب روايات تاريخية تدهش القارئ وتأتي بالمفاجآت وفقا لرأي مارون عبود. (انظر: مارون عبود، رواد النهضة العربية، دار العلم للملايين، بيروت، 1952، ص195. وعبد الله إبراهيم: السردية العربية، ص237).

ثلاث وعشرون رواية

ثم جاء جرجي زيدان(1861- 1914)، ليبذل جهودا مكثفة في تحويل التاريخ العربي الإسلامي إلى مادة قصصية عبر رواياته التي كان ينشرها بالتتابع في مجلة الهلال العريقة التي أنشأها بالقاهرة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر(1892). وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة استطاع أن يؤلف ثلاثا وعشرين رواية، أطلق عليها روايات تاريخ الإسلام وبدأها برواية " المملوك الشارد" التي تتناول مذبحة محمد على الشهيرة للمماليك.

لقد رأي أن المادة التاريخية القصصية تجذب القراء إلى المجلة، وتجعلهم يتابعونها ويحرصون على قراءتها. ولذا كان حريصا على أن يدعم ما يقدمه بصور شائقة عن الحب والغرام، متجاوزا في أحيان كثيرة طبيعة الأحداث التاريخية ودقتها، وهو ما أخذه عليه كثير من الدارسين والباحثين، ثم إنه لم يراع جانب الدين الإسلامي الذي كان بعيدا عنه بحكم انتمائه إلى عقيدة أخرى، فوقع في أخطاء عديدة.

وقد عبر عن ملامح منهجه في مقدمة روايته "الحجاج بن يوسف قائلا:

«إننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة (...) وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، وندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ» (جرجي زيدان، الحجاج بن يوسف، دار الهلال، القاهرة، 1989، ص6).

تعليم التاريخ

من الواضح أن زيدان كان يسعى إلى تعليم التاريخ عبر السرد القصصي، وتحويله من مادة جافة في صورتها الأولى إلى مادة مقبولة تجذب القراء وخاصة الشباب للتعرف على أمجاد الآباء والأجداد، وانكساراتهم وعثراتهم. ولكن أخطاءه التاريخية حفزت آخرين من بعده على تصويب ما سجله من خلال روايات اكثر نضجا من الناحية الفنية، وأقرب إلى الدقة والصواب في تناول الحوادث التاريخية والشخصيات التي صنعتها كما فعل على الجارم ومحمد فريد أبو حديد وعلى أحمد با كثير وغيرهم.

ولهذا أدرجت روايات زيدان في دراستي المطولة عن الرواية التاريخية تحت مسمى رواية التعليم أو الرواية التعليمية، لعدم توفر الأسس الفنية لبناء الرواية، وأيضا عدم مراعاة الدقة في سرد الحوادث

التاريخية؛ حيث كانت وسيلة لتحقيق غاية وهي تعليم التاريخ كما رأينا في السطور أعلاه. (انظر: حلمي القاعود، الرواية التاريخية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، 2004، ص320).

نشاط ملحوظ

ما قدمه جرجي زيدان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بالنسبة للرواية التاريخية أثار نشاطا عربيا ملحوظا في مجال كتابة الرواية التاريخية، فنشط عدد كبير من الكتاب ليكتبوا تاريخ الإسلام والعرب من منظور أقرب إلى الدقة والصحة مع نمو الأدوات الفنية، وتنوع طرائق التعبير، وامتد التناول ليبدأ من التاريخ البعيد حتى التاريخ القريب الذي يتوازى في الغالب مع صور الأحوال الراهنة في أثناء الكتابة. كان هناك تناول للحياة العربية في الجاهلية وملاحمها الشهيرة وأبطالها الأفذاذ، ثم كان تناول للسيرة النبوية والدول التي نهضت بعد عصر النبوة وما جرى فيها من أحداث ومواقف وفتن وصراعات، وحظي الأندلس باهتمام كبير نظرا لأن مأساته وتفرق العرب وخلافات الحكام والمآسي التي انتهت إليها، تمثل حالة مشابهة للمرحلة التي وصل إليها العرب والمسلمون في أواسط القرن العشرين، وكان هناك استدعاء للشخصيات التاريخية التي اشتهرت بالعدل والقوة والرحمة والتفتح لتضيء الواقع، وتحفز على ظهور نماذج مماثلة في خضم ظلمات بعضها فوق بعض.

ولم يخل الأمر من الكتابة عن التاريخ الفرعوني انطلاقا من رغبة في بعث الهوية الفرعونية، أو تأصيلا لفكرة الانعزال عن المحيط العربي الإسلامي، تأثرا ببعض الكتابات التي عبرت عن تعصب طائفي بغيض أو فكر انعزالي أناني، كما نرى في كتابات سلامة موسى وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل في مراحله الأولى ولويس عوض وكتاب اليسار بصفة عامة.

التحريف والتزوير

ويمكن أن نسجل هنا بعض الأسماء التي برزت في مجال الكتابة الروائية التاريخية في القرن العشرين، على تفاوت في الموهبة الفنية والقدرة التعبيرية والرؤية الإنسانية:

على الجارم- محمد فريد أبو حديد- محمود تيمور- نجيب محفوظ- محمد عبد الحليم عبد الله – إبراهيم الإبياري- عادل كامل- على أحمد با كثير – محمد سعيد العريان- عبد الحميد جودة السحار- سعد مكاوي- فتحي غانم- ثروت أباظة- نجيب الكيلاني- أبو المعاطي أبو النجا- ادوار الخراط- محمد جبريل- رضوى عاشور- صنع الله إبراهيم- حجاج حسن أدول- مجيد طوبيا- أليفة رفعت- بهاء طاهر- يوسف زيدان- إبراهيم عبد المجيد- سلوى بكر-..

والمفارقة أن بعض أصحاب المواهب الضعيفة والقدرات التعبيرية المتواضعة حاولوا التغطية على ضعفهم وتواضع إمكاناتهم بتحريف التاريخ أو تزويره طلبا لجوائز أو منافع أو رضا بعض الجهات الطائفية أو العرقية أو الأجنبية.

وإذا كنت قد خصصت الكتاب المصريين بالذكر في مجال الإنشاء الروائي التاريخي لطبيعة البحث، فالواجب أن أشير إلى جهد الكاتب السوري معروف الأرناؤوط الذي بذل جهودا طيبة في مجال الرواية التاريخية الإسلامية القائمة على التصور الإسلامي الناضج.

التصور الإسلامي

ومع أن كتاب الرواية التاريخية اهتموا ببلورة الآمال والأحلام القومية والوطنية، فإن نجيب الكيلاني يبدو أنه فاق معظمهم من ناحية الكم وناحية الكيف، فرواياته التاريخية كثيرة، ولكنها تميزت بطرح التصور الإسلامي من خلال شخصياتها وأحداثها وحواراتها وفضاءاتها الزمنية والمكانية جميعا.

وهو بهذا حلق في آفاق العالم الإسلامي ،بل العالم الأوربي، وطرح فكرة الإسلام والحياة به، والمقاومة من خلاله، لتشمل رواياته الاستشرافية، ورواياته الواقعية، ورواياته التاريخية جميعا.

في رواياته الاستشرافية رأى الأمل في تحرير المسلمين غير العرب الذين يعانون القهر والاحتلال في تركستان تحت الحكم الشيوعي الصيني عبر روايته "ليالي تركستان"، وفي إندونيسيا تحت حكم الغزاة والمبشرين في روايته "عذراء جاكرتا"، وفي الحبشة تحت حكم هيلاسلاسي الظالم من خلال روايته "الظل الأسود"، وفي نيجيريا تحت حكم الطغاة المدعومين من الغرب الاستعماري على صفحات روايته "عمالقة الشمال".. لقد تناول تاريخ المسلمين في هذه الأماكن،

وصورما تعرضوا له من مهانة وإذلال، وعبر عن جهادهم وكفاحهم بروح الإيمان والإخلاص ليعيشوا أحرارا مثل بقية البشر الأحرار!

الواقع اليومي

وفي رواياته الواقعية، اتجه إلى الواقع اليومي الذي يعيشه الناس، وانطلق منه ليعالجه وفقا للتصور الإسلامي الذي يفهمه العامة والخاصة، ويقدم من خلاله حلولا لمشكلات مزمنة وسائدة في المجتمع طال عليها الأمد، ويربط بين تطور الحياة الاجتماعية ومنهج الإسلام في التعامل مع مستجدات الحياة، وأهمية فهم مقاصد التشريع الإسلامي وغاياته المنحازة دائما لصالح الإنسان في كل زمان ومكان.

أما رواياته التاريخية، فيمكن القول إنها أول روايات عربية استطاعت أن تقدم مسيرة الإسلام ودعوته في إطار فني غير مسبوق، مع حرص واضح على تناغم الفكرة والأداة بما يحقق أدبا إسلاميا لا مكان فيه للترهل أو الخطابية أو القصور الفني أو التعبيري.

لو كان الأمر بيدي لجعلتها من المقررات الدراسية في التعليم الأساسي يدرسها الطلاب المسلمون وغير المسلمين ليتعرفوا على الإسلام تاريخا وفكرا وسلوكا، وأيضا ليستوعبوا طبيعة أعداء الإسلام والإنسان في كل زمان ومكان.

***

الواقعية التاريخية

وتأتي رواياته التي تعالج جهاد الشعب المصري ضد الغزاة الفرنسيين والإنجليز واليهود، لتقدم التاريخ الوطني سهلا ميسورا، مرتبطا بالفكرة الإسلامية دون تكلف أو افتعال.

وللكيلاني رأي قد يكون فريدا في الروايات التاريخية، فهو يراها روايات واقعية ويشير إليها بوصفها أمرا بدهيا وحقيقة ثابتة، وأن العمل الأدبي الذي يشكل مادتها تشكيلا فنيا في صدق وإخلاص ومهارة لا يقل جمالا وأثرا وتحريضا عن غيره من الأعمال.

ويرى أن الأدباء الذين حصروا الواقعية في الحاضر أو العصر الراهن، يتحيفون على الواقعية ويجحفون بمفهومها ويهدرون انطلاق الأديب ويحدون من حريته، فالواقع التاريخي لا يقل أهمية وروعة عن واقعنا المعاصر، فضلا عن أن واقعنا مزيج من أحداث الماضي وتفاعلاته مع الحاضر، واختلاطه بإرهاصات المستقبل والآمال المنوطة به. (انظر: نجيب الكيلاني، طلائع الفجر، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ = 1993م، ص 4)

دراسات أخرى

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أنني قدمت بعض الدراسات خاصة ببعض الروايات التي كتبها نجيب الكيلاني، وبعضها له علاقة بماشرة بهذه الدراسة.

فقد تناولت في زمن بعيد روايته رحلة إلى الله التي تتناول صراع الحكم العسكري في عهد عبد الناصر مع الحركة الإسلامية، وتعذيب

المعتقلين بأبشع ألوان التعذيب في السجن الحربي. وكانت وقائع الرواية وشخصياتها وأماكنها حقيقية، وقد نشرت الدراسة في إحدى الدوريات، وضمنتها كتابا لي اسمه " مسلمون.. لا نخجل" صدر في السبعينيات من القرن الماضي، وتكرر طبعه بعد ذلك.

وقد صارت وقائع الرواية تاريخا يحسب السبق فيه لنجيب الكيلاني، حيث كان من أوائل، إن لم يكن أول، من سجل مشاهد التعذيب والإجرام الذي مارسه الحكام المهزومون الذين جلبوا الخيبة والعار والهزيمة الساحقة على شعبنا البائس، وشعوب أمتنا التعيسة!

انتقام المشركين

وهناك رواية "قاتل حمزة" التي كتبها الكيلاني لتكشف جانبا من الصراع بين قريش والرسول- صلى الله عليه وسلم- من خلال انتقام المشركين من سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، عن طريق استخدام العبد الحبشي وحشي. لقد نشرت هذه الدراسة في بعض المجلات، ولعلي أتمكن من إلحاقها بآخر هذه الدراسة لتعم الفائدة.

وهناك دراسة كتبتها قبل عقدين أو أكثر، وليست تحت يدي الآن، عن روايته "مملكة البلعوطي"، وتتناول مرحلة الحرب العالمية الثانية، وأحوال مصر الاجتماعية، وكانت تدور حول جده الذي أطلق الناس في القرية عليه اسم البلعوطي، بعد أن واجه مع أخيه عصابات من البلطجية في سوق المدينة، وهزمهم هزيمة غير

متوقعة، فصنعت له مجدا ومكانة بين أهالي المنطقة جميعا . وتنسب الرواية إلى التاريخ الاجتماعي للريف المصري إن صح التعبير.

***

منجم نفيس

يمكن القول إن الرواية الإسلامية المعبرة عن التصور الإسلامي الناضج، فقدت برحيل نجيب الكيلاني، كاتبا يصعب ملء الفراغ بعده، وخاصة في مجال الرواية التاريخية التي احتشد لها منذ شبابه، وبذل في سبيلها كثيرا من الوقت والجهد، استثمرتهما موهبته الفنية الساطعة، وأنتجت عددا كبيرمن الروايات التاريخية الرائعة.

لاشك أن لدينا مواهب روائية شابة عديدة، تنشط في مجال التعبير القصصي الإسلامي بصفة عامة، وإن كان ينقصها الاهتمام بالتاريخ نظرا لصعوبة استخدامه ومشقة الكتابة الروائية من خلاله.

لعلهم يلتفتون إلى هذا المجال مستقبلا، وإدراك ضرورة تقديم التاريخ الإسلامي للأجيال الجديدة في صورة ناضجة متكاملة، في ظل استهداف الصورة الإسلامية الصحيحة من جانب أطراف شرسة وقوى شريرة؛ تستبيح الإسلام وتاريخه، وتسعى لاستئصاله ومحوه من الوجود، ولا تكل أو تمل من العمل في سبيل تحقيق هدفها الشيطاني الشرير.

نأمل أن ينمو روائيون إسلاميون من الشباب، يهتمون بتقديم التاريخ الإسلامي، فهو منجم نفيس لا ينضب، ولا يجف، ولا يفرغ من الحوادث والشخصيات والأفكار الخصبة المثمرة.

الفصل الأول
الموضوع الروائي

الموضوع الروائي هو الموضوع التاريخي في روايات الواقعية التاريخية، ويدور حول نشر الدعوة الإسلامية ومجاهدة الأعداء، والتعرف على طبائعهم وأخلاقهم وكشف تصرفاتهم وأفعالهم.

وبصفة عامة يمكن القول إن الروايات التاريخية الواقعية لدى نجيب الكيلاني تسعى لتأصيل الوعي بتاريخ الدعوة الإسلامية، ودور المسلمين في مقاومة خصومهم وأعدائهم، وأثر الخلافات بين المسلمين في إضعافهم وتشويه صورة الإسلام، دور الشعوب المسلمة في مواجهة الغزاة الأجانب الذين احتلوا الأوطان وأذلوا أهلها ونهبوا ثرواتها وخيراتها في القرون الأخيرة.

وفي إطار هذا الجهاد المقدس تبرز الشخصيات المؤمنة والمرابطة، والشخصيات الخائرة والخائنة. أصحاب الإيمان القوي في الدفاع عن الدين والوطن، وأرباب السلامة والجبن والهرب. من يضحون في سبيل الله عن طيب نفس ورضا بما وعدهم الله بعد الشهادة من جنة عرضها السموات والأرض، ومن غفلوا عن ذكر الله وظنوا البعد عن ميدان القتال سيحميهم ويصون أموالهم وأعراضهم ويؤخر موتهم أو يطيل أعمارهم. من أصروا على مواجهة الأعداء وإعداد ما يستطيعون من قوة ثقة في نصر الله الذي وعد، ومن يظنون أن المقاييس المادية هي الفيصل الوحيد في المعارك فيولون الأدبار أو ينحازون إلى العدو.

هناك أعداء طبيعيون ومباشرون للدعوة الإسلامية مثل مشركي قريش أو الوثنيين، وهؤلاء يقاومون الدعوة لأنها تغير واقعهم وتنقله من وضع ألفوه وعاشوا به أزمانا طويلة، إلى حالة جديدة لا أصنام فيها ولا تفرقة عنصرية، ولا ولاء إلا لله الواحد الأحد.

وهناك أعداء محتملون، وهم أصحاب العقائد السماوية السابقة على الإسلام، وهم أهل كتاب، وهؤلاء لم يتعرضوا للمسلمين في أول الأمر بأذى، بل هناك من آمن ودخل راضيا إلى ساحة الدين الجديد. بيد أن هؤلاء كانوا أشد قسوة على الإسلام والمسلمين منذ نزول الوحي حتى اليوم، فقد تآمر اليهود على الدعوة وصاحبها عليه الصلاة والسلام، ودبروا المكائد والمؤامرات، حرضوا القبائل، وخانوا العهود والمواثيق، وجاهروا بالعداوة والأذى، وغدروا بالمسلمين في أحرج المواقف، وبعد انتصار الإسلام بدأت الحروب المنظمة والاحتلال من جانب الروم أو الفرنجة أو الصليبيين أو الاستعمار الغربي، وما زالت حتى اليوم.

روايات الواقعية التاريخية تعالج فكرة الصراع مع العدو، وتوضح معالم تكوينه العدواني، وأسسها المؤذية في إطار سردي شائق يجسم الأفكار ويستبطن النفوس، ويبرز المعاني الإنسانية في إطار التصور الإسلامي القائم على التوحيد والعدالة والأخوة البشرية.

مسيرة النور

فرواية نور الله- تتناول هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة ثم إلى يثرب (المدينة المنورة)، والصراع بين المسلمين المهاجرين وأهل مكة.

وتظهر شخصية عمر بن الخطاب وهو يعادي الدعوة في أول الأمر، ثم يعلن إسلامه ويدعم الدعوة وينافح عنها بسيفه ولسانه.

وفي الرواية يدور الصراع بين الدعوة وخصومها على امتداد المسافة بين مكة والمدينة المنورة. فهناك الغزوات التي دارت في بدر وأحد والخندق(حول المدينة) بين المشركين من قريش والقبائل من ناحية، والمسلمين من ناحية أخرى. وهناك أيضا المؤامرات اليهودية التي تمثلت في الخداع والغدر والتحريض على الدعوة ونقض العقود والمواثيق في أشد اللحظات حرجا، فكان عقاب اليهود في بنى قينقاع وبني النضير وبني قريظة نتيجة ما اقترفوه من جرائم، ولحق بهم يهود خيبر الذين أعلنوا الحرب على المسلمين بغية القضاء على الإسلام.

ثم كان بناء الدولة الإسلامية وتأمينها في شتى الاتجاهات، واكتمال التشريع مع ردع مصادر التهديد والعدوان في المدينة وما حولها وعلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وتنتهي الرواية بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا، وتبرز الرواية مفاهيم التوحيد والعبادة وقيم الإسلام وبطولات المسلمين واستشهادهم وتواضعهم حتى حققوا الانتصار العظيم.

ويتوسع الكاتب في تفصيل بعض القضايا ، وخاصة ما يتعلق بالتآمر اليهودي ضد الإسلام والمسلمين ، فيكتب رواية "على أبواب خيبر"، وتتناول غزوة خيبر وتصفية آخر معاقل الخطر اليهودي على الإسلام والمسلمين في الجزيرة العربية.

وتقع خيبر في الجنوب الشرقي للمدينة المنورة وتعد مدينة محصنة تحصينا قويا، حيث تتعدد الحصون الحربية فيها، ويملك سكانها اليهود الكثير من الأموال والذهب والكنوز، فضلا عن المزارع والبساتين والتجارة.

ويقود اليهود في خيبر نفر من مشاهيرهم، منهم: كنانة بن الربيع زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسلام بن مشكم زوج زينب بنت الحارث، والحجاج بن علاط وهو تاجر يهودي مشهور. وهؤلاء الزعماء على صلة بالمنافق اليهود الأشهر أو رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، الذي يسكن المدينة ويتعامل مع المسلمين في الظاهر بوجه مسلم، ومع اليهود بوجهه اليهودي الخفي. كان دوره هو التحريض الخفي ضد المسلمين مما شجع يهود بني قينقاع والنضير وقريظة والقبائل على نقض المعاهدات مع المسلمين والغدر بهم في أثناء مواجهة قريش وحلفائها .

وكان اليهود يظنون أنهم أقوى قوة في الجزيرة العربية وأنهم قادرون بما يملكون من مال وذهب ونفوذ على تحدي المسلمين وسحقهم والقضاء عليهم. وقد خاطبوا القوى الأخرى التي يمكن أن تساعدهم في حربهم ضد الإسلام وتصفيته، فقد ذهبوا إلى الروم، وتحدثوا مع أبي سفيان زعيم قريش، وقبيلة غطفان، والقبائل الساخطة على المسلمين، وكانوا يظنون أيضا أن التخطيط لشن هجومهم سيستغرق وقتا، ولكن الرسول– صلى الله عليه وسلم– حين علم بغدرهم ونقضهم للعهد، سبقهم وسيّر إليهم الجيش، ومع أن الفارق

كان كبيرا، والقوى غير متكافئة، حيث يملك اليهود إمكانات أكبر: فقد استطاع المسلمون بفضل الله ثم إخلاصهم واستبسالهم أن يحققوا النصر، وأن يقضوا على أكبر مراكز الخطر اليهودي وآخرها، وغنموا أموال الغادرين وممتلكاتهم.

العمل الوثائقي

ولأن الطبيعة اليهودية نكدة على مدى التاريخ، والخلق اليهودي يؤمن بالغدر والأذى فقد خصص الكاتب روايته "حارة اليهود" ليكشف الطبيعة اليهودية والخلق اليهودي بعد عشرة قرون تقريبا منذ القضاء على خطرهم في صدر الإسلام.

وتتناول الرواية حادثة حقيقية جرت في دمشق عام 1840م، حيث قام اليهود القاطنين بحارة اليهود في دمشق بذبح الأب المسيحي البادري توما، والعامل الذي يساعده إبراهيم عمار، وفصد دمهما لصناعة ما يسمى الفطير المقدس عند اليهود .

الحادثة لها وثائق رسمية عبارة عن محاضر تحقيق مع المتهمين اليهود واعترافاتهم التفصيلية بذبح رجل الدين المسيحي وتابعه، وتقطيع جسده ودق عظامه، والتخلص من الأجزاء المتبقية: اللحم والعظام في أحد المصارف المائية، كما تضم بعض القرارات والفرمانات التي صدرت عن مسئولين في دمشق وعن محمد على حاكم مصر والشام في ذلك الحين. فضلا عن كتب اليهود مثل التلمود التي كتبها أحبارهم وتحض على الكراهية اليخود واستحلال

دمائهم وأموالهم وممتلكاتهم، بوصفهم أميين (غير يهود) لا حق لهم ولا واجب، ولا مسئولية.

ويسجل الكاتب في بداية الرواية والختام بعض الصور الزنكوغرافية من صفحات المحاضر والوثائق المتعلقة بالحادث .

وقد عبر الكيلاني عن صعوبة تحويل عمل وثائقي مثل هذا إلى عمل روائي شائق يحافظ على طبيعة الحادث وفي الوقت نفسه يقيم بناء فنيا له مقتضياته وأسسه .

إن الوثائق غالبا ما تأتي جافة مباشرة ولا تهتم إلا بالحقائق المجردة، مليئة بالصيغ التقليدية، والعبارات الركيكة المتداولة، وإذا كانت الوثائق تبرز الحقائق الأولية، فإنها لا تكترث بالأبعاد النفسية للشخصيات، وقد تغيب في ثناياها بعض الدوافع المهمة والأسس الخطيرة .

هذا الوضع قد يتعارض مع مستلزمات الفن القصصي، ويخرج به عن دائرة الإبداع المطلوب، والإجادة المرجوة، ومن ثم فلا طريق للفنان سوى أن يضع قاعدة عريضة وأساسا متينا، يقيم عليهما بناءه الفني، ألا وهو الحقائق الكلية، والاستعانة ببعض الوقائع المبتكرة. وتعني الوقائع المبتكرة محاولة رسم الخلفية الاجتماعية والعاطفية والنفسية للحدث .

إن زوجة داود هراري " كاميليا " مثلا لم يقصد بها سوى إبراز التناقض الحاد، والعفن الاجتماعي، والاضطراب العاطفي؛ الذي تبرزه التعاليم الزائفة المستقاة من شروح التلمود، وتعززه القيم

الفاسدة، التي درج عليها المجتمع اليهودي بما يسيطر عليه من جشع وأنانية ومادية مفرطة.. كاميليا رمز حيوي متحرك وتجسيم لمأساة الضلال اليهودي القديم، وصورة صادقة للعقد النفسية التي ينضح بها التاريخ لملة أصابها الزيف والشطط عبر العصور. وقس على ذلك ما قد يرد من حوار موضوع، أو مواقف متخيلة، لا تتنافى وطبيعة القضية المطروحة، ولا تخرج عن إطار الحدث المثير..

ويذكر نجيب الكيلاني أنه من آن لآخر يضطر لإثبات بعض النصوص بحذافيرها، دون أن يتعارض ذلك مع السياق الفني، كما لجأ إلى اختصار بعض النصوص لتؤدي الغرض المطلوب دون إخلال بالحقيقة التاريخية أو الفنية .

ومن هذه النصوص التي وردت في الرواية من كتاب "الطور يورد": هو كتاب ألفه العالم الرباني يعقوب، وهو أحد أئمة اليهود وآراؤه معتبرة في المسائل الدينية، وجاء في البند 158 إنه محرم على اليهودي أن ينجي أحدا من بقية الأمم من البشر التي يكون وقع فيها، وعلى الطبيب اليهودي ألا يداوي أمّيا (غير يهودي) مطلقا ولو بالأجرة إلا إذا أراد ضرره أو الانتفاع بماله، فإذا كان مبتدئا في هذا الفن: فليتعلم بمداواة باقي الأمم، ويجوز إجراء المعالجة مجانا في هذه الحالة .."(انظر: نجيب الكيلاني، حارة اليهود، ص23-24)

بعد ثلاثة عشر قرنا من الزمان يستأسد اليهود مرة أخرى، ويغزون أرض فلسطين، ويمارسون في غزوهم كل الجرائم والموبقات التي تعف عنها الوحوش، فيخصص الكيلاني روايتين، الأولى: "أرض

الأنبياء" التي تعالج النكبة التي تمت في عام 1948، وفيها تم تهجير كثير من الفلسطينيين، وإقامة الكيان الصهيوني، والأخرى كانت بعد نحو أربعين عاما وعنوانها " عمر يظهر في القدس " وقد كتبت عنها فصلا مطولا نشرته في كتابي "الرواية التاريخية في أدبنا العربي الحديث".

تتناول "أرض الأنبياء" المأساة الفلسطينية أو العربية بل الإسلامية في مواجهة احتلال الغزو اليهودي للأرض المقدسة قبل إعلان دولة الكيان الصهيوني وبعد هدنة مخادعة أتيح فيها للعدو الصهيوني أن يرتب أوضاعه، وينال اعتراف الدول الاستعمارية الكبرى؛ في ظل تخاذل الحكام العرب أو خيانتهم أو استسلامهم المهين للإرادة اليهودية الظالمة .

ويقدم الكيلاني للرواية بمقدمة يعبر فيها عن مشاعره وعواطفه تجاه الأرض المقدسة وعن زيارته لها وتجوله في القدس العربية (نصف القدس) قبل احتلالها كاملة عام 1967م، ويكشف عن سرّ بكائه وهو يزور المسجد الأقصى، موضحا أن فلسطين أرض الأنبياء والبطولات، وأن الغزاة الذين تناوبوا على احتلالها ذهبوا وبقيت مهما كانت قوتهم من صليبيين ومغول وتتار وغيرهم، وهو يضع يده في أيدي الشباب للعمل من أجل تحرير فلسطين وإعادتها إلى حضن الأمة الإسلامية.

مواكب الأحرار

وإذا كان التآمر اليهودي على الإسلام والمسلمين قد استغرق اهتمام نجيب الكيلاني، فإنه التفت إلى موضوعين مهمين يتعلقان بالصراع مع خصوم الإسلام والمسلمين، الأول يتعلق بالخلافات التي تنشب بين المسلمين أنفسهم فتزرع بينهم العداوة والبغضاء، والآخر يرتبط بمقاومة الحملات الاستعمارية الغربية التي حطت على أرض مصر، وانتهت في كل الأحوال بانسحاب الغزاة وخروجهم منها بعد جهاد طويل وكفاح مرير.

بالنسبة للموضوع الأول، فقد تناوله من خلال روايته "الرايات السوداء"، التي رصدت بعض ملامح الحروب والنزاعات التي وقعت بين بني أمية والمتشيعين لآل البيت من العلويين والعباسيين، وقد راح ضحية هذا الصراع أنفس كثيرة دون داع يتحمل مسئوليتها الطامعون في الحكم والتسلط، كما انقسم المسلمون إلى أحزاب متناحرة تجاهلت روح الدين الحنيف وشريعته الغراء التي تحض على الأخوة والتسامح والإيثار والرحمة.

ويؤكد في هذا الموضوع على أن الدين طاهر بريء من دماء الضحايا، ومن أخطاء الذين يرفعون رايته وهم مخطئون، فهو يحض على التفاهم والتشاور لا التصارع والتقاتل.

ثم إنه يطرح من خلال هذه الصراعات مشكلة الحرية، ومعنى أن يكون الإنسان حرا من خلال مفهوم إسلامي. فقد عمل الإسلام على تحرير الرقيق، ووضع الوسائل والطرق المختلفة لتحريرهم، ولكن

المشكلة في العبيد أنفسهم حيث يرفض بعضهم أن يترك مالك رقبته الذي اعتاد عليه، وتربي في ظله، وعاش في بيته أو قصره آمنا منعما لا يلقي بالا للبحث عن الطعام أو الشراب، أو الكدح لجمع المال الذي يعينه على الحياة.

وهناك الرجل الحر فعلا ولكنه يفتقر إلى حرية الروح والتخلص من قيود المادة وأسر الدنيا وزخارفها وعاداتها وتقاليدها وأطماعها المخالفة للفطرة الإنسانية.

وتقدم الرواية نموذجا للرجل الحر الذي لا يخشي إلا الله، وهو عالم الدين الشيخ عبد الله- تأمل دلالة الاسم- صهر على بن أميمة، فقد انحاز الرجل إلى الدين الصحيح ورفض قسوة العباسيين وظلمهم وجبروتهم، وكانت النتيجة أن أدخلوه السجن وظل به حتى مات بعد أن عذبوه ونالوا منه مع أنه صهر لأحد قادتهم.

ولكن الرواية تطرح سؤالا حزينا مؤلما:

لماذا ينقسم المسلمون إلى عشرات الطوائف والنحل والمذاهب، وقد كانوا وحدة واحدة تسع العديد من الآراء والأفكار؟

أحداث الرواية تقدم نتائج هذا الانقسام.

بالنسبة للموضوع الآخر وهو مواجهة الغزاة، فقد أفرد له أكثر من رواية، ففي روايته "مواكب الأحرار"، يتناول كفاح المصريين ضد الحملة الفرنسية على مصر أواخر القرن الثامن عشر (1798-1801م) بقيادة نابليون بونابرت.

وتبلور الرواية أحداث فترة حساسة مرّ بها الوطن وواجه فيها قوة لا قبل له بها، ولكنه قدم التضحيات الغالية: الدم، والمال، حتى تم طرد الغزاة.

لقد مارس الفرنسيون الغزاة منذ وصول جيشهم الإسكندرية على ظهر أسطولهم البحري وحشية غير مسبوقة، بالاستيلاء على المدينة بالدم والرعب، وأعدمت السيد محمد كريم حاكمها الوطني وقائد المقاومة، ثم انطلق العسكر الفرنساوية إلى القاهرة عبر البر، واستولوا على رشيد ودمنهور والرحمانية وشبراخيت بعد مذابح دموية ونهب وقهر، حتى وصلوا إلى بولاق وهزموا المماليك والأتراك في إمبابة وعين شمس.

وتهتم الرواية بتقديم مسرح الأحداث، والقوى الفاعلة التي تتحرك عليه من مماليك وأتراك، وفي الخلفية يظهر دور الإنجليز الذي يتصارعون بأساطيلهم مع الفرنسيين للسيطرة على الطرق الموصلة إلى الهند وما يتاخمها في آسيا، والاستيلاء على المنافذ الرئيسية بما يضمن حركة التجارة أو النهب الذي تقوم به جيوش القوتين المتصارعتين..

أضف إلى ذلك الكشف عن وضع القوة الشعبية التي تدفع ثمن الصراعات وتتعرض للسلب والنهب والظلم من جانب المماليك والأتراك والغزاة جميعا، وتعيش في وضع بائس يحكمه الفقر والمعاناة وسوء الأحوال.

وتبرز الرواية خيانة برطلمين أو برتلمي الذي سماه العامة "فرط الرمان" بسبب احمرار خديه، وهو رومي مستجلب مع المماليك، ويشبه في خيانته (قطان) الذي تصوره رواية (طلائع الفجر) التي تعالج مقاومة أهل رشيد لحملة فريزر، ويبدو هنا الشخصية الأكثر حضورا بالنسبة للشخصيات الفرنسية، وله ابنة اسمها (هيلدا)، يتاجر بها مثلما فعل(قطان) الأرمني الذي استوطن بين المصريين في رشيد مع ابنته (روز)، وتعامل معهم فشجعوا تجارته حتى اغتنى وصار واحدا منهم، ولكنه خانهم وانحاز للإنجليز، وتجسس على أهل رشيد وتآمر، فقد كانت عاقبته التي يستحقها مخزية .

وتوضح الرواية سلوك الأب الخائن الديوث فرط الرمان مع ابنته هيلدا التي تحب فارسا مملوكيا مسلما اسمه ابراهيم أغا، يخبرها أنه لا يحب المماليك والأتراك. ويسعى فرط الرمان للحيلولة بينهما، بتشويه صورتها لديه، وخاصة أنه من دين غير دينها. ولكنها تتمسك به، حيث تراه إنسانا طيبا وتذكّر أباها بما كان يغدقه عليه سابقا من صفات حسنة، وفخره بمنزلته لدى الحاكم مراد بك، ولكن أباها يصارحها بانحيازه للغزاة بقيادة نابليون، وأنه سيكسب من ورائهم كثيرا، ماديا ومعنويا. وأن علاقتها بإبراهيم ستعد خيانة كبرى لا يغتفرها الفرنسيون.

وعندما يذهب إبراهيم إلى إمبابة ليكون في الجبهة الأمامية في مواجهة الفرنسيين، يكلفها أبوها بمهمة قذرة ضد إبراهيم لعمل كمين ضد المدافعين عن القاهرة. ويقدمها إلى ضابط فرنسي تمارس

معه الرذيلة، ومع الجندي الذي يحرسه. وينتشي فرط الرمان بهزيمة المصريين، وينتقل من حال متواضعة إلى حال أخرى تضعه في مكانة الأمر والنهي، والرجاء والطمع. فقد عينه الغزاة وكيلا للمحافظة. وصار يبحث عن رءوس يقطعها، ويطلب من ابنته أن تشرب الخمر كي تنسى بعد أن أخبرها بوفاة المملوك إبراهيم أغا الذي كانت تحبه وتنتظره؛ فتشرب وتهذي وتمارس الخطيئة. فقد ضيعها الأب الديوث والابنة، بعد جعلها تتمزق بين عاطفتها نحو إبراهيم أغا من ناحية والجنرال والجندي من ناحية أخرى.

وتبرز الرواية دور المقاومة الشعبية من خلال الحاج مصطفى البشتيلي الذي يعيش محنة الاحتلال وقلة إمكانات المقاومة، ولكنه يصر على مواصلة العمل ضد الغزاة، ويرفض الهجرة إلى الريف أو يهرب في اتجاه بر الشام كما فعل بعض أصدقائه. وتؤلمه انهيارات مقاومة الأتراك والمماليك في الإسكندرية وضواحيها. ولكنه يذكّر المترددين أو الهاربين من المواجهة بمعاني القرآن الكريم وكلمات الله التي تغيب عنهم في ذلك الحين، وبالتالي لا يطبقونها في حياتهم، ويفرح حين يجابههم الشيخ العجوز بقوله تعالى:" يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ .." (الأنفال:15-16). هذا هو الحكم الشرعي في من يفر أو يهرب.

ولكنهم يرددون قوله تعالى:
" أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟"(النساء:97). (وردت في النص إليها، وهو خطأ غير مقصود)

ولكن الشيخ يرد في غضب بأن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وتلاعب غريب بآيات الله! (انظر: مواكب الأحرار، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، 1413هـ = 1993م ، ص 47) .

وتكشف الرواية مواقف الأطراف حين تحدث الهزيمة الساحقة في إمبابة، فقد فر مراد بك مع بقايا المماليك، وتقدم نابليون إلى قلب القاهرة، وحاول الشعب أن يقاوم وكثرت الخسائر والدمار.. والملك لله وحده!

وترصد "مواكب الأحرار" محاولات نابليون للسيطرة على المصريين، فقد ألف ما يسمى بالديوان من مشايخ وأعيان القاهرة، ويأبى الشيخ السادات أن ينضم إليه؛ فيكون هدفا لفرط الرمان من أجل إعدامه، ولكن نابليون يعارض قتله لأن في ذلك ضررا عليه، ويعيش المصريون هزيمة ثقيلة حزينة، بعد سحق المماليك والأتراك، وصمت الباب العالي، ولكن الشيخ إبراهيم سلامة يحاول أن يبث فيهم الأمل باستعادة ذكريات هزيمة المغول، واعتناق بعضهم للإسلام، واندماجهم في مجتمعهم الكبير.

وتأتي الأخبار عن تعرض الأسطول الإنجليزي للأسطول الفرنسي عند الإسكندرية فيبتهج المصريون ويحزن الفرنسيون، ويواجه فرط الرمان مأساته الفردية بسبب سقوط ابنته مع الجنرال ديبوي.

تنبعث الثورة مرة أخرى، وينتعش الحاج مصطفى البشتيلي، ويحاول أعضاء الديوان الذي كونه نابليون تهدئة الثائرين دون جدوى، ويسقط ديبوي قتيلا بطعنة أحد الثائرين، وينشد فرط الرمان الفرار، ويأمر نابليون بمهاجمة الجماهير التي قتلت الكولونيل سلكوسكي، وضرب الأزهر بالمدافع، والاستيلاء على مدخله، والمنازل الموصلة إليه، وإحراق المنازل التي تلقى منها الحجارة. ويخسر الثوار معركة أخرى ويشمت فيهم فرط الرمان، وفي مئات الشهداء والجرحى الذين سقطوا والأبنية التي تهدمت. ويعجب لإصرار الثوار على مواصلة القتال والزحف مع كل الخسائر التي نزلت بهم، وعلمهم أن المعركة قد حسمت لصالح الغزاة! وفي الوقت نفسه فإن انهيار ابنته هيلدا، وتذكيرها الدائم له بأنه مع الفرنسيين يرتكبون جريمة خطيرة بشعة بسفك الدماء، يسبب له منغصا يفسد فرحته وشماتته بالمصريين.

وتصور الرواية تصويرا مؤثرا تبدّد وعود نابليون وأكاذيبه، واقتحام خيله للأزهر واتخاذ قبلته مربطا لها، ودهم الطلبة وتجريدهم من المال والمتاع والطعام، ووطء الكتب والمصاحف بأحذيتهم.. (راجع: مواكب الأحرار، ص 138-139)

ويقبض على البشتيلي، ويتم تعذيبه وإهانته وقتله على يد برتلمي وهو مقيد في طابور طويل من الأسرى يساقون إلى القلعة. وتفيض الرواية في تصوير سجن القلعة وتعذيب الأسرى ومعاناتهم وموت بعضهم متأثرا بجروحه وقسوة الضرب.

يعود إبراهيم أغا كيانا مهدما بعد الفرار إلى الصعيد واكتشافه أن مراد بك رجل سيئ، وأن كثيرا من المماليك أخذوا يميلون لمهادنة الغزاة والتفاهم معهم، ويلتقي بهيلدا ويفكر في قتل برتلمي ولكن الأخير يعتقله ويلقيه في السجن. ولكن هيلدا تصر على إخراجه.

ولكن الرواية في كل الأحوال تنجح في تقديم المقاومة الشعبية، ورفضها للغزاة الفرنسيين، مع عدم التكافؤ بين الطرفين.

طلائع الفجر

وتتناول رواية "طلائع الفجر" حملة فريزر الإنجليزية عام 1807م على مصر وهزيمته في رشيد بعد مقاومة أهلها وقتالهم ضد جنوده قتالا عنيفا .

ويلاحظ أن فكرة الرواية سبق تناولها في أكثر من عمل أدبي، لتصويب ما كتبه آخرون، أو لأن الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر حاول أن يعبر عن مقاومة أهل رشيد في عمل روائي وهو طالب في المرحلة الثانوية. فأعلنت الحكومة المصرية من خلال وزارة الثقافة عن مسابقة لمن يصوغ هذه الرواية، أو يكملها، فتقدم للمسابقة عدد غير قليل من الأدباء، فاز بعضهم بالجوائز الأولى، واهتم غيرهم بتقديمها في عمل درامي تمثيلي عبر إذاعة القاهرة، **والأعمال التي تناولت الحملة هي:**

- رواية غادة رشيد لعلي الجارم ، ابن رشيد، والشاعر والروائي المعروف، وكانت ضمن مقررات المدارس العامة لسنوات طويلة .

- رواية عبد الرحمن فهمي التي قامت على المحاولة الروائية التي لم تكتمل من جمال عبد الناصر. وقد جاءت الرواية في حجم ضخم واسمها "في سبيل الحرية".

- رواية عبدالرحيم عجاج، في الموضوع ذاته، وكانت روايته ورواية عبد الرحمن فهمي قد فازتا في المسابقة التي أقامتها وزارة الثقافة عام 1959 لإكمال رواية جمال عبد الناصر، وسبقت الإشارة أليها.

- وقد أذاع البرنامج العام من القاهرة الرواية في شكل مسلسل إذاعي أعده الشاعر المعروف طاهر أبو فاشا عام 1960.

- رواية على شلش ، وجاءت أيضا استكمالا لما كتبه جمال عبد الناصر وتطويرا له.

ويرى الكيلاني من خلال الحوار بين بعض شخصيات المقاومة وذويهم أن سبب الحروب هو الطمع. القوي تغريه قوته فيطمع في سلب الضعيف والغني تسكره ثروته فيسيل لعابه من أجل المزيد.. وأن الطمع أساس سفك الدماء وليس الصراع بين الكفرة والمسلمين. (انظر: طلائع الفجر، ص22 وما بعدها) .

وإذا كان الطمع هو السبب الواضح، فإن هناك أسبابا أخرى قائمة، فالغطرسة الغربية، والعنصرية والتعصب الديني والوحشية التي تصم من ماتت ضمائرهم وغاب إيمانهم بالله في الغرب الاستعماري، تفسر ما يجري للضعفاء المستباحين من الشعوب الإسلامية وغيرها.

وفي رواية "النداء الخالد" يكشف الكيلاني ما قام به الشعب المصري في ثورة 19 وإعلان جمهورية زفتي، ومعاناة المصريين من الاحتلال الإنجليزي، والمرابين اليهود الذين استوطنوا مدن مصر وقراها.

ونقابل في الرواية عددا من الشخصيات الشعبية أبرزها من الشباب: المهندس أحمد والفتاة صابرين، ومن الكبار العمدة وهو شخصية متحولة، والشيخ عنبة العجوز الثائر المتأثر بجمال الدين الأفغاني، والخواجة يني المرابي اليهودي الذي استولى على أراضي الفلاحين في القرية نتيجة الإقراض بالربا، والإغراء بالخمر التي أدمنها بعض السذج والمخدوعين، فاضطروا لمدّ اليد إلى الخواجة المرابي نظير التوقيع على أوراق تضمن له الاستيلاء على محاصيلهم وأراضيهم إذا لم يقدروا على سداد الدين الربوي، وللأسف فقد ضحوا بكل ما يملكون من أجل كاس ..

وبين الثورة على المحتل الغاصب والقمع الذي تواجهه الثورة مع سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، سقط كثير من الشهداء والمصابين، وتنتهي الثورة إلى استقلال مشروط أو ناقص، ولكن رجال الثورة يصرون على المقاومة، استمرار العمل ومواجهة متطلبات الحياة..

***

وعي الكاتب

لقد عبر الكيلاني عن مجموعة من الوقائع التاريخية في إطار واقعي، سرد من خلالها مسيرة الدعوة الإسلامية وصراعها مع قريش والقبائل المتحالفة معها، وتناول المكائد اليهودية التي انتهت بإجلائهم من الجزيرة العربية. بالإضافة إلى التعبير عن الخلافات بين المسلمين وتفرقهم نتيجة لنسيانهم ثوابت الإسلام وطبيعته التي تحرم دم المسلم على المسلم، ثم استعراضه لمقاومة الاستعمار وجبروته حتى رحيله عن البلد المظلوم.

وفي سياق المسيرة صور العديد من الشخصيات والمواقف التي تكشف الفارق بين قيم الإسلام وقيم الوثنية والشرك، وهو ما يعبر عن رهافة وعي الكاتب بالتاريخ الإسلامي والعربي وحركته مدا وجزرا، ورغبته العارمة في تحقيق مستقبل أفضل للمسلمين المعاصرين يقوم على الإيمان والجهاد والعمل المتقن.

والكاتب حين يروي لنا مسيرة الدعوة والجهاد في سبيلها وسبيل الوطن لا يهدف كما يقول "موباسان " أن يسلينا أو يثير شعورنا، بل هدفه أن يجبرنا على أن نفكر ونفهم المغزى العميق الخفي للحوادث ، وفنّه لا يتجلى في المؤثرات العاطفية أو في مجال اللغة أو البداية المشوقة أو الصراع المؤثر، بل تكمن قدرته في حشد التفاصيل الدقيقة المتكررة التي ستعمل على إبراز المغزى الجوهري " وقوله (ستعمل) يعنى أن مغزى القصة لن يتضح إلا بعد الانتهاء من قراءتها بحرص وأناة. حتى نستطيع نحن أن نساعد الأديب على

استكمال الصورة المراد إيصالها إلينا". (طه محمود، القصة في الأدب الإنجليزي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1385هـ =1966م، ص 141).

وفي النهاية يمكن القول إن نجيب الكيلاني قدم نماذج إنسانية ومواقف يمكن أن تجري اليوم وغدا كما جرت بالأمس، وتعيش معنا وفي واقعنا دون أن يفتعلها الخيال أو الفكر. إنه النموذج الإنساني الحيّ الذى يصنع الأحداث والموقف الذي يشارك فيها، يبقى حياً دائماً في النفوس والقلوب التي تتلامس معه أو تلتقى به. (انظر: محمد يوسف نجم، فن القصة، ط 7، دار الثقافة، بيروت 1979، ص 156).

إن هذه الروايات تقدم النماذج والمواقف التي تحدث في كل زمان ومكان لارتباطها بالنفس الإنسانية وحركتها الدائبة هنا وهناك، وليست بنت وقت معين أو مكان محدد، فهي ليست من نوع القصص الإصلاحي، أو بنت اللحظة، ولكنها قصص الماضي والحاضر والمستقبل. وقصص المجتمعات المختلفة.

إن القصص الإصلاحية– كما يقول بعض الباحثين– تكون عادة قصيرة الأجل، لا يكتب لها البقاء، لأنه لابد من أن يأتي يوم تعالج فيه النقائص، وتدرج في سجل النسيان وكثيراً ما يوفق الكاتب في هزة الحماسة التي تمتلكه، إلى تصوير بعض الحوادث تصويراً حيّاً متحركاً، وإلى تلوين البيئة بألوان صادقة معبرة، وهو بهذا يمهد لقصته سبيل الخلود، فتطوى فكرته الإصلاحية مع الزمن، وتبقى هذه الألوان الفنية الصادقة. (انظر: السابق، 26-27).

الفصل الثاني
الحبكة الروائية

تعرف المعاجم الأدبية والموسوعات الثقافية، الرواية بأنها سرد نثري طويل يصف شخصيات خيالية أو واقعية وأحداثاً على شكل قصة متسلسلة، كما أنها أكبر الأجناس القصصية من حيث الحجم وتعدد الشخصيات وتنوع الأحداث، وقد ظهرت في أوروبا بوصفها جنساً أدبياً مؤثراً في القرن الثامن عشر، كما يقال إن الرواية حكاية تعتمد السرد بما فيه من وصف وحوار وصراع بين الشخصيات وما ينطوي عليه ذلك من تأزم وجدل وتغذيه الأحداث.(انظر: مجدي وهبة وزكي المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص183)

ولا ريب أن الرواية التاريخية تحفل بالأحداث والأشخاص والصراعات ويضفي عليها الكتاب بأساليبهم ولغتهم ما يقدم صورة حية للمرحلة التي تتناولها، ويتم ذلك بالتشويق والوصف والتصوير من خلال الحبكة التي تجعل القارئ في شغف دائم لمتابعة أحداثها وشخصياتها حتى النهاية.

الحبكة تعني سير أحداث القصة ناحية الحل. ويوجد نمطان لأحداث الحبكة:

الحبكة النمطية: وفيها تسير الأحداث بالشكل المتعارف عليها من البداية الطبيعية للأحداث ثم التسلسل الطبيعي في حدوث العقدة ثم تصاعدها ومحاولة حلها.

الحبكة المركبة: التي تبدأ الأحداث فيها بالنهاية، ثم يتم استعراض الأحداث التي أدت إليها.. أي يبدأ الكاتب بالعقدة أو الأزمة ثم يحاول حلها مسترجعا بداية الأحداث بطريقة ما. (انظر السابق، ص144، وفن القصة، ص 63)

ويُطلق على العقدة "الحبكة الأولى"، وهي بدء الصراع الذي يخلق الحركة وتقدم أحداث القصة، وهو المشهد أو الحدث الذي يغير من حياة الشخصية ويهيئه كي يحل هذه العقدة أو الأزمة. وبدون وجود العقدة وحدوث التغير في الشخصية الأساسية وظهور عنصر التشويق والإثارة فستظل القصة باردة أو مملّة أو "ساكنة بلا حراك". (انظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص250)

ويعمل تصاعد الأحداث أو الصراع على حل العقدة بمعرفة الشخصية الأساسية أو البطل بعد اكتشافها، لكنه يُقابل بقوى معاكسة تحاول منعه من حل هذه العقدة.. وهنا تتفاعل الأحداث وتتصاعد ويكبر الصراع ويشتد. حيث تقوى الرغبة في التغلب على المعوقات والصعوبات التي تواجه البطل طوال أحداث القصة دون أن يستسلم، ويبدأ البطل رحلته في البحث عن مفتاح الحل، وقد

تتلاشى هذه الرغبة في بادئ الأمر إذا تعرض للهزيمة لكن سرعان ما تعاوده بقوة مرة أخرى لكي يحل العقدة ونصل إلى نهاية الرواية.

وإذا كانت العقدة هي "الحبكة الأولى"، فذروة الأحداث هي "الحبكة الثانية" (السابق،172)، وهي اللحظة التي يكتشف فيها البطل طبيعة العقدة المقدمة في الرواية (الصراع) وعلاقتها بحياته ويُطلق عليها "لحظة الكينونة" وهذا ما قالته الكاتبة "فيرجينيا وولف". وفيها تتضح جميع العلاقات في الرواية بين الخير والشر وقد لا يعرف البطل كيفية حل هذه العقدة لكن كل شيء وكل معلومة تتضح أمامه في هذه المرحلة من الرواية.

وبعد حل العقدة تقل حدة التشويق والإثارة عند هذه النقطة في القصة، حيث تعود الأحداث من جديد في الرجوع إلى إيقاعها الطبيعي الذي بدأت به. وهنا يتم التوصل إلى الحقيقة والتي بمقتضاها يحل البطل الصراع. وفي هذه المرحلة لم يعد البطل هو الوحيد الذي يعلم بالمشكلة ولكن أصبحت الحقائق مرئية أمام جميع شخصيات العمل، ويقول نجم السينما العالمي "بروس ويلز": "ذروة المشكلة يمكن تشبيهها بالدم الموجود داخل الجسد، أما عند حلها يصبح الدم خارجه".

تصميم الرواية

نلاحظ في روايات الواقعية التاريخية عند نجيب الكيلاني أنها محكومة في تصميمها الروائي بالخيط التاريخي صعودا في الغالب. نادرا ما يرجع الراوي إلى مرحلة سابقة ليجليها أو يوضحها أو ينميها

بالتفاصيل، فالتسلسل الروائي يتحرك صاعدا باستمرار من البداية حتى النهاية. قد يجد فرصة مناسبة في الحوار ليعود إلى الوراء ليضيء الأحداث المتوالية، أو يرى في المناجاة أو تيار الوعي ما يفعل الشيء نفسه،

وهو ما نراه في رواية "نور الله" بجزئيها.

والأحداث في روايات نجيب الكيلاني تكاد تكون سيدة الموقف، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون للشخصيات حضور بارز، بل فائق في بعض الأحيان، وإن كان التفاعل بين الأحداث والشخصيات يبدو متكاملا ومنسجما، وهوما أشار إليه بعض النقاد الذين رأوا أن روايات نجيب الكيلانى من النوع الذى يطلق عليه القصة التمثيلية dramatic novel حيث يكون التفاعل على أتمه بين الحوادث والشخصيات ، فالحادثة التي تجترحها الشخصية، سرعان ما تصبح عاملاً مؤثراً في القصة ، قد يمس الشخصية نفسها مساً ليناً ،أو عنيفاً عاتيا ..... (محمد يوسف نجم ، فن القصة ، 34).

فالراوي يهتم وخاصة في الجزء الأول بسرد أحداث السيرة ومجرياتها من خلال الحوار الذي يبدو أداة أساسية في تفسير ما حدث وبيان ما سيحدث، إلى جانب سرد الوقائع بالتسلسل التاريخي الذي أوضحته السيرة ولكن في ثوب فني شائق، مستغلا تحركات اليهود ومخططاتهم السرية والعلنية، مما يوحي أن الخطر الأكبر على الدعوة إلى جانب المشركين؛ كان من قبل اليهود الذين جعلوا عداءهم لها جذريا

وأقوى من عداء قريش والقبائل، متسترين بالنفاق والسرية في التخطيط والتحريض.

فقد بدأت الأحداث بمطاردة المشركين للمسلمين مما اضطرهم للهجرة إلى الحبشة، ومن خلال المطاردة تتغير فكرة "عمر بن الخطاب" عن الإسلام فيعلن إسلامه ويهاجر علنا إلى المدينة المنورة، ويلحق بالمسلمين هناك وقد خُلق خلقا جديدا، ومن خلال السرد الأفقي لمسار الدعوة بدءا من السرية ثم العلنية وما بينهما من تعذيب للضعفاء والعبيد كي يتركوا الإسلام واستشهاد بعض المسلمين على يد معذبيهم، ثم الانطلاق إلى أفق جديد في يثرب لتعزيز مكانة الإسلام ونشر الدعوة؛ نرى عمر يتحول تحولا فاعلا، وتظهر شخصيته في حماية الدعوة والدفاع عنها، على نطاق أوسع، مع نشوء حالة من عدم الرضا عن الدين الجديد لدى اليهود وتحولهم إلى مقاومته والتحريض ضده والتآمر عليه.

يساعد تقسيم الرواية إلى فصول مرقمة على بناء الأحداث بطريقة تصاعدية تقدم الشخصيات المؤثرة والأحداث المتتابعة، فنرى مثلا شخصية السيدة صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود وهي تبدي مشاعر مختلفة عن مشاعر أبيها وزوجها وزعماء اليهود تجاه الدين الجديد. ومن خلالها نعلم طرفا من نظرة اليهود المستخفة إلى المرأة والتهوين من شأنها. بيد أن الشغل الشاغل لليهود هو التآمر على الدعوة خاصة مع اقتراب الصدام بين المسلمين وقريش باعتراض

قافلة أبي سفيان القادمة من بلاد الشام، ونطالع خطتهم لاغتيال عمر بن الخطاب عن طريق يهودية تبيع الهوى، ولكن الخطة تفشل.
ومع توالي الأحداث والصدام بين المسلمين والمشركين تبرز قيمة الشورى بوصفها أداة تساعد على اختيار الموقف الأقرب إلى الصواب، ففي غزوتي أحد والأحزاب ينزل الرسول– صلى الله عليه وسلم– على رأي أصحابه فيما يتعلق بموضوع الخروج من المدينة لمواجهة قريش وحلفائها، أو حفر الخندق، مما كانت له نتائج أسهمت في تحقيق حبكة الرواية الأولى(العقدة).
عندما فتحت يثرب أبوابها لقافلة النور وعلى رأسها الرجل الذي تحدثت باسمه الركبان، وقف اليهود يرمقون هذا الغزو؟.. أو الزحف الهادئ في توجس وترقب، وقال كبيرهم كعب بن أسد في قلق: " أيها اليهود هذا يوم له ما بعده.. وما أظن إلا إنه نبي مرسل قد قدم عليكم .. فإما أن تؤمنوا بدعوته، أو تستعدوا لأهوال لا يعلم إلا الله مداها..".
وكان يقف إلى جواره كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي والمرابي الكبير، وحيي بن أخطب الداهية الكبير، وعمرو بن سعدي ذلك اليهودي الهادئ الذي يمتلئ قلبه بالحيرة والاضطراب.. إن الأمر جد خطير، وفي حاجة ماسة إلى تفكير متصل ..
وتمتم كعب بن الأشرف : " يجب أن نفتح عيوننا جيدا.." (نور الله ج1، ص40- 41)

ينتصر المسلمون في غزوة بدر وهو ما يدفع اليهود إلى الغدر وتحريض قريش بمعرفة كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب على الأخذ بالثأر، ونلمح ما تسميه الرواية بالإلهام والذكاء في مواجهة المؤامرات، ومقاومة استخدام المرأة في عمليات التجسس والخداع والاغتيال؛ بما يذكر بدور اليهودية القديمة سالومي مع النبي يحيى عليه السلام! ويبدأ الصدام اليهودي مع المسلمين من خلال بني قينقاع، ولكنهم يدفعون ثمن تأمرهم حصارا وإخراجا من المدينة عقابا لهم على تأمرهم وغدرهم وتحرشهم بالمسلمين.

وتبرز الرواية دور المنافق عبد الله بن أبي ودور اليهود في أثناء غزوة أحد التي انتصر فيها المسلمون أول الأمر وانهزموا في نهايته. فقد حرضوا قريشا والقبائل على الثأر من المسلمين لقتلاهم في بدر، والقضاء عليهم بجيش قوي يسحقهم تماما، ولكن ذلك لم يتحقق بسبب صمود المسلمين- الذين انهزموا– وبعد الهزيمة لم يتوقف اليهود عن إثارة الفتن والاضطرابات للقضاء على الإسلام والمسلمين. فنقضوا العهود والمواثيق التي وقعوها مع المسلمين، وفي هذا السياق يُقتل كعب بن الأشرف أحد زعماء اليهود نتيجة خيانته، وتحريضه القبائل لحرب المسلمين في غزوة الأحزاب (الخندق)، حيث زُلزل المسلمون بسبب الفارق الهائل بين قوتهم المتواضعة وقوة المشركين الهائلة.

وتحت حشد القبائل وتآمر اليهود يبدع الكاتب في تصوير الصراع والوصول بالأحداث إلى ذروة الحبكة التي تكلل بتبديد شمل الأحزاب

وعقاب بني قريظة، وتطهير المدينة تماما من غدر اليهود وكشف المنافقين الذين تصوروا أن قوى الأحزاب ستنتصر وأنهم أي المنافقين، سيعودون إلى المدينة بوصفهم الأعز ليخرجوا المسلمين منها بوصفهم الأذل، ولكن الله خيب ظنهم وجعل المؤمنين الأعز والمنافقين الأذل.

وينتهي الجزء الأول (بوصفة رواية مستقلة) بمقتل الزعيم اليهودي الأقوى حيي بن أخطب، وحزن ابنته صفية، وخلافها مع زوجها كنانة بن الربيع حيث يبدأ الجزء الثاني من نور الله الذي لا يختلف كثيرا في بنائه كثيرا عن الجزء الأول، ولكنه يتناول فترة نمو الدعوة وانتصارات الإسلام حتى يتم فتح مكة، ويدخل الناس في دين الله أفواجا. وتعد رواية "قاتل حمزة"، امتدادا لهاتين الروايتين، حيث ترصد مسيرة الإسلام حتى عصر الخلفاء الراشدين، وإن كان محورها العبد حبشي الذي تحول من الجاهلية والعبودية إلى الإسلام والحرية، ومن عدوّ للإسلام وقاتل لسيّد الشهداء، إلى مجاهد في سبيله وقاتل لمسيلمة الكذّاب.

على أبواب خيبر

تتكون الرواية من فصول عددها ستة عشر فصلا، تقدم الأحداث في تتابع أفقي، وتحكي بضمير الغائب أو الضمير الثالث الذي يحيط بكل شيء في الأحداث.

تمهد الرواية للأحداث بتقديم صفية بنت حيي بن أخطب وعلاقتها بزوجها، بعد الحلم الذي رأته بدخول قمر يثرب في حجرها، في الوقت الذي يعمل فيه زعماء اليهود؛ ومنهم زوجها وأبوها على تدبير المؤامرات للقضاء على الإسلام والمسلمين، وخاصة بعد أن غدر يهود بني قينقاع وبني النضير بالعهود والمواثيق التي وقعوها مع المسلمين فعوقبوا على جرائمهم وأخرجوا من المدينة وذهب بعضهم إلى خيبر أكبر تجمع يهودي في الجزيرة العربية، وبعضهم الآخر إلى بني قريظة، وبعضهم الثالث إلى أماكن أخرى.

نقض يهود بني قريظة عهدهم مع النبي– صلى الله عليه وسلم- في الحرب على أعدائه وحماية ظهره، وفي وقت الشدة انحازوا لصفوف الأعداء في غزوة الخندق، وبعد أن تفرقت الأحزاب كان لا بد أن يلقى بنو قريظه مصيرهم المحتوم جزاء وفاقا نتيجة غدرهم وتآمرهم، وكان مقتل زعيم خيبر ورأس المتآمرين حيي بن أخطب ضربة قاصمة لليهود في بني قريظة وخيبر جميعا. ويفكر كنانة بن الربيع زوج صفية بنت حيي بن أخطب في الثأر من المسلمين، وتظل صفية في جانب المعارضة ورفض خطط اليهود، وتراهم يكذبون "أنتم عصارة الحقد النجس والزيغ القديم والانحراف الأزلي"(على أبواب خيبر، ص 32). وتحدث جفوة بينها وبين زوجها بسبب تجاهلها له. ويحاول استرضاءها برأس محمد، ولكنها تخبره أن أبغض شيء إلى نفسها حديث الدماء. (انظر: على أبواب خيبر، ص 35-41).

ويسافر عبد الله بن أبي رأس المنافقين اليهود في رحلة إلى خيبر، ويسميها ساخرا: " رحلة إلى الله" بحثا عن الثأر من محمد وأتباعه، ففي خيبر قادة اليهود الباحثين عن الثأر، وفيها الحقد العظيم المدمر، وهي أرض الأمل بالنسبة لليهود في تدمير محمد وهدم البناء الذي أقامه، ويخبرهم أن محمدا يبغي الزحف إلى مكة، فيرون أن في ذلك حتفه، ولكن رأس المنافقين يخبرهم أن محمدا من أحرص الناس وأنه خارج للحج ولا يبغي سوى السلام والمحبة والسماح له بتأدية الشعائر، وهو ما يجعل اعتداء العرب عليه موجبا للوم والعيب والاستنكار. لن ينضم أحد إلى العرب وفي مكة مسلمون متخفّون؛ أقارب وأصهار للمهاجرين والأنصار.. ثم إن محمدا قادر على سحب قواته عند الخطر. ويتحدث ابن أبي عن حشد غطفان وقريش والأحزاب من جديد، وترى زينب بنت الحارث أن قتل محمد هو أقصر الطرق، وتعلن عن استعداد النساء لبذل جواهرهن ومالهن من أجل هذه الغاية " حتى لا نصبح يوما في عداد السبايا" (على أبواب خيبر، ص51)

يزداد التوتر ويشتد الصراع بسبب الهدنة بين قريش ومحمد، وينزعج زعماء اليهود، فيتحدثون عن رغبتهم في التحالف مع الروم ورؤية فرار المسلمين أمامهم، وتراودهم أحلام إذلال المسلمين وسبي نسائهم وخاصة زوجات محمد كما تحلم زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم، التي تقودها الأحلام إلى التفكير في الذهاب إلى المدينة لتعلن إسلامها نفاقا لتقتله بالسم أو الخنجر. ثم تفكر في

عبد من عبيدها اسمه فهد تمنحه نفسها مقابل أن يغتال محمدا مقابل حريته، ويخبر سلام قومه بأن الحرب قادمة لا محالة ويدعوهم إلى الخروج إلى يثرب ومعهم غطفان ويهود من وادي القرى وفدك وتيماء، لأن النصر محقق؛ فاليهود هم الأقوى من وجهة نظره، ولكنه يستمع إلى معارضة تنتقد رأيه.

ويتقدم المسلمون نحو خيبر للقضاء على أخطر بؤرة للشر في الجزيرة العربية، ويفشل العبد فهد في اغتيال محمد بعد أن رده جيش المسلمين. ويأمر سلام بن مشكم من حوله بالتحصن والاستعداد للحرب، وفي غمرة ما يجري يسمع العبد فهد صوتا رفيعا من أصوات عبيد مولاه:

"اذهب إلى حصن العيال.. هناك ستجد زينب.

وولى هاربا وهو يقهقه"..(انظر: السابق ، ص 91)

يؤثر صلح الحديبية إيجابيا على المسلمين والمشركين في وقف الحرب وإتاحة الفرصة لنشر الدعوة الإسلامية وحفظ دماء الطرفين وإتاحة الفرصة لحركة التجارة دون مشكلات، ولكن خروج المسلمين إلى خيبر يثير كثيرا من الجدل والاهتمام في مكة. وبينما يرى خالد بن الوليد أن المسلمين سينتصرون لحبهم الموت في سبيل الله، يرى عكرمة بن أبي جهل أن اليهود هم الذي سينتصرون بسبب ما يملكون من حصون وسلاح وأموال. وتعبر هند بنت عتبة زوج أبي سفيان عن أحقادها تجاه المسلمين وتتهم زوجها بالتخاذل وتتمنى هزيمة محمد وأتباعه.

ويحتشد المقاتلون اليهود في حصن "أنطاد" بخيبر يقودهم سلام بن مشكم، ويخطب فيهم محرضا على الموت دفاعا عن اليهود. وصفية بنت حيي بن أخطب تتحدث إلى زينب بنت الحارث بأنه كان يمكن تجنب إراقة الدماء لو طلب اليهود الصلح ولم يعتزموا السير إلى محمد، لكنها تستنكف أن يطلب اليهود الصلح لأنهم الأقوياء الذين يملون الشروط بسيوفهم (انظر: السابق أيضا، ص113)

يحتدم القتال ويُقتل سلام بن مشكم، وتسقط الحصون، ويفكر كنانة بن الربيع في الهروب، وترفض صفيه الهروب معه، ويستسلم المقاتلون اليهود، وترتفع التكبيرات بانتصار المسلمين. وهكذا تنحل العقدة الكبرى بعد وصولها إلى الذروة، وتأخذ الأحداث طريقها إلى الهدوء والوصول إل إلى نهايتها.

تحاول زينب بنت الحارث أن تنفذ خطة لقتل محمد، ولكنها تُكتشف فتُقتل قصاصا، ويشيعها العبد فهد بقوله: "إلى الجحيم يا داعرة!" (نفسه، ص134)

أما صفية فتختار الإسلام، ويختارها الرسول– صلى الله عليه وسلم- زوجا له، ويتحقق حلم القمر الذي يأتي من يثرب ويدخل في حجرها.

وفي مكة يبتهج العباس بن عبد المطلب بنصر ابن أخيه ويذهب ليطوف بالكعبة، ويكسب خالد بن الوليد الرهان من عكرمة بن أبي جهل، ويصرف جهده للبحث عن الحق.

حارة اليهود

يقوم بناء رواية "حارة اليهود" على فصول مرقمة تمضي أحداثها في استطراد أفقي.

وتمهد الرواية للجريمة بضعف العلاقة الحميمة بين كاميليا وزوجها داود هراي الذي يكبر ها بخمسة وعشرين عاما، فيفكر في تناول ما يقوّيه جنسيا ليشبع حاجة زوجته.

وهنا يأتي التفكير في الفطير المقدس المعجون بدم مسيحي لتتحقق القوة الجنسية المطلوبة. فيقرر داود مع آخرين من اليهود وسليمان الحلاق ذبح الأب توما وصناعة الفطير المقدس من دمه . وينتظر سليمان مكافأة كبيرة من آل هراري.

يذهب الأب توما من أصل إيطالي والمقيم في دمشق منذ سنوات طويلة إلى حارة اليهود ليلصق إعلان وراثة لإحدى الأسر المسيحية، فيلتقي بصديقه داود وعدد من اليهود من بينهم الحاخام سلانيكي الذي يمدح داود ويعلن خشيته من تحوله عن دينه بسبب صداقته للأب توما. ويطلب داود من توما تطعيم طفل يهودي بطعم الجدري.

" هيا بنا لإعطاء الطعم أولا.. وستكون هناك فرصة لشرب الشاي، ومجاذبتك أطراف الحديث.. إني في شدة الشوق للقياك، لم أعد أطيق فراقك" (حارة اليهود، ص 37)

في البيت يكشر داود عن أنيابه ويتم ربط الراهب توما على الصليب واستدعاء سليمان الحلاق ليقوم بالذبح ويلحق به خادمه إبراهيم عمار الذي كان يبحث عنه. وأحدث خبر اختفاء الرجلين ضجة على

المستويات المختلفة في دمشق، وأشارت أصابع الاتهام إلى اليهود وتذاكر الناس تاريخ اليهود الدموي المتعلق بالفطير المقدس، وجواز قتل المسلمين في هذا السياق، وأنكر اليهود صلتهم باختفاء توما وخادمه وذرف داود دموع التماسيح من عينيه حزنا على صديقه الحميم الذي اختفى!

يتم القبض على سليمان ويبدأ التحقيق بمعرفة الوالي شريف باشا وينكر ويحذره اليهود من الاعتراف، وفي الحبس الانفرادي يبدأ الشك في العقيدة، ويعترف اعترافا غير كامل ويتم استدعاء آل هراي وآخرين ولكنهم ينكرون.

يحدث صراع بين كاميليا وأستير الخادمة على مراد الفتال، حيث تكشف الأخيرة علاقتها الآثمة بخطيبها مراد.

أخيرا يعترف سليمان ويصف كيف ذبحوا توما وتخلصوا من أحشائه وعظامه. واعترف الآخرون، وكان للحادثة آثارها على المتهمين جميعا فمنهم من فكر في وسائل النجاة الممكنة ومنهم من تزلزل إيمانه باليهودية وتعاليم التلمود وراح يبحث عن الحقيقة، ومنهم من أعلن إسلامه مثل الحاخام موسى أبو العافية بعد طول بحث ونقاش. وأخذ داود وآخرون يعلقون آمالهم على أوربة لتنقذهم معتمدين على ما يملكون من مال ونفوذ.

في لحظات النهاية كان داود يعبر عن عنصريته المقيتة، وكان يتفاخر بأن اليهود خلقوا ليحكموا العالم لأنهم سادة البشر والله في سمائه يبكي من أجلهم ويذرف الدموع... (حارة اليهود، ص 106وما بعدها)

يوسف هراري يحتضر، يوسف لينياوده مات بالأمس من شدة المرض، وأسلم أبو العافية.. " سننتظر المسيح الحقيقي القادم هو وفرسانه راكبين الإبل والجياد، وبكاؤنا على أورشليم الخراب سيظل مستمرا حتى.." (حارة اليهود، ص 106)

عاد سليمان الحلاق إلى بيته، وغادر مراد الفتال إلى خارج دمشق بعد العفو عنهما ، ومات يوسف هراري ، وأطلق سراح أبو العافية بعد إسلامه وترك حارة اليهود ولم يأبه لما تقوله عائلته وأقاربه عن الفضيحة التي ستلحق بهم جراء إسلامه. وحكم على الباقين بالإعدام. ولكن محاولات اليهود في أوربة تنجح بالرشوة مالا وسلاحا في إقناع محمد على حاكم مصر والشام بإطلاق سراح المجرمين!

أرض الأنبياء

مثل الروايات السابقة؛ تنقسم الرواية إلى فصول عددها ست وعشرون فصلا، تكاد تكون متساوية في عدد صفحاتها وكلماتها. وفي الفصول تبدو الأحداث متتابعة بطريقة أفقية منذ احتلال حيفا حتى نهاية الحرب في عام 1948 وتوقف حركة المقاومة الفلسطينية وانتصار اليهود وإعلان دولتهم الظالمة .

تبدأ الرواية بتسليم البريطانيين الغزاة فلسطين لليهود وإنهاء الانتداب، ويقوم اليهود المسلحون بقتل الفلسطينيين، ولأنه لا يوجد تنظيم أو تسليح لدى العرب، فإنهم يهربون من بيوتهم وخاصة في مدينة حيفا إلى المجهول، بسبب المذابح التي يقترفها اليهود ضدهم.

ومن خلال هجوم العصابات اليهودية على بيوت الفلسطينيين نتعرف على مجازر اليهود ضد العرب ونماذج للوحشية اليهودية على أرض فلسطين. ميجور صهيوني مخمور يدخل بيتا عربيا في حيفا والمدفع في يده، وفي إثره شرذمة من الجنود اليهود القتلة، فيجد فتاة عربية عذراء في التاسعة عشرة ينقض عليها بعد أن يصيبها بجراح ويشق قميص نومها ويعتدى على عرضها ويأمر جنوده بنهب المال والجواهر في البيت وقتل شقيقها وبقية الأسرة. لم ينج إلا والد الفتاة (نجلاء) الذي لم تقتله الإصابة، فيلحق بالمهجّرين.

ويهرب المواطنون العزل من حيفا في حالة مأساوية أمام الزحف الهمجي الذي تقوم به العصابات اليهودية المسلحة، وقد سهّل الانجليز لهم هذه المهمة، ليحققوا خطتهم في إبادة الفلسطينيين، وإجلاء من يتبقى حيا وفقا لمعطيات حلم الدولة اليهودية من النيل إلى الفرات، إنهم يذبحون الفلسطينيين ويشكرون الرب الذي جعلهم يحتلون حيفا ويطهّرونها من المتمردين العرب! ويواصلون شحن المقاتلين الصهاينة نفسيا وفكريا بما يسمونه المأساة اليهودية والتشريد والاضطهاد في بقاع الأرض المختلفة، مع أنهم حسب مزاعمهم أصحاب دين من أسمى الأديان!!

هذا يجعلهم بما يملكون من مال وسلاح ودهاء وتأييد عالمي ونفوذ دولي يمتلكون أرض فلسطين ولا يلتفتون إلى حجج العرب في امتلاكها. في ظل مناخ مناسب لهم فهم يرون العرب ضعفاء ومتخلفين، وبعضهم عربي شكلا وإنجليزي في الحقيقة، وليست

لديهم طاقة على المواجهة العسكرية، بل إن بعض حكامهم يعمل سرا لحسابهم!

يعبر أحد قادتهم عن سعادته بالمذابح التي قام بها المقاتلون اليهود في حيفا. ويحرضهم على استخدام أبشع السبل لتحقيق حلمهم القديم، ويكرر عليهم أن المال يفتح الأبواب المغلقة ليرفرف العلم ذو النجمة السداسية فوق قصور الخلفاء وقباب المساجد ومقاصير ألف ليلة وليلة! من خلال خطة تقوم على الحرب السريعة الخاطفة والحاسمة لقطع خط الرجعة على توحد العرب ومقاومتهم للغزو اليهودي، بالإضافة إلى أن الحرب يجب أن تكون بلا رحمة، مع التأكيد على ضرورة إبادة الشعب الفلسطيني العربي كلما لاحت الفرصة حتى لا تقوم للفلسطينيين أو العرب قائمة.

في الوقت ذاته يمضي المهجرون من عائلات أهل حيفا الفلسطينيين في رحلة الهوان والانكسار ويسيرون في الصحراء هربا بجلودهم من المجازر اليهودية التي تخطت حدود الوحشية إلى بقر بطون الحبالى والتسلي بمنظر الأجنة في الشهر السابع أو ما بعده، وقتل الشباب الفلسطيني بمعرفة الفتيات اليهود المسلحات واستخراج أكبادهم ومضغها في حقد..

يستنجد النازحون بالعرب فلا يجدون مغيثا، فالجماهير استعذبت النوم واستراحت للكسل وانخدعت بالكبرياء الزائف، فبينما كان اليهود يعملون ويتسلحون ويتدربون ويعبئون الشعور العالمي ويبنون المستوطنات والحصون؛ كان بعض العرب يبيعون لهم الضياع

والبساتين بالأثمان الباهظة ويكتفون بأحلام اليقظة والخطب النارية وكفى!

كان الوضع العربي سيئا بصفة عامة، مع أن الغضب الشعبي كان عارما، فلا تسليح جيدا ولا تدريب فائقا، وفي القاهرة يتبنى الباشوات ورجال المال سياسة الاستسلام ويرون من العبث الوقوف في وجه سياسة تقررها دول الغرب وتنفذها حيث يغدقون على اليهود المال والسلاح، أما الشعب المصري فكان يرى أن المعركة مع اليهود هي المعركة مع الإنجليز في القناة، ومن الضروري عدم التسليم بالمخطط الاستعماري، لأن المهادنة خيانة، والتسليم باقتطاع أرضنا المقدسة عار أمام الأجيال القادمة.

عاش المهجرون أحوالا متردية تبرزها الرواية من خلال السرد والحوار، لدرجة أنهم لا يرون قطعة الصابون إلا في الأحلام، والأحطاب التي تستعمل وقودا لم يعد لها وجود، ولكن أصوات الصمود والصبر كانت ترتفع، وتستشهد بآيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران، 200) . (انظر أرض الأنبياء، ص154)

تتشكل جماعات الفدائيين المتطوعين من النازحين، ويتشاركون جميعا رجالا ونساء، أطفالا وشيوخا، كل بقدر جهده، في مواجهة العصابات اليهودية المتوحشة، ويقومون بعمليات ناجحة، ويلاحظ أن هذه الجماعات الفدائية أغلبها عرب من بلاد مختلفة، وتجري بينهم منافسات للبذل والتضحية، ولكنهم يكتشفون خيانة بعض

المنضمين إليهم من أهل حيفا الذين يعملون لحساب اليهود ويلقى الخائن جزاءه في محاكمة عادلة، ويجري الجهاد تحت مظلة علاقات عاطفية وإنسانية، ترى في الجهاد وسيلة فعالة لصدّ اليهود القتلة.

تتدخل الجيوش العربية لنصرة أهل فلسطين، ولكن الأنباء تتواتر عن الفساد والفضائح المستترة لدي المسئولين الرسميين، وفضيحة السلاح الفاسد الذي يطلقه الجندي المصري على العدو فيرتد إلى صدره ويموت بيده لا بيد أعدائه، وللأسف فهذا السلاح الفاسد مدفوع ثمنه من عرق الشعب الفقير الكادح. ومع ذلك فقوات المتطوعين بإمكاناتهم المحدودة، وإيمانهم القوي غير المحدود؛ تتقدم نحو تل أبيب، وتشير أحداث الرواية إلى مفارقات عديدة منها أن الحياة في القاهرة أو عواصم العالم العربي تسير عكس ما يجري في الميدان، فهناك لهو وترف وحياة صاخبة لدى بعض الفئات بينما المدافعون عن فلسطين يعيشون حالة من البؤس والشدة بعضهم لا يجد الخبز إلا بالكاد. كما أن بعض الضباط من أبناء الأغنياء يهربون بالوساطة أو الرشوة من الذهاب إلى فلسطين حذر الموت، وتصفهم الرواية بأنهم ليسوا أهلا لهذا الشرف ولو ذهبوا لأفسدوا المعركة (انظر: أرض الأنبياء، ص 191)

ويرفض عقلاء المحنة التقسيم الطبقي والتمييز العنصري للمجتمع بين سادة وعبيد، وخاصة بين اللاجئين الذي برز نتيجة التشريد والهوان، ويرجعون ذلك لآثار النكبة ومضاعفات المحنة التي تتولد

يوما بعد يوم، فالحكمة الروسية تقول : "إن التعساء لا يتحمل بعضهم بعضا" (أرض الأنبياء، ص ، 244)

يفرح اليهود بانتصاراتهم الأولية، ويتصورون أنها تمنحهم الحق في فلسطين، ومع سيطرتهم على مناطق الساحل إلا بعض المناطق، فقد كان العرب يقاتلون بكل ما يستطيعون من جهد حتى رعاة الأغنام الماشية كانوا يدافعون عن أرضهم وديارهم وأهلهم، في الوقت الذي كان يلجأ فيهو اليهود إلى تصرفات وحشية خسيسة مثل تلويث المياه في الآبار بجراثيم فتاكة وتسميمها وقتل الأطفال والنساء، ويستولون على الأرض والغنائم مزوّدين بدعم الغرب الاستعماري ومساعداته العسكرية والمعنوية، بينما العرب لا يفكرون في قتل الإنسان الخاطئ بقدر ما يفكرون في القضاء على انحرافه ومظاهر طغيانه. ويضطرون إلى القتل عندما لا يكون هناك علاج سواه، ولا يفعلون ذلك إلا في الحدود المشروعة وبالطريقة التي لا تزيد عذاب الإنسان...(راجع: السابق، ص 197 – 200)

تبلغ الأحداث ذروتها عندما تصدر الأوامر للمتطوعين؛ وهم الطليعة التي كانت تخوض أصعب المعارك وتمهد للجيوش النظامية التقدم وراءها، بإخلاء المواقع العسكرية للجيش الأردني الذي يقوده الجنرال الإنجليزي جلوب! وهو ما يثير الغضب والامتعاض لأن الإنجليزي لن يكون مخلصا في الدفاع عن الأرض والعرض، ولكن قائد المتطوعين يعزي نفسه بضرورة فتح عين على الأعداء الصهاينة، وأخرى على الخطوط الخلفية التي تعمل فيها الجيوش

النظامية، ويتوعد الخونة في الأمام أو الخلف بعقاب أليم. وتنتقل قوات المتطوعين إلى طولكرم لتطوق قوات الأعداء ، ولكن الصهاينة يسعون إلى تعويق الزحف العربي للاحتفاظ بما تحت أيديهم من مواقع، وتطويل أمد المعركة لتدبير أنفسهم. وبدأ الالتحام عند مدخل طولكرم بعد وصول معلومات عن هجوم ليلي، وفرّ العدو بعد استخدام السلاح الأبيض وأسر عدد من جنوده من بينهم قائد الهجوم الذي أعلن الاستسلام "عند الهزيمة يجيدون تقبيل الأحذية ، وإذا ما انتصروا افترسوا الضعفاء في جبن وشراسة..". (السابق أيضا، ص258)

تصل أوامر القيادة العليا بوقف الهجوم على العدو بعد أن أصبح الطريق إلى تل أبيب مفتوحا، وحمل المندوب أخبارا سيئة فقد سلمت الجبهة الأردنية اللد والرملة للأعداء دون قتال وأعمل اليهود فيهما القتل بالجملة واعتدوا على الأعراض والأموال، بالإضافة إلى إعلان هدنة لإنقاذ اليهود والتقاطهم الأنفاس ليواصلوا جرائمهم، وليوسع الملك الخائن مملكته حيث أعلن إما الهدنة أو بث الخلافات الكبيرة بين العرب! وتم فرض السلام الحزين على أنقاض الحق الضائع.

ومع الغضب العارم بين المتطوعين، فإن قائدهم يملك الأمل في تحرير فلسطين مثلما حررها صلاح الدين من الصليبيّين في الماضي، ويعد ما جرى ناقوسا يوقظ النيام في الأرض العربية، ويطالب القائد جنوده بتجفيف دموعهم والثقة في العودة إلى الديار السليبة في يوم ما.

لقد صدرت الأوامر بعودة المتطوعين إلى بلادهم فورا، وقبضوا على قائدهم القصير ذي اللحية السوداء كي يُرحّل إلى أحد السجون المصرية لخطورته علي الأمن .. أي لبطولته الخارقة في ميدان الشرف والجهاد المقدس ونواياه السيئة تجاه أداة الحكم الفاسدة التي طعنت شرف النضال في أحرج ساعات المعركة.

بعد أعوام طويلة يكتب نجيب الكيلاني رواية أخرى عن تحرير فلسطين بعنوان: " عمر يظهر في القدس" كتبت عنها فصلا مطولا في السفر الثالث من كتابي " الرواية التاريخية في أدبنا الذي طبعت منه عدة طبعات. كان اليهود القتلة قد استولوا على بقية فلسطين والقدس وسيناء والجولان، ومنى العرب بهزيمة فادحة وفاضحة لم يسبق لها مثيل في التاريخ عام 1967م.

وفكرة الرواية تقوم على استدعاء عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في حلم أحد الفدائيين الفلسطينيين، وهو نائم في إحدى ضواحي القدس، ويصحب الفدائي عمر في شوارع المدينة الأسيرة، وعمر يشرح له عمليا كيفية تحرير القدس وفلسطين من خلال المنظور الإسلامي الذي يجعل الجهاد وسيلته الأولى الأساسية في عملية التحرير، بعيدا عن الدعاوى الزائفة لبعض الأحزاب المضللة التي تتحرك بمنطق مادي مغشوش لا يضع للإيمان دورا في حسبانه، ويكتفي بالنضال الإنشائي والمفاوضات التي لا تثمر. وهو ما ألحق الضرر بالقضية الفلسطينية على مدى عقود طويلة!

مواكب الأحرار

بضمير الغائب أيضا يروي السارد العليم وقائع الرواية من خلال فصول مرقمة عددها اثنان وعشرون فصلا، تستوعب أشخاصا وأحداثا وصراعات؛ وتبلور فترة حساسة مرّ بها الوطن وواجه فيها قوة لا قبل له بها، وهي الحملة على مصر بقيادة نابليون بونابرت، حيث قدّم المصريون التضحيات الغالية: الدم، والمال، حتى تم طرد الغزاة.

تبدأ الأحداث بوصول الجيش الفرنسي إلى الإسكندرية بأسطولهم البحري، واستيلائهم عليها وإعدام السيد محمد كريم حاكمها الوطني وقائد المقاومة، ثم انطلاق الجيش الفرنسي إلى القاهرة عبر النيل والبر، والاستيلاء على رشيد ودمنهور والرحمانية وشبراخيت حتى وصل إلى بولاق، فهزم المماليك والأتراك .

تهتم الرواية بتقديم مسرح الأحداث، والقوى التي تتحرك عليه من مماليك وأتراك، وفي الخلفية يظهر دور الإنجليز الذي يتصارعون مع الفرنسيين للسيطرة على الهند وما يتاخمها في آسيا، والاستيلاء على الطرق الرئيسية بما يضمن حركة التجارة أو النهب الذي تقوم به القوتان المتصارعتان..

أضف إلى ذلك الكشف عن وضع القوة الشعبية التي تدفع ثمن الصراعات وتتعرض للسلب والنهب والظلم من المماليك والأتراك والغزاة الفرنسيين جميعا، وتعيش في وضع بائس يحكمه الفقر والمعاناة وسوء الأحوال.

وتكشف الرواية من خلال حبكة مركبة (أكثر من قصة في الرواية) خيانة برطلمين أو برتلمي الذي سماه العامة فرط الرمان، ويشبه في خيانته(قطان) من شخصيات رواية (طلائع الفجر) التي ترصد مقاومة أهل رشيد لحملة الإنجليز بقيادة فريزر، ويبدو هنا الشخصية الأكثر حضورا بالنسبة للشخصيات الفرنسية، وله ابنة اسمها هيلدا، يتاجر بها مثلما فعل(قطان) الأرمني الذي استوطن بين المصريين في رشيد وتعامل معهم وشجعوا تجارته حتى اغتنى وصار واحدا منهم ولكنه خانهم وانحاز للإنجليز، وتجسس على أهل رشيد وتآمر، ولم يمانع في استخدام ابنته روز كي تأتي بأخبار المجاهدين ورجال المقاومة في رشيد. وبعد اكتشاف خيانته استحق جزاءه المخزي.

هيلدا ابنة فرط الرمان، تحب فارسا مملوكيا اسمه ابراهيم أغا، الذي يخبرها أنه لا يحب المماليك والأتراك. ويسعى فرط الرمان للحيلولة بينهما، بتشويه صورتها لديه، وخاصة أنه من دين غير دينها. ولكنها تتمسك به، حيث تراه إنسانا طيبا وتذكّر أباها بما كان يغدقه عليه من صفات حسنة وفخره بمنزلته لدى الحاكم مراد بك، ولكنه يصارحها بانحيازه للغزاة بقيادة نابليون، وأنه سيكسب من ورائهم كثيرا، ماديا ومعنويا. وأن علاقتها بإبراهيم ستعد خيانة كبرى لا يغتفرها الفرنسيون.

يذهب إبراهيم إلى إمبابة ليكون مع المماليك في الجبهة الأمامية في مواجهة الفرنسيين. ويكلف فرط الرمان ابنته هيلدا بمهمة قذرة ضد إبراهيم، حيث ينصب كمينا للمدافعين عن القاهرة.

وعلى المستوى الشعبي فإن الحاج مصطفى البشتيلي الذي يعيش محنة الاحتلال وضعف الجماهير وعدم مبالاة معظمهم؛ يصر على المقاومة ويرفض الهجرة إلى الريف أو يهرب في اتجاه بر الشام كما فعل بعض أصدقائه المقربين. وتؤلمه انهيارات مقاومة الأتراك والمماليك في الإسكندرية وضواحيها وفي إمبابة وغيرها.

يذكّر البشتيلي المترددين والهاربين من المواجهة بمعاني القرآن وكلمات الله التي تغيب عنهم في ذلك الحين وبالتالي لا يطبقونها في حياتهم، ويجابههم الشيخ العجوز بقوله تعالى:" يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ .." (الأنفال:15-16). هذا هو الحكم الشرعي في من يفر أو يهرب. ولكنهم يرددون قوله تعالى:

" أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟"(النساء:97). (وردت في النص إليها، وهو خطأ غير مقصود)

ولكن الشيخ يرد في غضب بأن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وتلاعب غريب بآيات الله! (مواكب الأحرار، ص 47)

حين تقع الهزيمة الساحقة في إمبابة ويفر مراد بك مع بقايا المماليك، ويتقدم نابليون إلى قلب القاهرة؛ يحاول الشعب أن يقاوم ولكن تكثر الخسائر والدمار.. والملك لله وحده!

وينتشي فرط الرمان بهزيمة المصريين، وينتقل من حال متواضعة إلى أخرى بجوار الغزاة وتضعه في مكانة الأمر والنهي، والرجاء والطمع، فقد صار وكيلا للمحافظة. ويبحث عن رءوس يقطعها، ويطلب من ابنته أن تشرب الخمر بعد أن أخبرها كذبا بوفاة المملوك إبراهيم أغا الذي كانت تحبه وتنتظره؛ فتشرب وتهذي وتقع في الخطيئة ويقدمها إلى الجنرال ديبوي.

وتنجح الرواية في تصوير العلاقة بين الأب الديوث والابنة التي ضيعها من خلال انحرافها وتعلقها بالجنرال والجندي الذي يحرسه مالوس، وتمزقها بين عاطفتها نحو إبراهيم أغا ومن ناحية والجنرال والجندي من ناحية أخرى.

ألف نابليون ما يسمى بالديوان من مشايخ وأعيان القاهرة، ويأبى الشيخ السادات أن ينضم إليه ؛ فيكون هدفا لبرتلمي الذي يسعى للقضاء عليه، ولكن نابليون يعارض قتله لأن في ذلك ضررا عليه، ويعيش المصريون هزيمة ثقيلة حزينة، بعد سحق المماليك والأتراك، وصمت الباب العالي، ولكن الشيخ إبراهيم سلامة يحاول أن يبث فيهم الأمل باستعادة ذكريات هزيمة المغول، واعتناق بعضهم للإسلام واندماجهم في مجتمعهم الكبير.

وتأتي الأخبار عن تعرض الأسطول الإنجليزي للأسطول الفرنسي عند الإسكندرية فيبتهج المصريون ويحزن الفرنسيون، ويواجه برتلمي مأساته الفردية بسبب علاقة ابنته الآثمة مع الجنرال ديبوي.

وتنبعث الثورة الشعبية مرة أخرى، وينتعش الحاج مصطفى البشتيلي، ويحاول أعضاء الديوان الذي كونه نابليون تهدئة الثائرين دون جدوى، ويسقط ديبوي قتيلا بطعنة أحد الثائرين، وينشد برتلمي الفرار، ويأمر نابليون بمهاجمة الجماهير التي قتلت الكولونيل سلكوسكي، ويضرب الأزهر بالمدافع، ويستولي على مدخله والمنازل الموصلة إليه، ويحرق المنازل التي تلقى منها الحجارة. ويخسر الثوار معركة أخرى. ويشمت فيهم برتلمي، وفي مئات الشهداء والجرحى الذين سقطوا والأبنية التي تهدمت. ويعجب لإصرار الثوار على مواصلة القتال والزحف مع كل الخسائر التي نزلت بهم، وعلمهم أن المعركة قد حسمت لصالح الغزاة! وفي الوقت نفسه فإن انهيار ابنته هيلدا، وتذكيرها الدائم له بأنه مع الفرنسيين يرتكبون جريمة خطيرة بشعة بسفك الدماء، يسبب له منغصا يفسد فرحته وشماتته بالمصريين.

تصور الرواية تصويرا مؤثرا تبدد وعود نابليون وأكاذيبه، واقتحام خيله للأزهر واتخاذ قبلته مربطا لها، ودهْم الطلبة وتجريدهم من المال والمتاع والطعام، ووطء الكتب والمصاحف بأحذيتهم.. (مواكب الأحرار، ص 138-139)

ويقبض على البشتيلي، ويتم تعذيبه وإهانته على يد برتلمي وهو مقيد في طابور طويل من الأسرى حيث يساق إلى القلعة. وتفيض الرواية في تصوير سجن القلعة وتعذيب الأسرى ومعاناتهم وموت بعضهم متأثرا بجروحه وقسوة الضرب.

يعود إبراهيم أغا كيانا مهدما بعد الفرار إلى الصعيد واكتشافه أن مراد بك رجل سيئ، وأن كثيرا من المماليك أخذوا يميلون لمهادنة الغزاة والتفاهم معهم، ويلتقي بهيلدا ويفكر في قتل برتلمي ولكن الأخير يعتقله ويلقيه في السجن. ولكن هيلدا تصر على إخراجه.

يتقاضي برتلمي رشوة من الحسين ابن الحاج مصطفى البشتيلي، فيفرج عنه ويخرج من السجن. ويرحل نابليون فجأة، ويهتز برتلمي لرحيل نابليون المفاجئ الذي سبقه تعرض الأسطول الإنجليزي للأسطول الفرنسي عند الإسكندرية. فقد كان فرط الرمان يعتمد على الفرنسيين اعتمادا كاملا ويثق في قوتهم وقدرتهم على البقاء في مصر

ثم إن كليبر يفكر في التفاوض مع الأتراك والمماليك من أجل الجلاء وإنقاذ جنوده، والرحيل إلى فرنسا أيضا، ولكن برتلمي يعارض معارضة شديدة، ويحاول أن يفسد خطة الجلاء. ولكن تم توقيع اتفاقية الجلاء، وهتف الحاج مصطفى البشتيلي: " لك الملك وحدك يا صاحب الحول والطول" (مواكب الأحرار، ص 233) ولكن الأتراك ينقضون المعاهدة وتشتعل الحرب من جديد، والإنجليز يقبضون على الضباط الفرنسيين المسافرين عبر البحر إلى فرنسا لأن الانجليز

رفضوا التوقيع على المعاهدة. وينجح كليبر في استعادة زمام المبادرة ويحاصر القاهرة بعد انسحاب الاتراك والمماليك من المعارك بناء على نداء وجهه وزير تركي أسير.

تجاهل

ولا أعلم لماذا تتجاهل الرواية خيانة المعلم يعقوب وتكوينه جيشا من النصارى والأروام وقيامه بفرض الضرائب الباهظة على المصريين. مع أن حضوره التاريخي في الأحداث كان واقعا معروفا ومشهودا. هل أحس حرجا إزاء تناوله بسبب ديانته؟ لقد تناول نماذج مماثلة أو مقاربة ليعقوب في الخيانة والهروب من المسلمين فما الذي يمنعه من تناول خيانة يعقوب وخروجه مع الحملة بعد انسحابها من مصر؟ للأسف ليس لدي إجابة!

إن يعقوب حنا النصراني، وملطي، وجرجس الجوهري، وأنطوان الملقب بأبي طاقية، ونصر الله النصراني ترجمان قائمقام بلياز، وميخائيل الصباغ ، وغيرهم من زعماء النصارى كانوا يعملون مع الغزاة الفرنسيين، وتقربوا إلى السفاح نابليون واستعان بهم ليكونوا عيونا وجواسيس لجيشه يدلونه على رجال المقاومة الذين يجاهدون الغزاة الفرنسيين، وسجله الجبرتي ونقولا الترك...

ايضا لم تتوقف الرواية أو تشير إلى مصرع كليبر على يد الطالب الأزهري السوري سليمان الحلبي الذي أعدمه الفرنسيون على الخازوق ثم أحرقوا جثته. وهو موقف مهم للغاية لأنه يعبر وحدة شعور المسلمين في كل مكان تجاه الظلم الاستعماري.

أيضا، لم تعن الرواية بتوضيح مواقف المشايخ الذين استعملهم نابليون في إنشاء ما سماه الديوان الذي كان يستشيره في القضايا المتعلقة بالمصريين، وكان أقرب إلى جعل الأمر عاديا، وإن كانت المسألة لها أبعاد أخرى تضع كثيرا منهم في دائرة الخيانة أو القبول برشاوى الغزاة ليضمنوا السيطرة على الوطن .

وتشير نهاية الرواية إلى هزيمة المقاومة الشعبية ومصرع الحاج مصطفى البشتيلي الذي قتله فرط الرمان، وأسرته التي انهدم بيتها على رءوسهم بفعل القصف الفرنسي الذي لم يتوقف على منطقة بولاق مركز الثورة الثانية .

طلائع الفجر

تتكون الرواية من خمسة وعشرين فصلا وخاتمة ، وتحكي بضمير الغائب أو الفعل الماضي ، مما يعني أن الراوي على علم بكل التفاصيل. وتبدأ بداية ذات دلالة تتسق مع العنوان "طلائع الفجر"، حيث تقول: "مضى الليل إلا أقله، والظلام الحالك يغطي مدينة الحماد، وما حولها" (طلائع الفجر، ص8)، في إشارة إلى قرب انجلاء الظلام وتجلى الفجر، وهو ما يتسق مع قرب هزيمة الحملة الإنجليزية التي يقودها الجنرال فريزر، وانسحابه مدحورا، بعد أن سجل المجاهدون في رشيد صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد ضد الغزاة الغاصبين.

تعرض الرواية مواقف القوى المختلفة على الأرض في مرحلة الحملة: محمد على وجنوده وصراعه مع المماليك وعدم دعمه الفعال للمقاومة في رشيد وغدره بالعلماء والقيادات الشعبية في القاهرة .

كما ترصد مواقف الإنجليز مع قواتهم الفائقة برا وبحرا ومدفعية، وتجنيدهم للجواسيس وفي مقدمتهم قطان الأرمني.

ويتعرض الإنجليز في بداية معاركهم بالحماد إلى الانكشاف فينسحبون، ويستدعي قائد الميدان ولينجتون جاسوسه قطان باشا الجاسوس لمناقشة الأمر.

والجاسوس قطان تاجر يستخدم الربا، ويضغط به على من يرى أنهم يشاركون في المقاومة الشعبية ليحصل على أخبار المقاتلين ومعلومات عن المقاومة؛ ليقدمها إلى الإنجليز. كما نرى فيما فعله مع أحمد طاهر بك عمدة رشيد الذي تعقد في بيته اجتماعات رجال المقاومة، حيث يطلب منه الدَّيْن الذي داينه به مع فائدة مركبة، وبهذا الدين الذي لا يستطيع المدين أن يسدده يفرض قطان ابنته زوجا لابنه إبراهيم على أن يتم الزواج في خلال ثلاثة أيام؛ درءا للفضيحة التي يمكن أن يتعرض لها طاهر بك عمدة رشيد حين تباع أرضه وبيته في المزاد، ويغرى به السفهاء (انظر تفاصيل التفاوض على هذه الصفقة في طلائع الفجر، ص 26-34)

وقطان يخون الوطن الذي آواه ونماه، وينحاز إلى الإنجليز من أجل وعد لم يتحقق، وهو تحرير بلاده أرمينيا، وإخراجها من الدولة العثمانية!

وتتعرض زيجة محسن بن أحمد طاهر بك من وداد إلى شيء من الاضطراب يوشك أن يلغيها بسبب موقف محسن وسلوكه. لكنه لا يبالي. ويقبض الإنجليز على وداد ومحسن. ويمثلان صيدا ثمينا للسير ولنجتون قائد العسكر الإنجليز. ويهين الكابتن بيرسي "محسن" في محبسه. ويأمر جنوده بتعذيبه ومعهم كلب مدرب، وتجري مفاوضات ومساومات بين أحمد طاهر والد محسن، وأحمد عاصم من ناحية، والإنجليز من ناحية أخرى لإطلاق سراح الأسيرين- وداد ومحسن، لم تسفر عن شيء.

ويلتقي السلانكلي مع طاهر بك في منزله، ويدافع عن نفسه أمام من اتهموه بالهروب من المعركة. ويبلغ "طاهر" أن حشود العدو تتهيأ لالتهام المدينة. ويتناولان كلاما عن خيانة المماليك واتفاقهم مع الإنجليز على أن تقع مصر بين شقي الرحى حين يهجم الإنجليز ويؤازرهم في الداخل ثوار المماليك. لكن العلماء بقيادة عمر مكرم يحملون على المماليك حملة شعواء وينكرون عليهم اتفاقاتهم الثنائية مع الغزاة الإنجليز.

كما تبدو صورة الأتراك غير جيدة بما يمارسونه ضد الشعب من قسوة وإضرار وإجحاف وإرهاق بالضرائب وتكليفهم فوق ما يطيقون. حتى كرههم الناس، وينتظرون الفرصة للخلاص منهم. والسلانكلي يحاول الدفاع عن بني جلدته من الأتراك.

وتعاني المقاومة الشعبية من بعض الجواسيس على مستوى القيادات في القاهرة مثل الألفي بك الذي حاول احتلال دمنهور

لحساب الإنجليز، وعلى مستوى سكان رشيد مثل قطان باشا الذي انحاز إلى الغزاة، ولذا كان هتاف الناس في مسجد زغلول قويا وعاصفا: يسقط الخونة. واستمر الأهالي في رشيد في جهادهم واستخدام كل طاقتهم لمواجهة الغزاة .

أما القوى الشعبية في دمنهور وما حولها من العامة، فقد أبلوا بلاء حسنا في دعم معارك المقاومة ضد الإنجليز، حتى انهزم الغزاة وانسحبوا مدحورين.

النداء الخالد

تنقسم الرواية إلى قسمين ، كل قسم يضم مجموعة من الفصول. القسم الأول "في جحيم الحرب" (يقصد الحرب العالمية الأولى) وفيه أربعة عشر فصلا وهو أكبر من القسم الثاني الذي عنوانه "طوفان الثورة"- أي ثورة 1919.

في القسم الأول يصور مصر في مرحلة ما قبل الثورة، واحتلال الإنجليز لها وسيطرتهم على مقدراتها، ومشاركتهم في الحرب العالمية مع فرنسا ضد ألمانيا وحلفائها.

وفي القسم الثاني يقدم مصر الثائرة ضد الاحتلال والسيطرة الأجنبية على مقدراتها السياسية العسكرية والاقتصادية، ويصور تململ المصريين ثم مشاركتهم في الثورة وتضحياتهم من أجل الوطن.

تبدأ الرواية بوشاية خلاف عبد المتجلي عمدة قرية شرشابة ضد أحد الفلاحين المنافسين له ويعد الرجل الأول في القرية دون منازع (عبد العزيز شلبي) انتقاما منه كي تقبض السلطة عليه وتبعث به إلى

ميدان القتال مع الإنجليز؛ فيعبّد الطرق ويشق الترع في أعمال السخرة، وهذا الفلاح المنافس، مريض وكبير السن، هو والد أحمد الطالب بالمهندسخانة، ويأتي مأمور المركز ومندوب السلطة لتجنيد شباب القرية في أعمال السخرة لحساب الإنجليز بمساعدة العمدة. والاستيلاء على مزيد من الحمير والأغنام والمواشي وألا يترك منها إلا الهزيل أو المريض، وأيضا الاستيلاء على كميات معينة من القمح والشعير والذرة، وتقليل المساحة المنزرعة قطنا وزيادة المنزرع من الحبوب الذي تتطلبه المعركة، وأصبح في كل بيت مأتم بعد حشر عشرات الرجال في الدوّار، وهرب عديد من الشبان إلى الحقول والقرى المجاورة بسبب مطاردة أدوات السلطة لهم؛ وعلى رأسها العمدة والخفراء في كل مكان.

يتحول العمدة عن مواقفه بعد لقاء عاصف ومثير مع الشيخ عنبة، وينحاز إلى الشعب. ويتم الإفراج عن منافسه عبد العزيز شلبي نظير فدية دفعتها زوجته إلى السلطة، وتقع عيناه بعد الإفراج عنه على أفواج من شباب أهل القرية والمركز الذي تم القبض عليهم وحشدهم لخدمة المجهود الحربي الإنجليزي؛ فتتفجر دموعه حزنا عليهم وعلى منظرهم الذي يدمي القلوب، وهم يوصونه بأهليهم وذويهم. ويزوره العمدة في بيته، ويعترف بأخطائه وخطاياه ويندم على ما فعل ويتصالح معه ومع الأهالي. وفي أثناء الزيارة يتحدث العمدة عن الظلم الذي هو مرض، شفاه الله منه على يد طبيب ماهر هو

الشيخ عنبة، وقال لمن حضروا لتهنئة شلبي بعودته من المركز "أنا منكم وأنتم مني" (طلائع الفجر، ص 53)

بيد أن موسم جني القطن الذي حل بعد الأحداث المؤلمة لم يشهد نوعا من الفرح أو البهجة كالعادة، فقد قل المحصول لأن الغزاة المحتلين قلصوا مساحة الأرض المزروعة لصالح الحبوب التي يستولون عليها للمجهود الحربي، وتدنت أسعار القطن، ولم يتزوج الشبان، ولم يشتر الفلاحون الكسوة السنوية، وارتفعت أسعار السلع...، وهنا نشط الخواجة "ينّي" اليهودي المرابي للإقراض بالربا الفاحش والاستيلاء على الأراضي من المقترضين الذين يعجزون عادة عن السداد، وقامت خمّارته التي تقع وسط البلد بدورها في النصب والاحتيال والضحك على المزيد من الضحايا الذين يسكرون ويقترضون! ومنهم أبو المعاطي الشافعي الذي كان صديقا له فتنكر لصداقته وأفهمه أن المعاملات لا صداقة فيها، وهو ما دفع أبو المعاطي ليقول له: "لقد أتيت قريتنا شحاذا بلا بيت".. (انظر النداء الخالد، ص 60)، ولكن ينّي لا يؤمن إلا بالكمبيالة والفلوس؛ ولا شأن له بالجيرة أو الصداقة أو العيش والملح، ولم تُجْد معه التوسلات.

خيط جديد

يبدأ خيط روائي جديد يثير تعقيد المواقف في الرواية، بسبب العداء التقليدي بين عائلة العمدة وعائلة شلبي، ورفض التقاليد في القرية أن تقوم علاقة عاطفية بين فتى وفتاة. ويتمثل هذا الخيط في ميل

المهندس أحمد شلبي إلى صابرين ابنة العمدة خلاف عبد المتجلي ورغبته في الزواج منها، ويسهم تبادل الزيارات بين الأسرتين في التقارب بين الفتى والفتاة، كما يكون للرسائل أثرها في التعبير عن مشاعر كل منهما.

ومن ناحية أخرى، يحاول أبو المعاطي الشافعي قتل الخواجة ينّي وتسفر المحاولة عن الفشل وإصابته إصابة بسيطة في كتفة، ويدخل السجن، وفي حيلة ماكرة يعلن ينّي أنه تنازل عن حقه. ولكن الحكومة لا تتنازل عن حقها وإن اصطلح الطرفان.

ويفكر ينّي في رجل يحميه من الانتقام ويواجه به ضحاياه من أمثال أبي المعاطي الشافعي بعد أن استولى على فدادينه العشرة، فيقع على القاتل خفاجة المعروف بعدوانيته وبلطجته والقضاء على من يقف في طريقه، ويوكل إليه زراعة الأرض التي استولى عليها من الشافعي، ويطلب إليه أن يضمن جمْع إيجار الأرض دون أن ينقص مليما، ويقنعه ليقتل الشيخ عنبة، ولكنه لا يقتنع، ويتفقان على ألا يتعرض أحد لينّي بسوء.

استولى يني على محصول القطن من مستأجري أرضه جميعا ليضمن سداد مستحقاته ولكنه ثمنه لم يف بكل مستحقاته، فجمع الفلاحين في حضور خفاجة ليسددوا الباقي، ويتدخل عنبة لإقناع يني بترك الفلاحين وعدم مطالبتهم بشيء نظرا للظروف التي يمرون بها. وينضم العمدة للشيخ عنبة في مطلبه ولكن الخواجة يني يصر على موقفه واللجوء إلى القانون، فيقول عنبة للفلاحين: خير

لكم أن تدخلوا السجن بدلا من الانصياع للظلم.(انظر: النداء الخالد، ص 108) ويقرر خفاجة قتل العمدة بوصفه أكبر رأس، ومقتله سيحطم وحدة الفلاحين، ويبث الذعر في قلوبهم، ويوافقه الخواجة على قراره. ويفشل عنبة في كسب خفاجة وإعادته إلى صف أهل القرية.

وتفاجأ القرية بمقْتل عبد الغفار الطبال خنقا في كوخه الحقير. ويثير مقتله هلعا في نفس الخواجة، لأن هناك قاتلا آخر يمكن أن يهدّد حياته غير خفاجة في القرية. ولكن خفاجة يعترف للخواجة أنه القاتل، فيهدأ ويستريح. ويفكر الخواجة في التخلص منه بأي ثمن عن طريق الاعتقال.

ويمرض العمدة ولا يستطيع أن ينهض لاستقبال زائريه: الشيخ عنبة وعبد العزيز شلبي، ويوقن أنه مرض الموت. ولكن الزائريْن يبثّان فيه أمل الحياة. ويشيران عليه زيارة الأطباء في القاهرة برفقتهما وابنته صابرين. وينزل العمدة وصاحباه لدى أحمد شلبي. ويتحسن العمدة صحيا ويعود إلى القرية ويقوم خفاجة بمحاولة اغتياله، ولكنه يفشل بعد أن تعطلت غدارته فيقتله شيخ الخفراء وتشمت فيه القرية شماتة كبيرة ويقسم ضحاياه على توزيع الشربات، وأن يتصدقوا على الفقراء. وتذكر أحدهم عبد الغفار المسكين ، فهتف :

- خروف تايه يا أولاد الحلال.

وحلاوته ريال.(انظر السابق، ص137)

تنهار أحلام يني في الأمن والحماية بمقتل خفاجة، فيقرر الهرب وإغلاق الخمارة، وفي الوقت نفسه يموت السلطان حسين ويتولى السلطان أحمد فؤاد(الملك فيما بعد) حكم مصر برغبة الإنجليز.

وتنتهي الحرب العالمية الأولى عام 1918بانتصار الإنجليز وحلفائهم، ويعلن ويلسون رئيس أميركا حق الشعوب في تقرير المصير، وينهي أبو المعاطي الشافعي فترة عقوبته، ويجري التوقيع في أنحاء مصر على توكيل للوفد المصري المسافر إلى أوربة لشرح القضية المصرية، ويتم القبض على العمدة والشيخ عنبة وأبو المعاطي الشافعي بسبب نشاطهم في جمع توكيلات الوفد المصري، ويردد عنبة قول حبيبه: "من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك". نحن لا نرهب السلاطين ولا المندوب السامي.. إن عدونا الحقيقي هو الخوف، وقد تغلبنا عليه. " قيد الأغلال، أهون من قيد العقول والأوهام" (انظر الرواية، ص150) لسوف يكتسح طوفان الثورة أحزان الماضي وذله وعاره.. وسنولد من جديد. وبعد أسابيع يتم الإفراج عن الثلاثة، ويصدر إنذار من القائد العام تحذيرا للثوار تليه إنذارات، ولكن إنذاراته تذهب أدراج الرياح، فقد انطلق الطوفان.

جمهورية زفتى

ويدعو الشيخ عنبة المتولي شباب القرية ورجالها للزحف نحو مدينة زفتى للمشاركة في الثورة، ويتدفق الثوار إلى هناك في الوقت الذي تهدر فيه مظاهرات القاهرة التي يطلق فيها الإنجليز الرصاص فيقتلون ويصيبون ويفلت أحمد شلبي من يد الشرطة.

وترتفع أصوات من أجل الثورة الاقتصادية وإعادة توزيع الثروة بالعدل وفرض الرقابة على التجار، ويثور جدل حول إمكانية الجمع بين الثورة على الإنجليز والثورة الاقتصادية، وتواجه صابرين أباها برفض الزواج من ابن خالها، ويقع أبوها في حيرة بين مصلحة ابنته والكلمة التي أعطاها لزوج أخته بتزويج صابرين من ابنه. ويتدخل الشيخ عنبة ويتناثر الخبر في القرية، ويصاب أحمد في مظاهرة بطنطا، ويموت الطالب الأزهري أبو الدهب برصاص الإنجليز. وتشيعه القرية في مشهد حزين، وفي خلال هذا الجو القاتم يصر خطيب صابرين على إتمام الزواج ولكن العمدة يرفض الزيجة، ويحمد الله أن فعل ذلك.

تعلن مدينة زفتى الصغيرة نفسها جمهورية مستقلة بقيادة شاب متحمس اسمه يوسف الجندي. ويؤيد مأمور المركز إسماعيل بك حمد ما قامت به الجماهير الثائرة في المدينة التي تخضع له شرطيا، وينضم أحمد شلبي للثوار في زفتى.

يزحف الجنود الاستراليون صوب زفتى! وتسقط المدينة تحت أقدام الغزاة، ولم تُجْدِ مقاومة الأهالي البدائية.. ومع ذلك تم الإفراج عن قادة ثورة 1919 وإعلان بعض الوعود البراقة المعسولة. وتشبّ الثورة من جديد.

***

لقد آثرت أن أعرض لمعظم أبنية روايات الواقعية التاريخية وتصميماتها التي تكشف عن قدرة نجيب الكيلاني الفائقة على جذب القارئ إلى متابعة الحوادث والشخصيات في تفاعل خلاق؛ لخدمة الفكرة التي يعرضها في سياقها التاريخي الواقعي.

وفي كل الأحوال: فقد كان الكيلاني وفيّا للتاريخ في أحداثه الأساسية، وفي الوقت نفسه استخدم خياله الفني ليبث في هذه الأحداث حيوية ومتعة ملحوظتين، وكان التصور الإسلامي من وراء ذلك وعاء يحمل وجهات النظر والرؤى التي تتحرك من خلالها تفاعلات التاريخ الواقع.

***

الفصل الثالث
البيئة الروائية

أبسط تعريف للبيئة الروائية ينصرف إلى المكان والزمان حيث تجري الأحداث وتتحرك الشخصيات، وتتفاعل العناصر السردية بما يقدم عملا فنيا محكما جميلا يمتع القارئ ويفيده.

فالمكان يشير إلى مواضع تجري فيها وقائع الرواية وترتبط في ذهن القارئ بما ينمي الصورة الروائية، إن صح التعبير، ويجعلها راسخة ومؤثرة ومتفاعلة، والزمان الروائي أو التاريخي يمنح الأحداث والشخصيات بعدا خاصا ولونا مميزا يرتبط بالبناء الروائي في الصورة العامة للفكرة الفنية.

والكاتب الواقعي يختار مكانه وزمانه من لحظات يعرفها أو مرّ بها، لتحقق في بنائه الروائي سردا له موضوعيته وواقعيته..

أما في القصص التاريخية؛ فإن الكاتب يبحث عن بيئته القصصية في كتب التاريخ، حيث يعثر على أوصاف البيئة الطبيعية والاجتماعية، وحيث يلتقط أوصاف الملابس وأخلاق الناس وعاداتهم في تلك الفترة، وهو بطبيعة الحال لا يتقيد بها تقيدا تاما، إنما يستعين بها على تصور البيئة الروائية، ويترك لخياله اللمسات الفنية الأخيرة التي تصهر هذه المادة وتمزجها مزجا تاما، وتحيلها إلى مهاد ملائم تتحرك عليه الحوادث، وتسعى فيه الشخصيات. (انظر: محمد يوسف نجم، فن القصة، ص109)

المكان

والمكان يسميه عبد الملك مرتاض(الحيز).

ومن مظاهر المكان: المظهر الجغرافي: الجبال السهول الهضاب الوديان القلاع...

والمظهر الخلفي: تدل عليه الكلمات بطريقة غير مباشرة: خرج، دخل، أبحر، ركب الطائرة،... (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 143-144).

والروائي المحترف، المتأنق المتألق، جميعا: هو الذي يستطيع أن يتعامل مع حيزه(مكانه) تعاملا بارعا، فيتخذ منه إطارا ماديا يستحضر من خلاله كل العناصر السردية الأخرى مثل الشخصية والحدث، والزمان.. إنه خشبة مسرح واسعة تعرض الشخصيات من خلالها أهواءها وهواجسها ونوازعها وعواطفها وآمالها وآلامها.. لا تستطيع الشخصيات في تعاملها مع الأحداث فعلا أو تفاعلا أن تفلت من قبضة هذا الحيز، كما أن هذا الحيز يمثل في مألوف العادة، طائعا لها يمتد إذا مددته، ويتسع إذا وسعته، ويتجه أنى وجهته. (السابق، ص 157 وما بعدها).

***

مكة وخيبر

وتتفاوت الحفاوة بالمكان في روايات الواقعية التاريخية لدى نجيب الكيلاني، فهي تبدو حفاوة تلقائية غير محدودة في روايته "نور الله" بجزئيها، مع أنها تمتد على حيز كبير يبدأ من مكة إلى المدينة، ويتسع ليشمل مواقع اليهود، من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة إلى

خيبر، ولكن الكاتب لا يولي هذه الأماكن الحفاوة التفصيلية أو الفضفاضة، ولكنه في معظم الأحوال يقدم لنا مكانا ذا ملامح عامة أو مختصرة يخدم حركة الأحداث ومواقف الشخصيات إلى حدما.

فهو في إشارته إلى مكة لا يصفها، ولا يتكلم عن جغرافيتها، ولكنه يقدم مشاعر الشخصيات تجاهها فهي مهوى أفئدة المهاجرين، وهي الرباط الذي لا ينفصم، ولكنه لم يعد صالحا في ظل الاضطهاد والإذلال والقهر، فيضطر ساكنوه من المسلمين إلى الهجرة بعيدا عنه ومغادرته مع أنه أحب البلاد إليهم وأجملها في نفوسهم.

الوطن يمثل قيمة كبرى بالنسبة للمسلم، وهو كما يشير الحوار بين زوجين مهاجرين؛ ليس رمالا وجبالا وبيوتا. إنه أكبر من ذلك إنه معنى كبير وقيم أصيلة تسود أمة من البشر وبناء من القلوب والأفكار المؤمنة الخالدة، والعلاقات العلوية الطاهرة، والوجود الروحي الذي تخفق فوقه راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ..(انظر: نور الله ج1، ص 12).

حين تزمجر أم عبد الله بسبب الهجرة وترك الوطن، يرد عليها زوجها:

" يريدونك أن تبقي، وأن ترتدّي عن دينك، أو تظلّي رهينة في أيديهم يتسلون بتعذيبك والنيل منك، إنهم يودون أن يقيموا سياجا صلبا حولنا حتى لا تنتشر دعوتنا فيعرف الناس الحقيقة.. والحبشة يا زوجتي ليست غريبة عنا.. إنها متجر قريش.. وصلاتنا بها وطيدة.. آه يا زوجتي.. لن أنسى أطفال مكة وصبيانها وهم يعبثون ببلال،

وينالون من شرف سُميّة ... ما أتعس أن يتحول الحاكمون إلى حملة للسياط..." (نور الله ج1، ص 13-14)

الهجرة في أرض الله تغيير المكان للابتعاد عن الأذى والقهر، والبحث عن بيئة أفضل للدعوة " نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجا" (نور الله ج1، ص 16)

وفي الهجرة تصبح السفينة والبحر معا مكانا انتقاليا من علامات الطمأنينة بوصفهما الطريق إلى مكان آمن، لا قهر فيه ولا أذي!

على كل حال؛ تبدو مكة من خلال المشاعر والأحاسيس والأحداث مكانا مزعجا ومصدرا للقلق والإزعاج، وخاصة مع النفوس المتطلعة إلى اليقين والباحثة عن الحقيقة، وها هو عمر يصف ما يجري فيها بعد أن أضناه الشك والبحث " لقد كثر اللغط في مكة، وامتلأت نواحيها بالنقاش الحاد، وماجت شوارعها بالأصوات الصادقة والكاذبة وثار الغبار في جنباتها، وأنا أمضي متخبطا بين الشك واليقين.... وبيوت مكة ترقد في جمود مميت يبعث على الغيظ والملل، ونخيلها يتمايل في برود وكسل، وكأنه يسخر من عواصف العقول والقلوب التي تحترق... "(نور الله ج1، ص19).

يبدو الأمر مختلفا بعض الشيء بالنسبة إلى خيبر قلعة اليهود المحصنة، فالكيلاني يتوسع في وصفها، ويربط صورتها العامة بسلوك اليهود وتصرفاتهم، فخيبر بمزارعها وحصونها وثرواتها، تشجع اليهود على الاستعلاء والزعامة والسعي لقتال المسلمين والقضاء عليهم.

والرواية تحرك "خيبر" وفقا لحركة الجو والطبيعة والأحداث. فهي مثلا في صبيحة يوم تحرك المسلمين نحوها للقصاص من المتآمرين والقضاء على مخططاتهم تبدو في وضع مختلف عن حالها في الليل:

"الشمس لم تشرق بعد، لكن مقدمات الضوء بددت الكثير من العتمة، وأبانت عن معالم الأشياء.. لكن عددا كبيرا من المزارعين ومعهم إبلهم وأغنامهم قد عادوا مذعورين صوب خيبر.

ووسط الضجيج الصاخب .. كانت هناك كلمتان تترددان "محمد" "المسلمون" وساد الرعب كل مكان.. وصعد الرجال والنساء فوق الحصون والأماكن العالية وأخذوا ينظرون صوب الجنوب عبر النخيل والزروع ولم يعد هناك مجال للشك أو التخمين".

إن محمدا ورجاله يعسكرون حول خيبر ويسدون منافذها.. وخرجت زينب بنت الحارث مربدة الوجه....."(على أبواب خيبر، ص89)

ويعبر المكان في رواية "الرايات السوداء" عن تطور الحياة الاجتماعية في أواخر العهد الأموي وأوائل العصر العباسي، فكثير من الناس أصابه الغنى والثراء فسكن القصور الفخمة، واقتنى الجواري الجميلات وغير الجميلات والعبيد، واستقدم الشعراء والسمار، وإلى جانب القصور كانت هناك المتاجر الكبيرة، والبضائع الفاخرة التي تأتي من بلاد فارس والهند والصين وغيرها، وصار الذهب يجري في الأيدي والجيوب.. وعاش الناس حياة الرغد والرخاء..

في المقابل نجد أماكن متواضعة يعتزل فيها الزهاد والمتصوفة احتجاجا على الترف والظلم السياسي والاجتماعي، والصراع والخلافات بين المسلمين التي تنوعت وامتدت لتطال أصول الدين، والحق في الحرية.

كل ذلك إلى الجانب السجون التي امتلأت بالمظلومين والمخالفين، وهي سراديب مظلمة كئيبة، تنعدم فيها الرحمة والكرامة، ويشيع فيها التعذيب الوحشي الذي لا يستثني شيخا ولا ضعيفا، ولا عالما ولا جاهلا، ويُمنع فيه الطعام والماء عن السجناء والموقوفين، ولا يعرف الناس مصائرهم أو نهاياتهم. ليس أمامهم غير الظمأ والجوع والموت بلا ثمن من أجل الصراع على الحكم والخلافة!

أما المدن والقرى مثل الكوفة ومرو والحيرة، فهي مدن مرفهة تمتد فيها البساتين والنخيل والزروع الخضراء، نتيجة للثراء الذي يعيشه الأمراء والكبراء، وتغص بالقصور والبيوت الكبيرة إلى جانب الأكواخ البسيطة والمنازل المتواضعة.

حارة اليهود

ويختلف أمر المكان في رواية "حارة اليهود". حيث يقدم السارد التفاصيل الدقيقة لشكل المكان ومكوناته الجزئية التي تتوازى مع الطبيعة اليهودية الملتوية الغامضة أحيانا، والبيوت اليهودية التي تبدو منفصلة ومنعزلة عن السياق الاجتماعي العام في المدينة كأنها تحقق ما يشبه الاكتفاء الذاتي الذي يجعلها في غير حاجة إلى المجتمع الدمشقي، فالحارة تضم اليهود من سكان دمشق رجالا

ونساء وأطفالا. بيوتها متلاصقة مزدوجة أبوابها صغيرة قليلة الارتفاع يكاد داخلها أن ينحني. لا تتسع لأكثر من واحد. كأنها أبواب الدهاليز الغامضة. الباب يقود إلى ممر ملتو كالأفعى يفضي إلى باحة واسعة تتناثر فيها الأغنام والطيور والأرانب وبعض الحشائش والأشجار المثمرة مثل التين والعنب .

وحارة اليهود تتلوى كثعبان كبير.. في جوفه الجواهر.. والقطع الذهبية.. وزجاجات الخمر.. وغانيات يلعبن بالنار.. ويرقصن رقصات غجرية.. وحاخامات يتحدثون عن الفطير المقدس.. ودم المسيحيين.. وعيد الفصح الذي اقترب... (حارة اليهود، ص 27)

في الحارة بعض حوانيت الخبز والمأكولات والذهب والأقمشة والمنسوجات ومخزنا لبيع الأخشاب، وفي نهاية الحارة كنيس الإفرنج الذي يتردد عليه اليهود للعبادة، وبجوار الكنيس محل حلاقة سليمان وزبائنه من اليهود وغيرهم . (انظر السابق، ص 7 وما بعدها)

بيت آل هراري يدل على الثراء الفاحش ويوحي بالعظمة والغنى والنفوذ، ولذا جعلوا الحارة تدين لكل حاكم يأتي، وتبذل له الذهب والنساء، ويتطوع أهلها بإفشاء أسرار المناضلين، ويشون بأعدائهم في الدين ومنافسيهم في التجارة أو مناوئيهم في الحرب الخفية: الدس .. السموم.. الوقيعة؛ أسلحتهم التي لم تتغير ولم تتبدل على مدار السنين..

بيت هراري به غرفة قذرة في آخر الدهليز تمارس فيها كاميليا الخطيئة مع خادمها مراد الفتال، وكأن قذارة الغرفة تشير إلى قذارة السلوك الذي تمارسه ربة البيت مع هذا الخادم.

أما دمشق المكان الكبير فتتأثر صورتها بما يجري في الحارة من أحداث، حزنا وفرحا، غضبا وسكينة، صخبا وهدوءا، وها هي عند ذبح الأب توما مثلا ، تبدو كالأرملة التعسة، تحاصرها العيون وتلاحقها الشائعات بعد أن مات عنها زوجها، ودمشق تجلس كابية حزينة تجتر الآلام، ويمضها الملل، ويؤرقها الضياع والفراغ.. ولذلك كان اختفاء البادري توما وخادمه إبراهيم عمار فرصة تشغل الأذهان، ووسيلة لقتل الوقت والتغلب على الفراغ المميت.

المكان في حارة اليهود يبدو الاهتمام به كبيرا، ويخدم عناصر السرد خدمة مفصلية، لأنه جزء كاشف عن طبيعة الشخصيات والأحداث وفكرة الرواية أو موضوعها.

أرض الأنبياء

ويبدو المكان في رواية أرض الأنبياء مشابها في الاهتمام وبتفصيلاته للمكان في حارة اليهود. فالأحداث تدور في حيفا وطولكرم والقدس، وموقع القتال الذي خاضته كتيبة المتطوعين (عمر بن الخطاب)، حيث أبلى المتطوعون بلاء حسنا، وأنزلوا باليهود الغزاة خسائر فادحة واستطاعوا تطهير المنطقة منهم والتقدم إلى مشارف تل أبيب؛ حتى جاءتهم الصاعقة بوقف القتال وقبول الهدنة وترحيلهم

إلى بلادهم التي جاءوا منها، بل ترحيل بعضهم إلى السجون لأنهم يشكلون خطرا على حكوماتهم، ما أشبه الليلة بالبارحة..!

وتبدأ الرواية بوصف مدينة حيفا مرتكز الأحداث القصصية ومكانها، فيراها تحت جنح الظلام كابية حزينة، وارتجافات النجوم في سمائها الصافية توحي بالقلق، ودمدمات غامضة تنبعث من البحر الواسع الكبير، لكأن المدينة كائن حي، ولكأن مظهرها يشبه مسافرا غدا وعلى ملامحه ترتسم سمات الأسى والحزن والغربة المرتقبة.

والأشجار الخضراء في شوارع حيفا تتمايل في بطء وكأنها ضرير يرتل القرآن في كسل ووهن، والبيوت تتراص جامدة ساكنة ويتسلل عبر نوافذها أضواء هزيلة، ورجال الدرك قد أضناهم السهر، فداعب النعاس أجفانهم، فوقفوا مترنحين بين اليقظة والمنام، يحلمون بالفراش الوثير ومتعة الراحة.

أكانت المدينة الخالدة تشعر أنها على أبواب تغيّر ضخم؟ وتحت ستار الظلام كانت تجري أحداث هائلة!(انظر: أرض الأنبياء، ص 11)

والمكان هنا يبدو متناغما مع الأحداث القائمة أو ما ينتظر وقوعه في المستقبل، فهو مكان حزين مليء بالقلق والغضب وكأن المدينة مسافر يستعد للرحيل وكل معالمها توحي بذلك.

يستعين الكاتب في وصفه بالصور الجزئية من تشبيه واستعارة وكناية تجسد حالة التغيير الضخم الذي تنتظره، ارتجافات النجوم- تشبه مسافرا غدا- ضرير يرتل القرآن في كسل ووهن- داعب النعاس أجفانهم ...

بعد احتلال حيفا تقدمها الرواية، وقد تغيرت كليا ولبست ثوبا آخر. المباني البيضاء الناصعة التي تشرف على البحر الكبير لم تزل كما هي، والمساجد والقباب قابعة كالعهد بها، لكن دون مؤذن يؤذن للصلاة، وأجراس الكنائس الكبيرة قد أخرست، وأشجار الزيتون تتمايل في حزن وأسى وكسل، ومع هذا الشكل الظاهري الذي يبدو ثابتا لم يتغير، فالمدينة قد أصبح لها مذاق جديد لكنه مرير تحسه القلة التي لم تغادر المدينة ... (أرض الأنبياء، ص 41)

في المقابل نجد بعض القري البعيدة نسبيا عن حيفا تستقبل المهجّرين، وتقوم بمساعدتهم وتقديم ما يقدرون عليه من طعام وضيافة وإيواء قدر طاقتهم، ونلاحظ أن الرواية لا تسمي هذه القرى، وكأن من الطبيعي أن تقوم القرى التي لم تزحف إليها قوات الغزاة اليهود بمشاركة إخوانهم الفارين من الجحيم اليهودي استجابة لداعي الأخوة والمروءة.

هناك مكان آخر هو معسكر القوات البريطانية في حركة دائبة ذخائر وعربات كبيرة وقطع أسطول وسفن أخرى وضباط قيادة والقائد الأعلى، وإعلان عن تنفيذ الخطة بانتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين وتسليمها لأهلها العرب واليهود كما يدعي! ولذا سلم اليهودَ المواقعَ والسلاح قبيل الانسحاب السريع مباشرة! (انظر السابق، ص12-13)

"بيارة شعيب بك" مكان اختفاء الفارين من جحيم القتل، في طريقهم إلى مدن اللجوء وقراه.

وتبقى القدس العتيقة حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة مدينة عريقة ذات التاريخ والأمجاد ويقدمها الكاتب من خلال رسالة إلى خميس تصف ما يجري فيها لتكتمل صورة الصراع على أرضها. تبدو المدينة في نظر المقيمين فيها (ضحى مثلا) كالمريض المتهالك. مدينة تعيش بلا رونق، يزحم شوارعها لاجئون ممزقو الثياب، كسيرو النظرات، كلهم يحسون بالغربة والهوان، لا يوجد فيها إنسان واحد يبتسم مع أن بعض القوات الأردنية وصلت إليها، وهناك بعض المتطوعين والجنود الذين يحرسونها، في خارجها أقيم معسكر للاجئين يحتشد فيه الآلاف. والمدينة لها تأثير في وجدان ملايين المسلمين شرقا وغربا، وما يجري فيها له ارتباط بالمعركة حول فلسطين ونكبتها واحتلالها وتهويدها، والرواية تقدمها من خلال ضحى التي لجأت إليها مع والدها العجوز وأخيها الصغير، ويعيشون في خيمة تشبه الزنزانة، ولكن اللاجئين في القدس يحاولون المساعدة في المعركة بما يستطيعون ويقيمون مركزا طبيا للإسعافات وقد عولج فيه والد نجلاء والتأمت جراحه. القدس محور الصراع وستبقى كذلك إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

ويلحق بالقدس منطقة طولكرم التي انتقلت إليها قوات المتطوعين لتكون منطلقا إلى الأهداف التي يخططون لها، وهي منطقة رائعة أعنابها من الجنة، ورائحة بساتينها تنعش القلوب.. وينابيعها العذبة تحيي الأرواح.. والعذارى هناك يغنين أغنيات شعبية، كأنها ألحان سماوية.. (نفسه، ص 250)

اما القاهرة فهي مصدر الخطر على العصابات اليهودية في فلسطين، ومنها خرج أكثر المتطوعين وأقدرهم للمواجهة مع الغزاة، وتحرك جيشها نحو الأرض المقدسة، وإن لم تكن استعداداته على ما يرام، وزوّده الخونة بالسلاح الفاسد لتكتمل المأساة.

***

بولاق- رشيد- زفتى

في رواية "مواكب الأحرار" التي تعالج الصراع بين المقاومة الشعبية والحملة العسكرية الفرنسية بقيادة نابليون، يبدو المكان مطابقا لأحداث التاريخ حيث نرى بولاق الميناء الرئيسي للقاهرة على النيل، ترسو فيه السفن حاملة شتى أنواع البضائع من أنحاء الأرض. واستخدمته المقاومة والحملة بصورة ما.

وهناك منزل الحاج مصطفى البشتيلي الذي لا يبعد كثيرا عن ترسانة بولاق الشهيرة، وهو ليس قصرا ولا بيتا متواضعا مثل بيوت العامة الفقراء، ولكنه يشير إلى الطبقة المستورة الفاعلة في المجتمع، والبيت ملتقي رموز هذه الطبقة الذين يعنيهم أمر البلاد والعباد، ولهم مواقف رافضة للاحتلال الفرنسي، ومنهم الشيخ على الجنجيهي قارئ القرآن الكريم (يستخدم السارد لفظة مقرئ والصواب قارئ، لأن المقرئ هو من يعلم الآخرين القرآن)، والعالم المتبحر الشيخ إبراهيم سلامة، وأحمد المدبولي خبير صناعة البارود، والحاج غمري التاجر وغيرهم.. البيت مكان من أماكن قيادة الكفاح والجهاد وسمع فيه الحاج مصطفى البشتيلي مناديا ينادي:" حي على الكفاح.. حي على الفلاح..". إنه نداء الحياة. وفي الأزهر يطمئن الرجل إلى أنه لم يعد وحده!

ففي الأزهر علماء يقودون المقاومة ولا يهابون، وآخرون مترددون، ولكن اجتماعهم في ميدان المقاومة الرئيسي يمنح البشتيلي أملا كبيرا: الشيخ الشرقاوي، السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، الشيخ السادات شيخ طائفة السادات، الشيخ الفيومي والصاوي وقاضي مصر، وغيرهم من جلة العلماء وشهبندر التجار السيد المحروقي والشيخ البكري شيخ السادة البكرية ومراد بك وإبراهيم بك والوالي التركي.

الأزهر هنا مكان له دلالته التاريخية في مواجهة الغزاة، حيث يلتقي المقاومون والمجاهدون، وهو رمز للهيبة الدينية والقومية، وحين تعرض للهجوم من جنود نابليون الذين ربطوا فيه خيولهم فقد ألهب الشعور العام، وأثار حفيظة الأمة والشعب ضد الهمجية الفرنسية التي لم تراع حرمة المكان ولا أهميته بالنسبة للجماهير، ولعل ذلك كان من وراء قتل القائد كليبر على يد طالب أزهري من حلب اسمه سليمان الحلبي.

وما بين الأزهر وبيوت الطبقة الوسطى والشعبية تجري مقاومة الشعب المصري للاحتلال الفرنسي، إلى جانب ميادين القتال في إمبابة وعين شمس والقلعة والسجون التي يعذب فيها المجاهدون على يد الاحتلال وعملائه، وتشير إليها الرواية إشارات سريعة وخاطفة .

ولعل الاهتمام المحدود بالمكان في الرواية يعود إلى سيطرة فكرة المقاومة على البناء الروائي حيث أعطاها الكاتب جل اهتمامه.

وتبدو روايتا "طلائع الفجر" و"النداء الخالد" متشابهتان مع رواية "مواكب الأحرار"، من ناحية الاهتمام بالمكان، وذلك لسيطرة فكرة المقاومة الوطنية للغزاة المحتلين على السرد، فتبدو الأماكن غالبا مجرد مسرح بغير ملامح للأحداث والشخصيات، لا تؤثر كثيرا في الأحوال النفسية والشعورية لأبطال الروايات.

هناك مدينة رشيد ثم بلدة الحماد وقبلهما الإسكندرية حيث هبطت القوات الإنجليزية، واستباحت أهلها في هجوم دموي بشع، وواصلت الطريق لتستولي على رشيد والحماد التي يعسكر فيها جيش شعبي يتزعمه مراد بك، وتخطط للانطلاق منهما إلى القاهرة.

ومدينة رشيد في الرواية من أجمل المدن. بيوتها محلاة بالمشربيات الجميلة ذات الزخارف البديعة، ومضارب الأرز المتناثرة في أرجائها، مع مصانع الطوب والمساجد؛ وخاصة مسجد زغلول الشهير الذي يصلي فيه العامة والخاصة من علماء المدينة وأعلامها وبعض الأتراك والمغاربة والشوام وتجار من مكة وغيرها، وجنود الأرناؤوط الذين يعيشون في المدينة. مسجد زغلول هو المكان الذي يجتمع فيه أهل رشيد وسكانها ليواجهوا حملة الإنجليز الغزاة. ويتبارى الخطباء والمتحدثون في حوارات ساخنة من أجل الوصول إلى أفضل السبل لمواجهة الحملة العسكرية التي يقودها فريزر القائد الإنجليزي، كما يقومون بإدانة حاكم رشيد على بك السلانكلي الذي ترك المدينة للغزاة واتجه جنوبا؛ مثلما فعل سلفه سليمان خجا أيام حملة نابليون على المدينة قبل سنوات.

وهناك لفتات سردية تصف المكان وصفا تفاعليا مع الأحداث، فها هي الرمال تمتد بين رشيد والحماد وينبت على سطحها النخيل العالي، ولكن الإنجليز دهموا المدينة، وحولوها إلى مكان يخيم عليه الوجوم والكآبة وانتظار الدمار الذي تصنعه مدافعهم الغبية المتوحشة. وخفتت أصوات الفلاحين الذين كانوا من أمد قصير يتغنون بالأغاني الشعبية الحماسية ويأملون في النصر والانتقام من المعتدين.. لقد ماتت المدينة، وصار الإنجليز يسيرون على أشلائها.

وتقدم الرواية صورة لبيوت الطبقة المتوسطة في رشيد فتصف منزل أحمد طاهر بك الذي يتكون من طبقات ثلاث، ويحيط به سور وحديقة جميلة، ويسكنه مع ابنيه محسن وإبراهيم، وعدد من العبيد والأحباش الذين قضوا في خدمة سيدهم فترة ليست بالقصيرة قائمة على الإخلاص والحب والولاء، ويمثل المنزل مظهر القائد الشعبي الذي يحرك الجماهير، فصاحبه كريم يعطف على الفقراء والضعفاء ويحب الناس جميعا، وليس مثل من سبقوه الذين يتسمون بالقسوة والظلم والضغط عل الفلاحين وإجبارهم على دفع الضرائب الباهظة والإتاوات. وفي المنزل يلتقي الأعيان والوجهاء ورؤساء المقاومة الشعبية، ويستمعون لصاحبه ويتخذون القرارات الحاسمة.

ثم هناك الخيمة التي أقامها فريزر لتكون مقرا لقيادته والخيام الأخرى لعسكره، وفيها خيمة السجن التي احتجز فيها محسن بن طاهر بك مع خطيبته. والخيمة مكان يلتقي فيها القائد فريزر

ومساعدوه للتخطيط من أجل القضاء على المقاومة وترسيخ الاحتلال، والخيمة تشير بصورة ما إلى الإقامة المؤقتة، وعدم الاستقرار، وكأن الرواية تقول: إن الاحتلال غريب وراحل، ولن يبقى في المدينة الطيبة طويلا، فهو طوال وجوده لم يستطع الدخول إلى أعماق المدينة، أو السيطرة على بعض مبانيها مثلا، واتخاذها مقرا له ولقيادته، وظل كذلك حتى تمت هزيمته، وانسحب يجر أذيال الخزي والعار.

والقرية المصرية مسرح الحياة البائسة في رواية "النداء الخالد". وهي حياة بائسة بكل المعاني، فالفلاحون معدمون، ويقترضون بالربا الفاحش من الخواجة يني، وخمارته كفيلة بليّ أعناق من كانت أحوالهم أكثر يسرا، وثراء، حيث يبددون ثروتهم على السكر مما يضطرهم إلى الاستدانة منه بالفائدة الباهظة المركبة، وبالضرورة يعجزون عن السداد، فيسلمونه فدادينهم ومحاصيلهم وبهائمهم، ولذا انتقل الخواجة المرابي من شخص فقير إلى أغنى أهل القرية لأنه سيطر على معظم أراضيهم، وقد ذكروه بأصله على طريقتهم، فقد قال له صديقه أبو المعاطي الشافعي بعد أن تنكر يني لصداقته، وأفهمه أن المعاملات لا صداقة فيها: "لقد أتيت قريتنا شحاذا بلا بيت"..(انظر النداء الخالد، ص 60).

وبؤس القرية يعبر عن نفسه من خلال شخصيات وأحداث عديدة فالعمدة خلاف عبد المتجلي يشي بمنافسه عبد العزيز شلبي، انتقاما منه كي تقبض عليه السلطة وتبعث به إلى ميدان القتال مع الإنجليز

فيعبّد الطرق ويشق الترع في أعمال السخرة، ولا يتوقف البؤس عند هذا الحد بل يأتي مأمور المركز ومندوب السلطة لتجنيد شباب القرية في أعمال السخرة لحساب الإنجليز بمساعدة العمدة. والاستيلاء على مزيد من الحمير والأغنام والمواشي ولا يترك منها إلا الهزيل أو المريض، وأيضا الاستيلاء على القمح والشعير والذرة، وتقليل المساحة المنزرعة قطنا وزيادة المنزرع من الحبوب الذي تتطلبه الحرب، وأصبح في كل بيت مأتم بعد حشر عشرات الرجال في الدوار، وهرب عديد من الشبان إلى الحقول والقرى المجاورة وطاردتهم أدوات السلطة وعلى رأسها العمدة والخفراء في كل مكان.

هناك أيضا الكوخ الذي يعيش فيه عبد الغفار الطبال، وهو شخص لا عائلة له ويعيش على التسول والصدقات ويقوم بدور المنادي وإبلاغ بعض الأوامر والأخبار إلى الناس، وسكناه في الكوخ تشير إلى انقطاعه عن الأهل والنسب، وأنه بلا قيمة اجتماعية فلا أحد يهتم به أو يحميه أو يسأل عنه، كما أنها تغري خفاجة البلطجي بقتله اعتقادا منه أنه يخبئ ثروة كبيرة، بيد أنه لا يجد شيئا. والكوخ ملمح من ملامح البؤس التي كانت قائمة في معظم القرى إن لم يكن كلها إلى وقت قريب. ولكنه ضرورة من ضرورات الحقول في الأماكن البعيدة عن الدور أو البيوت، حيث يفيء إليه الفلاحون وقت الظهيرة لتناول الطعام، أو قضاء وقت القيلولة، أو تخزين البذور والتقاوي والأسمدة الكيماوية وأدوات رش المبيدات، أو متعلقات الري.

إلى جانب ذلك تظهر القاهرة مكانا للعلم والدراسة والمظاهرات المطالبة بالاستقلال، أو العلاج والاستشفاء، كما نرى هناك مدينة طنطا العريقة التي تمثل مركز الدلتا، وتعمر بالمدارس والمعاهد التي تشارك بالتظاهر أحيانا، إلى جانب المصالح الحكومية والمستشفى الذي يعالج الحالات البسيطة المعتادة فحسب، وهناك أيضا مدينة زفتى الصغيرة التي تعلن فيها الجمهورية والاستقلال، وتصدر فيها صحيفة محلية، وإن كانت القوات العسكرية تقهر من أعلنوا استقلالها، وتستعيدها إلى إدارة الدولة، دون أن تعطينا ملامحها بصورة تفصيلية، أو متفاعلة مع الأحداث والأشخاص. بالإضافة إلى ما يتناقله الناس عن السجون في الأقسام أو المراكز والمحشورين فيها من الأبرياء.

الزمن

يمثل الزمن في الرواية أهمية كبيرة بالنسبة لبقية عناصر السرد، وبدونه لا تنهض الحكاية على قدمين، فهو الذي يحكم حركة الأحداث والشخصيات وبناء الرواية بصفة عامة، ولذا وصف ليسنج الرواية بأنها فن الزمن! مثلها مثل الموسيقى، وذلك بالقياس إلى فنون المكان (الحيز) كالرسم والنقش.

والزمن من المفاهيم الكبرى التي حار العلماء والفلاسفة والرياضيون في الإجماع على تعريفها مما يترك الباب مفتوحا للاجتهاد، وهو ما حمل باسكال على الذهاب إلى أنه من المستحيل ومن غير المجدي أيضا تحديد مفهوم الزمن. (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 199، 201).

ويرجع فضل تحديد الزمن، والكشف عن قيمته في النظرية الأدبية إلى الشكلانيين الروس، الذين توصلوا إلى أن القيمة في العمل السردي لا تكمن في طبيعة الأحداث، بقدر ما تكمن في طبيعة العلاقات التي تربط بين تلك الأحداث، وتوحد أجزائها...

ويظهر المتن الحكائي زمنياً مجموعة من الحوافز، متتابعة زمنياً، وحسب السبب والنتيجة، كما يجلّى المبنى الحكائي مجموعة هذه الحوافز ذاتها، لكن مرتبة حسب التتابع الذي تلتزمه في العمل. (انظر: مجموعة مؤلفين، نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلانيين الروس ، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين، الدار البيضاء. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1982، ص180).

ومع تطور الرواية الحديثة، تطور مفهوم الزمن الروائي، ففي الرواية الحديثة يمكن القول، "إن الزمن يوجد منفصلاً عن زمنيته". (ألان روب جريبه، نحو رواية جديدة، ترجمة: إبراهيم مصطفى إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ص 137). حيث تكسر مسار زمن القص في الرواية الحديثة. وتوزع على أزمنة عدة، وتتداخل مع بقية العناصر الروائية، وتتحول من المستوى البسيط المألوف للتعاقب والامتداد التصاعدي إلى مستوى معقد، تداخلت فيه المستويات الزمنية من ماض وحاضر ومستقبل تداخلاً عجيباً، فاختفى الترتيب الزمني المباشر للمادة الروائية، وأصبحت الرواية تتناول الزمن بطريقة تتضمن كثيراً من الإشارات المتقابلة، أو المتعاقبة للأزمنة المختلفة. كما أصبح الكاتب ينتقل في سرد الأزمنة

حسب ما تقتضيه الضرورة الفنية، مما أدى إلى صعوبة قراءة زمنية متعاقبة، ومن ثم استحالة دراسة الزمن كعنصر مستقل بنفسه؛ لأن الزمان لا يتمتع "بوجود مستقل نستطيع أن نستخرجه من النص مثل الشخصية أو الأشياء التي تشغل المكان أو المظاهر الطبيعية، فالزمن يتخلل الرواية كلها، ولا نستطيع أن ندرسه دراسة تجزيئية، فهو الهيكل الذي تشيد فوقه الرواية".(سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984، ص 27). ومن هنا، تأتي أهميته عنصراً بنائياً يؤثر في العناصر الأخرى وينعكس عليها.

ويفرق إدوين موير بين معنى الزمن في الرواية الدرامية والرواية التسجيلية، "فالزمن في الرواية الدرامية داخلي، حركته هي حركة الشخصيات، فالتغيير والقدر والشخصية جميعاً تركز في حدث واحد، وبانحلال الحدث تأتي فترة يبدو فيها الزمن أنه توقف، ويترك مسرح الأحداث خالياً. أما الرواية التسجيلية فإن الزمن فيها خارجي، غير مستقر ذاتياً وإنسانياً في نفوس الشخصيات، إنه يرى من نقطة ثابتة خارجية، إنه يتدفق متخطياً الراصد له، ويتدفق فوق الشخصيات التي يستحضرها ومن خلالها". (إدوين موير، بناء الرواية، ترجمة إبراهيم الصيرفي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1965، ص 102).

***

التعاقب الزمني

والزمن في روايات نجيب الكيلاني التاريخية يخضع في الأغلب الأعم إلى المسار التاريخي والتعاقب الزمني، ونادرا ما يكون هناك عودة إلى الخلف، أو اتخاذ المسار المتعرج، لأن الراوي العليم هو سيد السرد في معظم الروايات التاريخية وغير التاريخية، وهو أيضا يوجد لنفسه الفرصة ليستطرد في سرد حكايته من خلال التشويق والجذب بطرقه المختلفة.

وبصفة عامة فإن الزمن التاريخي في روايات الواقعية التاريخية لدى نجيب الكيلاني يتطابق مع الزمن الروائي بحيث تبدو الأحداث في سياقها الواقعي دون تسريع أو تطويل، وتبدأ من حيث بدأت أحداث التاريخ، وتنتهي بانتهائها.

وينطبق ذلك على الروايات التاريخية جميعا، فالغاية التي يريدها الكيلاني هي توصيل الفكرة الأساسية التي كتب من أجلها هذه الروايات وهي كشف حقائق الدعوة وأعدائها، وإيضاح طبيعة الجهاد والمجاهدين من أجل عزة الإسلام واستقلال البلاد، والحض على وحدة المسلمين ونبذ الخلافات التي تضعفهم وتقوض جهادهم وتغري بهم الأعداء.

هناك في بعض الروايات تناغم بين الأحداث والزمن من حيث الليل والنهار، وفصول السنة الأربعة، وحرارة الشمس وشدة البرد، كما نجد في روايات نور الله ، والرايات السوداء وطلائع الفجر وغيرها.

وعلى سبيل المثال فإن لحظات الانتظار لعودة الزوج من القتال ضد الأمويين في رواية الرايات السوداء تبدو ثقيلة زمنيا، وصعبة المرور على لمياء زوجة علي بن أميمة، وكثيرا ما تبدي تبرمها وسخطها لأن زوجها لا يريد الحياة الطبيعية داخل أسرته ومع أهله وولده، لأنه يكلفها كثيرا من العناء والسهر والقلق والتفكير فيما قد يتعرض له من أخطار في القتال والصراع بين العباسيين والأمويين. هي زوجة تريد أن تعيش مثل بقية الزوجات في أمان وسلام، وهو ما لا تحققه الحروب والنزاعات التي يشارك فيها زوجها مناصرا للعباسيين.

وفي سياق عام تبدو الجاهلية في رواية نور الله مرادفة للظلام والإحساس بكآبته وقسوته، كما نرى شدة البرد وسرعة الريح سلاحا ضد الأعداء مثلما حدث في غزوة الأحزاب، مع أن البرد والريح من عناصر الشدة والكرب على المسلمين الصامدين دفاعا عن دينهم ومدينتهم.

وعلى هذا المنوال نري سطوع الشمس معادلا لإشراق النور المحمدي وهو يخطو مهاجرا من مكة إلى المدينة.. وعلى مدى يقرب من خمسة عشر عاما تتناغم الأحوال الجوية زمنيا مع تقلبات الليل والنهار.

ويتعانق الزمان والمكان في رواية نور الله ليجعلا من مكة رمزا للقلق والقهر والظلام الذي يغشي القلوب والنفوس، وتكون المدينة المنورة (يثرب) مثابة للمسلمين وأمنا وشمسا مشرقة دائما مع كل ما يفرض عليها من مواجهات وصراعات، وما يدبر لها من مكائد ومؤامرات.

ولا تشير رواية الواقعية التاريخية إلى سنة بعينها أو تاريخ زمني محدد إلا في بعض الروايات القليلة التي تعالج المواجهة مع الحملات الاستعمارية أو الاحتلال الغربي لمصر. ولكنها تؤرخ بالأحداث التي تعالجها ففي رواية "على أبواب خيبر" مثلا تتحدث عن غزوات سبقت غزوة خيبر، والقصاص من اليهود الذين خانوا وغدروا ونقضوا العهود (بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة)، ويستغرق الزمن الروائي الفترة التي تبدأ بالتجهيز للمعارك مع إشارة إلى ما سبقها من صراع مع بني قريظة حتى ينتهي القتال بهزيمة اليهود وما يترتب عليها، وهو وقت قصير وغير ممتد .

تحديد الوقت

الزمان التاريخي المحدد نجده في رواية حارة اليهود التي جرت أحداثها في أواخر عهد محمد على حيث يحدد السرد الزمان التاريخي لوقوعها عام 1840بعد سيطرة قوات محمد على باشا على الشام بقيادة ولده إبراهيم باشا.

أما الزمان الروائي فيتعلق بفترة غير قصيرة ترتبط بفكرة ذبح الأب البادري توما، وإلقاء جثته في مجرى مائي، وصناعة الفطير المقدس من دمه، ثم انكشاف الجريمة ومعاقبة المسئولين عنها ثم العفو عنهم تحت تأثير الرشاوي والضغوط الأجنبية .

ونلاحظ هنا أن الزمن الروائي يرجع إلى الوراء أحيانا ليقدم لنا سيرة الأب توما الضحية، فتشير إلى نشأته في إيطاليا، وقدومه إلى دمشق،

ونشاطه في خدمة المجتمع من خلال نشر دعوته وعلاج المرضى بحكم ما يملك من معلومات طبية وتجارب علاجية.

والأمر نفسه بالنسبة لرواية "مواكب الأحرار" التي تتناول الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت؛ فتشير الرواية في أول سطورها إلى مكان الأحداث والزمن التاريخي (بولاق أواخر القرن الثامن عشر)، وتمضى وقائع الحملة والمواجهات التي تمت ضدها من جانب المماليك والأتراك والشعب على مدى فترة الاحتلال التي استغرقت نحو ثلاث سنوات، ويتطابق فيها الزمن التاريخي والزمان الروائي.

ولا تشير رواية "طلائع الفجر" التي تعالج الحملة الإنجليزية على مصر بقيادة فريزر على مصر إلى التاريخ. والمعروف أنها وقعت سنة 1807م، وتمضي أحداثها منذ نزول القوات الإنجليزية على شواطئ الإسكندرية وتقدمها نحو رشيد ومعارك المقاومة ضدها حتى هزيمتها ثم انسحابها ومغادرة البلاد في زمن صاعد يتقدم بالتتابع.

ويلاحظ هنا أن الرواية تهتم بالزمن من خلال الليل والنهار، والظلام والنور، فنرى فريزر مثلا ينتظر حتى آخر الليل والظلام الحالك يغطي بلدة "الحماد" حيث يعسكر بجنوده في الجهة الشمالية منها؛ ليدهم البلدة الآمنة في وثبة تشبه الوثبة التي باغت بها الإسكندرية منذ أيام، فألحقت بها خسائر فادحة وشردت كثيرا من أهلها شيوخا وأطفالا ونساء، فقد كان يريد أن يدهم الحماد على حين غرة، وذلك لوجود جيش شعبي يتزعمه مراد بك المملوكي الذي يعسكر في الناحية الجنوبية من المدينة.

الليل هنا يمثل غطاء زمنيا يستر خطة فريزر ويتيح له تحقيق هدفه العسكري، وهو ما يتفق فيه مع القائد سير ولنجتون الذي يراه وقتا مناسبا مع أن الخسائر قد تكون كبيرة. ولذا يفضل التعجيل بالهجوم لأن المصريين يستيقظون عادة لصلاة الفجر، والتأخير يفسد الخطة.

ولحظة الفجر من اللحظات التي تركز عليها الرواية في أكثر من موضع. مثلا العمليات الفدائية التي يقوم بها رجال المقاومة تتخذ من هذه اللحظة وما يسبقها فرصة مناسبة للقيام بعملياتهم التي تفاجئ العدو وتربك خططه وتدبيراته. ومنها قيام إبراهيم بمحاولة تحرير شقيقه محسن وخطيبته من قبضة الإنجليز بعد أسرهما. فقد عاد إلى البيت حينما أذن الفجر موعد استيقاظ أبيه والأسرة، ويخبر والده بأن المغامرة حققت نصف نجاح بتحرير محسن دون خطيبته.(انظر: طلائع الفجر، ص162-163)

التطابق

ويمكن أن نقيس على ذلك أحداث رواية "النداء الخالد" في معالجتها لثورة 1919، فهي تشير إلى الثورة في السياق السردي، وإلى الحرب العالمية الأولى التي سبقتها، لتطابق بين أحداثها ووقائع التاريخ، وتنتهي بهزيمة الثوار في مدينة زفتى، وعودة قادة الثورة من منفاهم، وتوقيع المعاهدة التي تمنح مصر استقلالا مشروطا.

وأيضا فإن رواية "أرض الانبياء" لا تشير إلى الزمان التاريخي الذي جرت فيه الأحداث أية إشارة مكتوبة، ولكنه يفهم من السياق. حيث تعالج الرواية أحداث القتال أو المقاومة التي قام بها المتطوعون

العرب، والجيوش العربية ضد العصابات اليهودية الإرهابية في عامي 1947و1948، انتهت بصدور قرارات الأمم المتحدة التي تثبت التقسيم لصالح اليهود الغزاة، وتعترف بكيانهم الغاصب، وتفرض الهدنة كي يقوّوا أنفسهم عسكريا وسياسيا واقتصاديا، ويقيموا أمرا واقعا في ظل تخاذل عربي وخيانات عربية وفلسطينية سافرة.

تستغرق أحداث الرواية وقتا قصيرا نسبيا يقرب من زمن رواية "حارة اليهود"، ويبدأ بتدفق المتطوعين العرب على أرض فلسطين لمواجهة العصابات اليهودية الإرهابية، وتتوقف الأحداث مع إعلان الهدنة، وعبر هذا الزمان القصير نعيش أحوال الشعب الفلسطيني والشعوب العربية، وقد أسلمت قيادها للمستعمرين الأجانب سياسيا وعسكريا، فقد كان الجنرال جلوب– على سبيل المثال– يقود جيوش الجبهة الشرقية العربية من ناحية الأردن لمحاربة الصهاينة الغزاة في فلسطين، وهو بالعقل المحض يستحيل أن يحارب الغزاة اليهود بإخلاص لأن دولته التي ينتسب إليها- أقصد إنجلترا- هي من أعطتهم وعد بلفور، وأمدتهم بالسلاح، وأتاحت لهم بحكم احتلالها لفلسطين الفرصة كي يتدربوا ويقاتلوا ويتمكنوا. أما الملك عبد الله فقد كان غير جاد في محاربة اليهود الغزاة لأنهم أصدقاؤه وعلاقته السرية بهم كانت قوية جدا (انظر ما كتبه المؤرخون الجدد في الكيان الصهيوني: بيني موريس و ايلان بابي و آفي شلايم وتوم سيغف على سبيل المثال)، ولذا أصر على قبول الهدنة، وإلا تعرض الوضع العربي لمزيد من التمزق والضياع حسب مفهومه.

***

الفصل الرابع
الشخصيات

الشخصية الروائية

يعدّ بعض النقاد الفرنسيين المعاصرين الشخصية الروائية مثل الشخصية السينمائية والمسرحية لا تنفصل عن العالم الخيالي الذي تعزى إليه، مرتبطة بمنظومة تعيش فينا بكل أبعادها. (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 89)، والشخصية التاريخية تبدو محققة لهذا التصور حين توضع في موقعها الطبيعي من البناء الفني الذي يقوم به الروائي.

والشخصية في الرواية هي التي تجذب القارئ أو المتلقي، فتحقق الاختيار الصحيح لها. وللوصول إلى الاختيار الصحيح لا بد وأن تكون الشخصية ذات أبعاد ثلاثية مثل باقي شخصيات الحياة: أشخاص لها مخاوف وآمال، أشخاص لها نقاط ضعف ونقاط قوة، أشخاص لها هدف أو أكثر في الحياة.

يقول سومرت موم :

" إن الكاتب لا ينسخ نماذجه نسخاً من الحياة، ولكنه يقتبس منها ما هو بحاجة إليه. يضع ملامح استرعت انتباهه هنا. أو لفتة ذهنية أثارت خياله هناك. ومن ثم يأخذ في تشكيل شخصيته، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقاً، هو أن يخلق وحدة

منسجمة، محتملة الوجود، تتفق وأغراضه الخاصة. (انظر: محمد يوسف نجم ، فن القصة ، 93).

ورواية الواقعية التاريخية تملك الشخصية التي تحقق الانسجام حين يسعى الكاتب إلى استيفاء أبعادها الثلاثية، وغالبا ما يتوجب عليه أن يملأ الفجوات في بناء الرواية بإنشاء شخصيات من خياله تسند الشخصيات الأساسية، وتساعد على بلورة أبعادها واكتمال الفكرة الروائية عموما، وهو ما لجأ إليه نجيب لكيلاني حين قدم شخصيات مساعدة أو ثانوية تنعكس عليها أفكار الشخصيات الأساسية، وسلوكها، ورؤاها، وأخلاقها، مثل شخصية اليهودية اللعوب في رواية "نور الله"، وبعض الشخصيات التي تمثل بعض المتمصرين الخونة الذين كان ولاؤهم للمحتل المعتدي؛ بديلا عن شخصيات تاريخية تفرض الظروف والمواءمات الاجتماعية عدم التطرق إليها، كما نرى في رواية "طلائع الفجر".

والشخصية الأساسية في الرواية التي تسمى البطل أحيانا، تمثل الشخصية المحورية في البناء الأدبي، ودائماً ما تكون مرنة قادرة على التغير، لتنهض غالبا بتصميم الرواية من البداية حتى النهاية..

ووجود الشخصيات المساعدة أو الثانوية بصفة عامة، قد لا يكون لها دور رئيسي لكنه ضروري وبدونه لا تَكتمل الأحداث.

لقد ارتبطت أهمية الشخصية بتطور الرواية في القرون الثلاثة الأخيرة. حيث يرى عبد الملك مرتاض أنها مرت بثلاث مراحل كبرى. المرحلة الأولى، التوهج والعنفوان، وارتبطت بازدهار الرواية

التاريخية، والاجتماعية خصوصا، (بلزاك كتب تسعين رواية تقريبا تضمنت أكثر من ألفي شخصية، بالإضافة إلى جملة من الكتاب الفرنسيين وغيرهم في الآداب الأخرى).

بعد الحرب العالمية الأولى؛ كانت المرحلة الوسطى، التي تقع بين عهد رواية الشخصية ورواية اللاشخصية، مرحلة التشكيك والهز والمساءلة والخصومة.(أندريه جيد ، وجيمس جويس، وفيرجينيا وولف..)

المرحلة الثالثة، بعد الحرب العالمية الثانية، مدرسة جديدة للرواية، نشطة ومتمردة على الحياة، رافضة للتاريخ، منكرة لوجود الشخصية على أنها تمثل صورة الحياة الاجتماعية، ونادى أصحابها ألا شيء يوجد خارج اللغة، وأن الشخصية مجرد عنصر من عناصر المشكلات السردية الأخرى(الرواية الجديدة) ويمثلها آلان روب جرييه، وكلود سيمون، وميشال بيتور، وناتالي ساروت، وصمويل بيكيت..(انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 104- 105).

بيد أن وجود الشخصية في العمل الروائي مسألة ضرورية، ولا أحد يتصور أن تكون الرواية التاريخية مثلا بدون شخصيات مؤثرة ومهمة ومبهرة في زمانها أو زماننا، مهما بدا لأصحاب التيارات التجريبية عدم أهمية الشخصية وقلة تأثيرها.

الشخصية الإسلامية

كثير من الأعمال الروائية والقصصية تقدم الشخصيات الاسلامية غالبا في صورة فصامية نكدة أو هزلية بائسة، لا تعبر عن الإسلام الحقيقي ولا قيَمه الإيجابية. وكثيرا ما نري شخصية المأذون، أو

محفظ القرآن، أو مدرس اللغة العربية، أو الواعظ، أو إمام المسجد، أو خطيب الجمعة، أو الدرويش، أو الملتحي، أو المرأة المحجبة أو المنقبة؛ في وضع بائس يعاكس الحياة السوية، ويعادي العمل الجاد المثمر. وأضيف أخيرا إلى هذه الشخصيات شخصية المسلم الإرهابي الجاهل المتخلف المسكون بالجنس والشراهة إلى المتع الدنيوية وحب الدماء.. لا توجد في الأغلب الأعم شخصية إسلامية سوية مستقيمة متفتحة مسالمة تبني وتعمل، وتنتج وتتعلم، وتدرس وتثمر.. الشخصية الظلامية هي التي تتسيّد الكتابات الأدبية في أرجاء الأرض، وليس في بلاد العرب والمسلمين فحسب.

انتقلت هذه الصورة من الرواية والقصة إلى السينما والدراما التلفزيونية والمسرحية. وجسدها ممثلون لهم شعبية أو حضور شعبي، فكانت أكثر تأثيرا في قطاعات واسعة من الجمهور وخاصة الشباب، وأضحت صورة المسلم من خلال ما ترسب في الأذهان خارج الحياة والمجتمع، وهو ما يهيئ ليبحث المسلم عن هوية أخرى، وثقافة مختلفة كي يكون مقبولا، وكي تكون صورته على الشاشة الكبيرة والصغيرة وخشبة المسرح بعيدة عن الفصامية النكدة والهزل البائس!

نادرا ما تطرق كتاب السرد إلى تقديم صورة إيجابية أو منصفة للشخصية الإسلامية في مواجهة الصورة السلبية الظالمة، وبالتالي نجد الصورة المنقولة على الشاشة أو المسرح خالية من أية شخصية إسلامية مقبولة أو مقنعة واقعيا.

القرآن الكريم وضح طبيعة النفس الإنسانية بصفة عامة، "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (الشمس: 7-10) وهذه النفس هي محرك الشخصية البشرية، ومنها الشخصية الإسلامية، وهو ما يفرض أن يكون هناك نوع من التوازن التعبيري في صياغة الشخصية.

عندما تكون الشخصية سلبية، فمن المفترض أن تكون في مقابلها شخصية إيجابية، وهو ما تفتقده الأعمال السردية العربية غالبا، عن قصد، أو دون قصد.

يتحدث القرآن الكريم عن النفس الانسانية، أساس الشخصية، فيراها ثلاث أنفس أو أنواع: الأمارة بالسوء، واللوامة، والمطمئنة..

فالأمارة بالسوء هي التي تنزع إلى الشر والأذى: "وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (يوسف: 53)

والنفس اللوامة هي التي تقارف الذنوب، ثم تراجع نفسها، وتعود إلى الصواب: "لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (القيامة:1-2)

والنفس المطمئنة هي التي ارتضت طريق السلام والرشد والعطاء: "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي" (الفجر:27- 30)

للأسف لم نجد ملامح النفس المطمئنة والنفس اللوامة في سياقات السرد العربي المعاصر إلا نادرا. ما نراه هو النفس الأمارة بتجلياتها الوحشية المعادية للدين والناس بل لذاتها في معظم الأحوال.

وحده نجيب الكيلاني الذي اهتم بتقديم الشخصية الإسلامية المطمئنة والشخصية الإسلامية اللوامة إلى جانب الشخصية الأمارة بالسوء، في كل أعماله تقريبا، فقدم البعد الغائب في السرد العربي من خلال إنتاجه الغزير، وتابعه على الدرب عدد من الكتاب الشباب الذين ظهروا من بعده، وهم للأسف ما زالوا قلة في بحر السرد العربي المتلاطم.

والكيلاني في روايات الواقعية التاريخية يقدم نماذج كثيرة للشخصية الإسلامية الإيجابية التي تتحقق فيها صفات المسلم، في صورة بشرية، لا تضعها في جانب التقديس والعصمة، ولكنها تخطئ وتصيب. تأكل وتشرب، وتضعف وتغضب، تستمتع بالحياة والجمال ولكنها تزهد وتطمع، وهي في كل الأحوال تعود إلى ربها وتتوب إليه، وتواصل مسيرة الحياة في ظل قيمها الإسلامية وأخلاقها الإيمانية.

حتى الشخصية غير الإسلامية نراها أحيانا تتحرك في سياق الفطرة البشرية فتخضع للحق حين تكتشفه، وتفيء إليه، وهناك بالطبع شخصيات لا تخضع ولا تفيء مهما بدا لها من معالم الحق والصواب، لأن تكوينها نكد وفاسد وسيئ، مثل الشخصية اليهودية، أو شخصية المحتل الغازي الأجنبي، أو شخصية الظالم المستبد الفارغ من الإيمان والقيم الصالحة.

وروايات نجيب الكيلاني بصفة عامة من النوع الذى يطلق عليه القصة التمثيلية dramatic novel حيث يكون التفاعل على أتمه بين الحوادث و الشخصيات، فالحادثة التي تجترحها الشخصية، سرعان ما تصبح عاملاً مؤثراً في القصة، قد يمس الشخصية نفسها مساً ليناً ،أو عنيفاً عاتيا. (انظر: محمد يوسف نجم، فن القصة، 34).

بيد أن رواية الواقعية التاريخية عند الكيلاني، تبدو أقرب إلى الاحتفاء بالشخصية حيث نعيش مع شخصيات فاعلة ومؤثرة في الأحداث، بدرجة أكبر من تأثير الأحداث فيها على امتداد السرد الروائي، وإن لم يمنع ذلك أن يكون للأحداث تأثير ما على الشخصيات وإن بدا محدودا.

وإذا كانت رواية الشخصية تقدم لنا شخصيات تعيش في مجتمع، ورواية الحدث تقدم لنا أفراداً يتحركون من بداية إلى نهاية، فالرواية الدرامية تحدث تأثيرا كبيرا في البناء الروائي بسبب هيمنة الشخصية على الأحداث، ويكون هذا التأثير عادة على المكان والزمان حيث يكون معنى المكان باهتاً ونحسّ بامتلائه امتلاء بالغاً غير عادى في الأعمال الكبيرة من روايات الشخصية، كما نحس بازدحام الزمان أيضا (انظر: إدوين موير، ، بناء الرواية، ترجمة. إبراهيم الصيرفي، مراجعة عبد القادر القط، الدار المصرية، القاهرة، د.ت، 62،84).

كما تنهض الشخصية بصفة عامة باللغة والحدث والمكان وتبعث فيها الحياة، وبدونها تتحول اللغة إلى ملامح خرساء فجة، والحدث إلى جثة هامدة، والمكان إلى حيز خامد لا أثر له. (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، 104).

شخصيات رواية الواقعية التاريخية كثيرة من المسلمين والمشركين والمنافقين واليهود، ولكننا نجد بروزا واضحا لشخصيات عمر وسعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج وسلمان الفارسي ونعيم بن مسعود، وحسان بن ثابت شاعر الإسلام، وأبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وكعب بن أسد وعمر بن جحاش..

ومن الشخصيات النسائية تظهر هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وامرأة عبد الله بن أبي، وحفصة بنت عمر زوج النبي- صلى الله عليه وسلم- وصفية بنت حيي بن أخطب، وزينب بنت الحارث، وزوج عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وشخصيات حارة اليهود، وأهل القاهرة ورشيد والريف المصري، والمرابين المتمصرين، وضباط الاحتلال الفرنسي أو الإنجليزي وجنوده، وغيرهم من عامة الناس.

وهناك بعض الشخصيات التي وضعها المؤلف لتساعد على توضيح فكرة أو تفسير بعض الأحداث مثل المرأة اليهودية اللعوب التي لم يسمها بغير صفتها (اليهودية)' أو الزوجين المسلمين الشابين هند ورابح.

عمر بن الخطاب

يلحق عمر بأم عبد الله التي تخلّفت عن زوجها بمسافة ليست بقصيرة حتى لا تثير الشبهات حول عزمهما على الهجرة إلى الحبشة، فترى عمر ويعكس خوفها منه ملامح عمر وصفاته التي اشتهر بها في مكة "ذلك الشاب الفارع الطول، القوي البنية، العميق النبرات،

وابن الخطاب معروف ببطشه وغلظته ومعاداته الشديدة لمحمد وأتباع محمد، ألم يقم بنفسه بتعذيب بعض المسلمين؟؟ ألم يهدد بقتل محمد، ويتهمه بالمروق، وبأنه صابئ عن دين الآباء والأجداد، وأن دعوته ضد نظام مكة وأمنها واستقرارها؟؟ إن أم عبد الله تعرف ابن الخطاب جيدا.. " (نور الله ج1، ص 15)

أم عبد الله بعد أن حكت لزوجها ما كان من عمر ، وقوله لها بعد أن اعترفت له بعزمها مع زوجها على الهجرة: صحبكم الله، تعلق على ذلك بقولها: "ورأيت رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه- فيما أرى– خروجنا . لقد قرأت على وجهه معاني لم ألفها فيه من قبل، يبدو لي أن عمر على وشك أن يعلن إسلامه".

ولكن زوج أم عبد الله يضحك ساخرا، ثم يقول: "لا يسلم هذا الرجل حتى يسلم حمار الخطاب" (السابق، ص 17)

والحوار هنا يكشف عن تحولات عمر، ومواقفه التي تنبئ عن رؤية جديدة سيكون لها أثرها في حياته ومستقبل الدعوة الإسلامية.

ولا تقصّر الرواية في تقديم عمر من الداخل وما يضطرم في أعماقه وهو يتحول من عدو شرس للدعوة إلى منافح قوي عنها. فها هو يتحدث عن نفسه ويقول: "كنت دائما أحسم الأمور بضربة قوية نهائية أو برأي ثاقب لا يهتز أو يتأثر بالمعارضة، فماذا جرى لي؟؟ " هكذا قال عمر بن الخطاب يحدث نفسه، وهو يسير في الطريق وحيدا، يعتصره الضيق، ويمزقه الألم، إن أمر محمد يشغل باله، وينغص فكره، ويملأ تفكيره بالمتناقضات التي لا نهاية لها، حاول

جاهدا أن ينقض عليه ويريح قريشا منه، لكنه ما يكاد يقترب منه حتى تضج الهواجس في رأسه، ويحيط به الاضطراب من كل جانب، ويدرك أن ذلك أمر كبير، خطير غاية الخطورة، لم يستطعه أحد من رجالات قريش وأبطالها. "ثم إن نداء داخليا يهيب به في كل مرة أن قف، ولا ترفع يدك وإلا....وما يكاد عمر يرفع عقيرته مفندا دعوى محمد أو مسفها لآرائه، حتى يشعر أنه لا يؤمن بما يقول، وأن منطقه لا يكاد يستقيم أمام دعوة محمد فيما تقدمه من أدلة وبراهين قوية وبساطة مذهلة.. يا لها من مأساة يعيشها عمر؟؟" (نفسه ، ص18)

يعلم عمر أن آباءه من قبله هم سفراء قريش في كل مكان، يحلون المعضلات ويفضون أعتى المشكلات، ويملكون الرأي الثاقب، والحل الذي يرضي الناس جميعا، وعمر له من سعة التفكير، وانطلاق اللسان، ورجاحة العقل، ما جعله السفير المعلم إلى القبائل المجاورة والممالك القريبة؟؟

تحتفي الرواية بمناقشة موقف عمر لنفسه من الدعوة وما يأخذه على محمد– صلى الله عليه وسلم- من انحرافات كما يتصور، أبرزها ابتداع دين جديد يخالف دين الآباء والأجداد، وأنه سيفتح الطريق أمام الخلافات والصراعات بين العرب.

يقابل عمر بائعة هوى- وهي شخصية موضوعة تسهم في توضيح صورة الجاهلية، وسلوك الجاهليين- تعكس لنا صورة عمر وهو في مرحلة الشك والبحث عن اليقين، فهي تدعوه إلى بيتها، ولكنه يتردد

بوصفه رجلا متزوجا محترما لا يليق به أن يذهب إلى بيت غانية، تضحك ضحكة متكسرة وتغريه بما لديها من أحاديث وأنباء وألحان وكئوس تطرب لها نفسه، ومن خلال الحوار بينهما نجده يتساءل: لماذا أرسل الله محمدا بالذات؟ ولماذا لم يبعثه هو وهو فارس قريش وسفيرها؟ ونعلم أن مئات الأسئلة تطرح في رأسه دون إجابة حاسمة. الغانية تستغرب أسئلة عمر فالذي يعنيها هو العزف والغناء ومنادمة الرجال، لكنها لا تعرف الكثير عن الله! " إن ما أسمعه عن محمد لا يخرج عن كونه كلمات جديدة عن الله والملائكة والناس والدنيا والآخرة والجنة والنار وتتساءل: أترى أن مثل هذه الكلمات تؤدي إلى خطر ما ؟؟

ضحك عمر وقال إن هذه الكلمات الصغيرة كبيرة جدا.. إنها السحر الذي أثار الانقلابات في الدنيا منذ بدء الخليقة.. إنها تشكيل جديد لعقيدة الإنسان.. لوجدانه وعقله وسلوكه.. هل تفهمين؟؟" (نور الله ج1، ص 22)

حوار بائعة الهوى يكشف عن شخصية عمر الحائرة الباحثة عن اليقين، ولكنها لا تجده، بينما الغانية مشغولة بالحب وما يعود عليها من بيع الهوى، فهي لا يعنيها أمر الدعوة ولا الداعية ولا إيمان عمر ولا حيرته، ولا عزمه على قتل محمد، ولكن يعنيها شيء واحد هو الهوى الذي ما عاد يشغل عمر، فقد أصبحت يده بارده لأنه مشغول بمحمد ودعوته لدرجة أن تقول له نافرة: "لم تعد تصلح لشيء يا ابن الخطاب. حسبتك تحدثني عن الحب فإذا بك تتحول إلى كاهن أو فيلسوف، لست أدري!! لقد أضعت الوقت في الهذيان السمج.." (السابق، ص24)

عمر يفجع الغانية في حديثه عن الحب الذي يريده وهو غير الحب الذي تريده الغانية. إنه شيء آخر يختلف عن الحب الأناني الذي تتحدث عنه المرأة، ويختلف عن حب عبد شمس لنفسها عندما فكرت في طرد والد عمر وقبيلته بني عدي معه، ويختلف عن حب أب سفيان وقريش لسلطانهم ومراكزهم وهم يذيقون محمدا ورجاله النكال (نفسه ، ص 25)

حين يخرج عمر متوشحا سيفه مصمما على قتل محمد يقابله نعيم بن محمد فيثنيه عن قراره بعد حوار طويل، ويتحول عمر إلى جندي من أهم جنود الإسلام، وتتحقق أمنية الرسول– صلى الله عليه وسلم – بنصره للإسلام " اللهم انصر الإسلام بأحد العمرين..."، وتبدع الرواية في الكشف على امتداد صفحاتها عن داخل عمر وحركته الداخلية والنفسية وخاصة في حالات صراع المسلمين مع المشركين واليهود في الغزوات والمواقف الصعبة، والكشف عن داخل عمر يكشف بالتالي كثيرا من حركة الإسلام والمسلمين مدا وجزرا، فعلى سبيل المثال عندما خالف الرماة أوامر الرسول في غزوة أحد ودارت الدائرة عليهم ويهتف أحد المشركين بأنه قتل محمدا؛ تدور الأرض بعمر وتظلم الدنيا في عينيه ويتساءل عن الموت وهزيمة المسلمين وانتصار المشركين وكيفية المستقبل وكيف لم يلق الشهادة قبل كل هذا مع من سقطوا في الميدان؟ إنه يرى نفسه أتعس مخلوق في الوجود ويتحسر على مصير الدعوة والمظلومين والعبيد والمعدمين الذين كانوا يحلمون بفجر السعادة والإخاء؟ أيعلو هبل

وتنتصر اللات والعزى؟ اللهم إن نصرك لا ينزل إلا لمن يعمل وفق أوامرك ونواهيك، أتراه عقابا أنزلته بمن انصرفوا عن الواجب الأسمى إلى غنائم الدنيا؟؟ إن الموت لأروح من هذا العناء الذي أقاسي منه ... (انظر نور الله ج1، ص 128)

وهكذا يبدو عمر مهموما بأمر الدعوة أكثر من غيره من الصحابة ومفتونا بحب النبي- صلى الله عليه وسلم- حتى انتصار الدعوة.

هند بنت عتبة

هي زوج أبي سفيان زعيم قريش، قتل أبوها في غزوة بدر مع عدد من أقاربها. تمثل تأثير المرأة في إشعال الحرب وتأجيج القتال، وتقابل إلى حد ما دور زينب بنت الحارث لدى اليهود، لعبت دورا كبيرا في التحريض على معركة الثأر في غزوة أحد. وركزت تحريضها على حمزة عم الرسول– صلى الله عليه وسلم- فهو القوي الثائر الذي يجول بسيفه ولا يرهب الموت ولا يتراجع أمام المشركين. وهي تراه في معركة أحد يتقدم الصفوف كالمرة السابقة، فهل يتقدم هذه المرة ليقتل زوجها أبا سفيان. تصيح بأعلى صوتها: "لك الويل يا حمزة"! تتساءل :" من يأتني برأس حمزة وأنا أعطيه جائزة كبرى فوق ما يحلم به؟؟".

ويتقدم لها العبد وحشي ليحقق أمنيتها مقابل أن يحصل على حريته. وقد أسهبت رواية "قاتل حمزة" في تناول شخصيتها، وكشف ما بداخلها من أحقاد ورغبات وحشية. وتواصل هند تحريضها بتجميع النساء وإنشاد الأشعار المحرّضة على القتال، وتهمس في أذن

بعض النساء بأنها ستبيع نفسها للشيطان لو هزم المشركون وستلطخ وجه أبي سفيان بالوحل، وتنطلق في الصحراء تترنم بجبن قريش وخيبتها. أما إذا انتصرت قريش فسوف يكون أروع أيام عمرها وتدق الطبول وتنحر الجزور وتملأ الكئوس. إن أمنية عمرها أن تشرب من دم حمزة بن عبد المطلب وتتلذذ بأكل كبده! وقد تحققت لها هذه الأمنية للأسف! وكان أبو دجانة قد أوشك أن يقتلها ولكنها تستغيث به طالبة الرحمة فيعفّ عن قتلها لأنه ما كان ليلوث سيف الرسول بدم امرأة حتى لو كانت هند الحاقدة زوج قائد المشركين. ولكن اللعنة تظل تطاردها وتطارد وحشيا حتى يدخلا الإسلام.(انظر: نور الله ج1، صفحات 121-126)

في المقابل نجد امرأة من نوع آخر هي نسيبة بنت كعب خرجت يوم أحد تسقي المسلمين، حيث ترمي بسقائها وتنتضي سيفا وتنافح عن النبي الذي أمسك بحربة، وظل يضرب بها يمينا ويسارا في شجاعة واستبسال نادرين. (انظر نور الله ج1، ص 128)

***

الحاج مصطفى البشتيلي

إنه رمز المقاومة الشعبية ضد الغزاة الفرنسيين الذين يقودهم نابليون بونابرت. والحاج مصطفى البشتيلي أحد كبار التجار وعالم وابن بلد يعيش في بولاق. يحب الحرية ويملك الكرامة ويرفض الغزو الاستعماري. ويتبنى المقاومة بإيمان وإصرار، ولكنه يشعر دائما أنه وحده، فالناس كثيرون والسخط يملأ القلوب والألسنة الثائرة تعبر عما يجيش في القلب من تمرد مكبوت ..

لقد اجتمع حول البشتيلي نفر من أصدقائه أعيان المجتمع، منهم الشيخ إبراهيم سلامه، والقارئ الشيخ الجنجيهي، ولهم دور هامشي في تفسير الأمور أو الحكم عليها، أو تقدير ما سوف يأتي، أو تأتي به الأخبار والأنباء. لكن عندما يجد الجد ويهجم الأعداء يحدث الشلل.. وذلك المرض الخبيث.. يقف الناس مطرقين عاجزين، الخوف يقيدهم والرهبة تخرس ألسنتهم، فقد أيقنت غالبيتهم أنه لا جدوى من التضحيات..(مواكب الأحرار، ص7)،

لقد نهب بعض المماليك قدرا كبيرا من تجارته وأمواله تحت سمع الناس وبصرهم؛ بل أمام عينيه هو، ومنهم أصدقاؤه الخلص، ومن أحسن إليهم، ولم يتحركوا لعمل شيء.

والرجل يحب السلام والهدوء والسعي من أجل الأبناء والمصالح، ولكن وجود الشر في الحياة هو الذي يثير قوى الخير ضده.. وتلك سنة الحياة. والفرنسيون سلسلة في الشر والشقاء الذي أصاب البشرية على مدى طويل.

في مقابل إصراره على المقاومة والدفاع عن الوطن يسعى صديقه أحمد المدبولي لإثنائه عن موقفه، ويغريه بالهروب خارج القاهرة ليأمن على نفسه وأولاده وأمواله، ولكن البشتيلي يرفض ذلك رفضا قاطعا، ويصر على المقاومة ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

أحمد المدبولي تاجر البارود الذي يخاف على تجارته وأمواله ونفسه وأهله، ويهرب إلى يافا في فلسطين ويعود حين يقبض عليه جنود نابليون هناك، ويتمتع بالعفو نظير الولاء للغزاة، نموذج للأنانية

وحب الذات والجبن. فقد كان صديقا حميما للبشتيلي، ولكن حبه لنفسه كان يدفعه لتثبيط همة صديقه، ودعوته إلى ترك المقاومة تحت دعوى أن الفرنسيين أقوياء، وان المصريين لا قبل لهم بهم .

وفي ثورة بولاق يقود البشتيلي المقاتلين ضد الغزاة الفرنسيين الذين كانوا يملكون تفوقا ملحوظا في السلاح والرجال جعلهم يهدمون البيوت على رءوس أصحابها، ويقتلون عددا لا يحصى من المصريين، وتتوقف المعارك بعد أن تنفد الذخيرة ويستشهد معظم المقاتلين المصريين، ويتمكن الخائن برتلمي من الحاج مصطفى البشتيلي، فيوجه رجاله لينقضوا على الرجل بالقضبان الحديدية والعصي حتى يحطموا جمجمته ويلقون بجثته بين الجثث الأخرى والحطام.

كان البشتيلي قد فقد زوجته وابنته، ولم يعرف مصير ولده الحسين الذي يشارك في القتال ضد الغزاة المحتلين، وسبق أن فقد خطيب ابنته مصطفى في المعارك. ولكنه أخيرا ينال الشهادة بشرف وكرامة.

أحمد طاهر بك

هذا أيضا رمز من رموز المقاومة لحملة فريزر الإنجليزية على مدينة رشيد، وهو عمدة المدينة ، ومن أعيانها، له ابنان محسن الخامل العابث الذي لا يشارك في الحرب، ويتعلق بفتاة اسمها وداد بنت عاصم بك مخطوبة لابن عمها حسن ولكنها لا تريده، فيخطبها لنفسه ولكنه لا يستطيع إتمام الزفاف بسبب القتال. وإبراهيم الذي يسير في مقدمة المحاربين. يؤمن أحمد طاهر بك أن الناس كلهم إلى الموت والأجيال تتعاقب، حتى قيام الساعة، والحياة كالحلم،

والوجود الحقيقي في العالم الآخر، ومن ثم فهو لا يخاف الموت ويصرّ على المقاومة حتى النصر!

حين يتعرض لأزمات مادية، ويقع تحت ضغط الأرمني الموالي لإنجليز بسبب الديون ليتزوج إبراهيم من ابنته، فإنه لا يفرط في منهج المقاومة، ويفرض شروطه على قطان باشا الأرمني.

وأحمد طاهر بك من شخصيات الرواية المتحولة التي تنتقل من حال إلى حال بمسوغات معقولة. فهو رجل جواد كريم وينفق بغير حساب على الفقراء والمحتاجين، ولا يفعل مثل من سبقوه في تحميل الفلاحين فوق طاقتهم، ولو فعل لاستطاع الحصول على أموال طائلة، ولكنه لم يفعل ذلك. بيد أن أهم تحول في حياته هو ندمه على استدانته من قطان باشا المرابي، وثقته أن الله لن يخذله أو يضيعه.

ولعله لهذا السبب كان بيته مركز المقاومة الشعبي الذي دوّخ الإنجليز الغزاة، وكان ابنه إبراهيم في مقدمة المقاتلين، وجمع حوله قيادات المدينة من أبناء المدينة والمماليك والأتراك وممثلي حكومة محمد علي وغيرهم.

كما كان راعيا لشخصية المقنع وهو شخصية مقاومة تقوم بعمليات استثنائية تنال من العدو وأتباعه الخونة، و«المقنع» لا يعرفه أحد، ولكنه يقوم بأعمال بطولية تزعج الإنجليز وتسبب لهم حرجا عسكريا، و يظهر دائما في وقت الأزمات ويعجب به الناس دون أن يعرفوه، وظل مجهولا حتى أصابه رصاص الإنجليز، فعرف القوم أنه

«إبراهيم بن أحمد طاهر» أحد أبطال المقاومة المعروفين. ويبدو أن الكاتب اصطنع القناع فنيا للتشويق والحيوية.

شخصيات رواية النداء الخالد

أحمد افندي شلبي

هو الشخصية التي تتحرك من خلالها أحداث رواية النداء الخالد التي تعالج مقاومة الإنجليز الغزاة في ثورة 1919، وهو طالب بمدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة) ، يقبض على أبيه بوشاية من العمدة. وأحمد شلبي يرى أن العمدة أداة قذرة في يد الظلم والإنجليز، كما يرى أن خنوعنا واستسلامنا للإنجليز والسلطة والعمدة هو الكارثة، ويحلم بعصيان شعبي كامل، ولكن الشيخ عنبة يخبره أن بحر الدماء سيجري في أنحاء القطر، ويؤمن الشاب أحمد أفندي شلبي بضرورة التضحيات، ويعتقد الشيخ عنبة بالتضحيات المنظمة والمدروسة.. أحمد شلبي نموذج للشباب وحيويته واندفاعه، ويتحول إلى فهم المأساة بطريقة كلية لا من خلال أبيه الذي كان ضحية وشاية العمدة حتى أفرج عنه.

ثم إنه يميل إلى "صابرين" ابنة العمدة الذي ينقم عليه ويشمئز من سلوكه الشائن، ولكنه لا يستطيع أن يفاتح أباه وأمه في الأمر، ويلجأ للشيخ عنبة. فصابرين فتاة على جانب من الجمال والذكاء، وتحاول أن تثبت ولاءها لأبيها وعائلتها، وتلوي شفتيها في اشمئزاز حين تسمع اسم أحمد وتسارع بانتقاده واتهامه بالتكبر والغرور، ولكنها كانت تحرص على رؤيته من بعيد وتطيل النظر إليه، مع أنها مخطوبة لابن

خالها الذي يملك عشرين فدانا، فضلا عن أنه شاب دمث الخلق وتاجر ناجح، ولكن أم صابرين ترى أن أحمد أفضل منه "وكل شيء نصيب"، والمسألة في كل الأحوال سابقة لأوانها.

وتتناثر الأخبار بأن الرئيس الأميركي ويلسون تخلى عن المبادئ التي أعلنها بشأن حرية الشعوب وتقرير مصيرها؛ مما يؤثر على الثوار بشكل ما. ولكن أحمد يشارك مع الثوار في مواصلة الكفاح ولا يعبأ بمضاعفاته، ويكون له دور بارز في إعلان استقلال جمهورية زفتى التي هزت الاحتلال والحكومة جميعا.

يتخرج أحمد شلبي مهندسا مهما، ويتزوج صابرين التي طال انتظارها بسبب أحداث الثورة وتقام الأفراح في كل مكان، ورحلة الطوفان لم تنته فالمفاوضات مع المحتل الإنجليزي لا تؤتي ثمارا.

الشيخ عنبة المتولي

رجل طيب كبير في أفكاره.. كبير في تعبيره، شجاع لا يهاب كلمة الحق. يقولها على منبر المسجد وفي المجالس. قضى فترة ليست بالقصيرة في الجامع الأزهر أيام كان شابا، وعاصر جمال الين الأفغاني والإمام محمد عبده، وهو نموذج لعالم الدين البسيط المحترم الذي يحمل رسالة العلم بشرف واقتدار.

شارك الشيخ عنبة في انتفاضة الشعب المصري أيام ثورة عرابي، وعاد إلى القرية بعد تشتيت العرابيّين ودخول الإنجليز.. وكانت حصيلته من الوعي السياسي أكثر من حصيلته من علوم الشريعة. يملك الحكمة والبلاغة التي اكتسبها بالفطرة ومن آراء جمال الدين

الأفغاني الذي يعبر عنه بلفظ "حبيبي"، وله آراء صائبة فيما يجري في القرية وفي مصر، ويعبر عن المقاومة الشعبية البسيطة التي تواجه الصعاب دون ملل أو خوف " إن الأزمة تلد الهمة" (النداء الخالد، ص،10)، ويرفض الشيخ عنبة تجنيد الشباب في أعمال السخرة لأن من أشعلوا الحرب يجب أن يكونوا وقودها (السابق، ص15) كما يرى أن السلطان حسين كامل هو الأداة القذرة في يد الإنجليز، وليس العمدة، لأنه خان الأمانة ولا يعترض على سلوك الإنجليز، ووزراؤه مثله، ويشبهه من خلال جملة لجمال الدين الأفغاني تقول: "إن هذا السلطان سلّ في رئة الدولة" (الرواية ، ص16).

ومع أن الشيخ عنبة يملك دكانا قليل البضاعة، فقد كان لا يتأخر عن مساعدة المحتاجين والوقوف بجانب المظلومين، ومشاطرة الآخرين في الأفراح والأحزان، وهو يمثل الشخصية الإسلامية التي تجمع بين الفكر والعمل والرؤية والتطبيق، ويحاول مع الأشرار والظالمين والمنحرفين أن يردّهم إلى الصواب ولا ييأس، وقد نجح في تحوّل شخصيات قاسية متعجرفة موالية للسلطة مثل العمدة إلى طريق الصواب والانحياز للناس والشعب، وأخفق مع الخواجة ينّي والقاتل خفاجة، فقد كان كل منهما مصرّا على منهجه، مغرورا بنفسه.

وقد أثر عنبة في الشباب الذي كان يخالطهم ويناقشهم في أمورهم وأمور الوطن، كما كان له تأثيره على أهل القرية بصفة عامة وذلك من خلال متابعة قضاياهم وصعوده المنبر، ومناقشة اهتماماتهم ومشاغلهم. وربما ساعد على ذلك عدم زواجه مع أنه بلغ الخمسين.

خلاف عبد المتجلي

عمدة القرية. قصير نحيل، كأنه يعوض تواضع هيكله بقسوته وسطوته. يخب في قفطانه وجبته السوداء يتبعه شيخ الخفر والخفراء بعد الزج بمنافسه عبد العزيز شلبي والد الطالب أحمد أفندي شلبي، ويمضي في عجرفة واعتداد بالنفس، ولكنه يتحول إلى خادم بائس أمام المأمور والعسكري الإنجليزي، فينفذ ما يُطلب منه لدرجة توفير الخمر من الخواجة يني لممثل الاحتلال الإنجليزي، ويتزلف لرجال الامبراطورية العظام (يقصد الإنجليز)، ويصعق حين يقرر العسكري الإنجليزي تجنيد ابن أخيه الشاب.

ولكن شخصية العمدة تتحول إلى النقيض بعد لقاء عاصف ومثير مع الشيخ عنبة الذي يقنعه بخطأ موقفه وانحراف سلوكه، فينحاز إلى الناس ويتخلى عن ولائه للسلطة والإنجليز ويتحمل تبعة ذلك راضيا.

عبد الغفار الطبال

نموذج يتكر بأشكال مختلفة في بعض روايات نجيب الكيلاني، وهو شاب عليل، درويش أعرج، يتميز بنفس صافية وعبادة دائمة، لا يتخلف عن أداء أية خدمة تطلب منه، يعيش على الصدقات، لكنه

لم يبخل على جائع بلقمة عيش. يتبعه الأطفال، ويقوم بدور المنادي التابع للعمدة. يذيع في القرية بيان العمدة بعدم مغادرة البلد أو الذهاب للغيط لأن المأمور قادم ومعه مندوب السلطة، ومن يخالف "ذنبه على جنبه". ثم يوجد ذات يوم مقتولا في كوخه الحقير. فقد كان يشاع أنه يمتلك ثروة لا بأس بها جمعها من التسول والصدقات.

خفاجة

رجل غريب الأطوار، قلما يجهله أحد في القرية، اسمه على كل لسان، قصير ماكر، له عينا صقر، وخفة ثعلب، وبطش نمر، ونعومة ثعبان، في ظاهره فلاح كآلاف الفلاحين، له نظرات لا يستطيع أحد أن يواجهها، ومع ذلك فهو يبتسم دائما. يصفه الشيخ عنبة بقوله: "شيطان مريد، ذو دهاء إنجليزي".

يعرفه الناس بالقاتل المحترف، يستغله المتخاصمون في القضاء بعضهم على بعض، ومن يدفع أكثر ينال رضاه.. تدبيره محكم للغاية، اضطر العمدة لمصادقته وابتعد عنه الأهالي اتقاء لأذاه، وتجنبا لغدره، وإذا طلب من أحد مالا فلابد من دفعه، وهو عادة بذكائه وخبرته لا يطلب من غير القادرين. إنه يتصدى للأقوياء فقط. ولكنه يقتل الدرويش عبد الغفار الطبال بحثا عن نقود لم يجدها، وعند محاولته قتل العمدة بتحريض من الخواجة تتعطل غدارته؛ فيجهز عليه شيخ الخفراء.

شخصيات رواية "أرض الأنبياء"

اسماعيل ريحان

الشيخ إسماعيل ريحان من أبرز شخصيات رواية "أرض الأنبياء"، وهو فلسطيني هجّره اليهود الغزاة من بلدته حيفا. له لحية بيضاء ووجه أشقر. يستيقظ على رائحة الدم تصنعها نجمة داود، ويهرع إلى نسخة من المصحف الشريف يضمها إلى صدره وهو يقول: "نسيناك يا إلهي فأنسيتنا أنفسنا.. وشغلتنا الدنيا ثم غدرت بنا.. وتصاممنا عن ندائك فسلطت علينا أعداءنا، اللهم لا ملجأ منك إلا إليك.. أتترك أرضنا الطاهرة. أرض الأنبياء.. يلوثها الكفرة والمعتدون".
(أرض الأنبياء، ص 14)

تتكون أسرة الشيخ ريحان من: وليد في الخامسة، ضحى في السابعة عشرة، زوجة مريضة. خادمة عجوز تربو على الخمسين تعد واحدا من الأسرة تنازلت عن أجرها بعد اللجوء والتشرد. استطاع الشيخ إسماعيل أن يسهم مع المتطوعين بحراسة الذخيرة كما يقوم مع آخرين بتوفير السلاح والطعام والأدوية من أماكن عديدة وينهض بحماية السيارة المكدسة بالمؤن والذخيرة بوساطة مدفع تدرب على استخدامه. لقد تغير الشيخ إسماعيل بعد التهجير، فأصبح يتحرك دون أن يشعر بآلام الشيخوخة ويجد متعة في العمل والحراسة من أجل النصر على الأعداء. ويستشهد في إحدى العمليات بعد أن أبلى بلاء حسنا، وأسهم في حماية سيارات المؤن والذخيرة بفهمه لواجباته واستخدامه الجيد للسلاح.

وكان بيت الشيخ درويش يضم مجموعة من الشباب تأثروا بالشيخ، من بينهم خميس درويش وكان يسكن في الدور الثاني، وهو مدرس شاب بالمدرسة الابتدائية القريبة. يخبر الشيخ أن الإنجليز سلموا مفاتيح المدينة للعصابات الصهيونية والأحياء العربية تشتعل فيها النيران، واليهود المسلحون ينقضون على العرب ويغتالونهم بلا رحمة.. والبقاء هنا معناه الانتحار حيث لا سلاح ولا تنظيم، ويجب المغادرة فورا!

وفي رحلة التهجير يقوم خميس بدور مهم في مواساة المنكوبين وتضميد جراح المصابين، وحمل بعض الأطفال على كتفه والمشاركة مع الشباب في خدمة المهجرين. تصفه الرواية بأنه أكثر الشبان حيوية ونشاطا، مستطيل الوجه، يميل وجهه إلى السمرة، وشعره مرسل مصفف فاحم اللون، وعيناه سوداوان يعلوهما حاجبان غزيران، وهو ما يؤهله ليكون عضوا بارزا في المقاومة والتدريب على حمل السلاح (أرض الأنبياء، ص15 وما بعدها)

وخميس درويش متدين يحرص على الصلاة وأدائها في جماعة، ويؤمن ألا شيء هناك اسمه الفناء بالنسبة للإنسان المؤمن، وما الموت إلا قنطرة إلى عالم زاهي الربوع، قدسي النفحات، خالد لا يفنى. وهو ما يفسر تضحيته في الجهاد وتفانيه في سبيل وطنه، وأمله في غد أفضل.

يتعلق خميس بفتاة اسمها ضحى من بين المهجرين، ولكنه يخشى أن تذهب مع الشتات، ويضيع حلمه بالاقتران بها، ولكنه يتغلب على هواجسه ويعتصم بعقيدته الأصيلة التي تعني أن نكبة الوطن الكبرى فوق آماله وعواطفه الفردية.

ومن سكان بيت الشيخ ريحان أيضا ميمون وأسرته. ميمون شاب يرفض الفرار من المنزل ويأخذ خنجرا ليقاتل به مسلحي العصابات اليهودية، ولكنهم يطلقون عليه الرصاص ويردونه قتيلا ويطلقون صفارات الإنذار طلبا للنجدة، ويقتحمون البيت ويجهزون على بقية أسرة ميمون الأب والأم والأطفال.

نادر سليمان

من الشخصيات التي تمثل الضعف الإنساني، وتبيع كل شيء من أجل السلامة والمطامع الدنيوية، ويرضى بالعمالة للعدو والتجسس على رفاق الجهاد ليستعيد مكانة أسرته وأمواله في حيفا، ولكن النتيجة كانت فاجعة بالنسبة له ولأهله.

ونادر ذو طابع خاص في المجموعة المقاتلة. مفرط في النحافة فارع العود، بطيء الحركة، كسول إلى حد ما، يغطي كسله بالنكات والمرح، ولعل ذلك نتيجة لنشأته في بيئة مرفهة فهو ابن لثري من أثرياء حيفا الكبار، ورأى قائده أن المعركة كفيلة بصقله وتغيير حياته إلى الأفضل، ولكن القائد كان متضايقا بعض الشيء لأنه لا يأتي الصلاة إلا قليلا، فالمجموعة حريصة على إقامة الشعائر، وسلوك نادر غير مقبول. صالح بدران لا يرتاح إليه كثيرا منذ وصلت

نجلاء لتشاركهم في القتال. فهو يحاول أن يقترب منها كثيرا بمناسبة وبدون مناسبة ويناقشها في أمور تافهة، ويطيل النقاش دون حاجة ظاهرة، ولكن صالحا أرغم نفسه على قبول الوضع عسى أن يتغير!

في نوبة من نوبات الحراسة الواجبة عليه نام ولم يعبأ بإيقاظ صالح له مما أثار حنق الأخير، فادعى أن رأسه بها صداع ولا يستطيع القيام بنوبته، ثم إنه يرفض مهمة كلفه بها القائد لمواجهة هجوم من مقاتلي الغزو اليهودي، وبقي وحده جالسا على الرمل بينما الموقف يتأزم والرصاص يئز في الخارج ورجال المجموعة في خطر كبير. يتسلل نادر إلى نجلاء ويطلب منها أن تكف عن الضرب، ويخبرها أننا ننتحر. وأن الأعداء سيحتلون الموقع مهما قاومنا وسنقتل جيعا، والفرصة المتاحة أن نعامل بوصفنا أسرى، ولكنها تهدده بالقتل إذا لم يعد إلى مكانه وتطلب منه أن يضرب "يا أجبن من عرفت" .. وتنتهي المواجهة بقتل بعض المهاجمين اليهود وأسر بعضهم وفقد اثنين من كتيبة عمر بن الخطاب وجرح القائد وخميس جراحا ليست خطيرة.

يطأطئ نادر رأسه بعد أن امتلأت عيناه بالدموع، عقب أن قالت له نجلاء: "لقد انتصرنا .. الأسرى هم لا نحن" (راجع: السابق ، ص 121-134)

يقوم الأسرى اليهود بكشف عمالة نادر سليمان وخيانته تكفيرا عن خطيئتهم وافتداء أنفسهم، فقد كان يحلم بعودة ممتلكات أبيه ويسترد ضياعه ويبقى ثريا كما كان قبل الاحتلال. ويشير القائد

اليهودي الأسير إلى أن "نادر" معه جهاز لاسلكي صغير سلمه له بنفسه، وأن والده يعيش مع اليهود في حيفا معززا مكرما، وابنه يدفع الخيانة ثمنا لثراء أسرته. ويعلل سبب خيانته أن المقاومة تحارب إنجلترا وفرنسا وأميركا، فتبصق نجلاء في وجهه وتقول له:

- " نحن أصحاب الحق يا وغد". (نفسه، ص 137)

ويتم إيداعه السجن ثم الحكم عليه بالإعدام جزاء خيانته. مخلفا وراءه رنة أسى في صفوف المجموعة.

الفتاة نجلاء

يقتحم جنود العدو الصهيوني بيت أسرتها ويجدها الجنرال الصهيوني أمامه بعد أن فتحت الباب، فينقض عليها ويسلبها شرفها. فيضطر أخوها إلى الدفاع عنها وقتل أحد المهاجمين الذين تبعوا الجنرال، فيقوم الجنود اليهود بقتل أسرتها ويصيبون أباها إصابة كادت تقضي عليه ولكنه ينجو من الموت ويضطر للهجرة مع المهجرين.

ويقوم الضابط بتخديرها واغتصابها ويبقيها أسيرة. وتعيش فترة قاسية تذرف فيها الدموع وتمتلئ بالأحزان والآلام من أجل أسرتها ووطنها، ولكنها تشعر بشيء من الارتياح عندما تعلم أن هناك جيوبا للمقاومة العربية في حيفا وخارجها. وتخطط للهرب من الأسر بعد أن تحررت من الخوف، فتفكر بثبات وتغافل جندي الحراسة وتهوي على رأسه بحجر وتظل تضربه به حتى يتحول إلى جثة هامدة وتأخذ سلاحه وذخيرته وتزحف تحت سلك معسكر الأسيرات حتى تصير حرة

بين شوارع حيفا التي تسترها من ملاحقة القتلة، وتجد نفسها بعد حين في بيارة " شعيب بيك" المليئة بأشجار الفاكهة، ثم تواصل الركض حتى تبعد عن حيفا بحوالي سبعة كيلو مترات لتشعر بالأمان الجزئي وتفكر في عمل شيء ذي قيمة. (انظر: أرض الأنبياء، ص 42- 48) ويقودها المسير إلى مجموعة مقاومة (كتيبة عمر بن الخطاب) وهي تحمل السلاح ويتعرف عليها خميس درويش فقد كان يسكن في البيت الذي تقيم به أسرتها. وهي بنت الرجل الذي قتل الصهاينة أسرته وظنوه ميتا بعد أن أصابوه فتركوه في دمائه وانسحبوا. عرفت من المجموعة أن أباها حي يرزق، ففرحت، وإن ظلت حزينة على بقية الأسرة التي لم ينج منها أحد. وتتقدم إلى قائد المجموعة لتكون ضمن رجاله، وتواجه معارضة أن تكون هناك امرأة مع الرجال في المقاومة، ولكن قائد المجموعة يتولى إقناع المعارضين بالمنطق والعقل ويتقبلون وجودها معهم. وتقوم نجلاء بواجباتها العسكرية في إطار الالتزام الإسلامي، والخصوصية النسوية، وتشارك في بعض الهجمات على العدو بما فيها من مصاعب ومشاق.

والمفارقة أن نجلاء تلتقي بالضابط اليهودي "ليفي" الذي اغتصبها في حيفا وحاولت أن تقتله بمسدسها ولكن القائد يمنعها ويواجهه بالقول:" كنت يا ليفي سافلا.. لكننا لن نجاريك في سفالتك، إننا أمة تحكمها قيم ومبادئ.." ويعترف ليفي بحقارته، وينقله القائد إلى المستشفى ويعين حارسا عليه حتى لا يؤذيه أحد، ويعده بمحاكمة عادلة بعد أن يشفى ولكن القدر كان أسبق، فقد مات متأثر بجراحه (أرض الأنبياء، ص 272 وما بعدها)

ويتعلق قلب نجلاء بصالح أحمد بدران الطالب المصري الجامعي، الذي انضم إلى المتطوعين المسافرين للدفاع عن فلسطين، وكان أبوه مفتش اللغة العربية بالقاهرة يعارض سفره لأنه وحيده وصغير على القتال، ولكن الفتى يفحمه حين يبلغه أنه تدرب على استعمال القنابل والبرن والمصارعة اليابانية وحرب العصابات، ويدرك الرجل أن ابنه لا يهزل وأن قوة كاسحة من الإيمان والعقيدة الراسخة وحماسة الشباب تحركه في عنف نحو الأرض المقدسة. فيلتحق بكتيبة عمر بن الخطاب، ويبلى بلاء حسنا، ولا يستريح لنادر الذي تتم اكتشاف عمالته للعدو.

ضحى

فتاة فلسطينية مهجرة مع أبيها، تنضم إلى هيئة التمريض في المركز الطبي، وتتميز بالبشاشة والإخلاص والمثابرة والتحمل، وهي محبوبة من المرضى والعاملين في المركز. وهي فتاة مثالية ترفض الاعوجاج وتتصدى له على مستوى الأشخاص أو المجتمع مثلما رفضت التقسيم العنصري أو الطبقي للناس. وتميل إلى صالح بدران، وتفقد أباها الشيخ إسماعيل ريحان في إحدى عمليات جلب المؤن والسلاح. كما تبشر والد نجلاء بزيارة ابنته له بعد فراق طويل وتعيد إليه شيئا من الأمل الذي فقده بعد قتل اليهود لأسرته " أورقت حياتي من جديد". (أرض الأنبياء، ص240)

***

شخصيات غير اسلامية

الشخصيات غير الإسلامية في روايات الواقعية التاريخية تكون غالبا أجنبية. ليست من أبناء العرب المسلمين، ومعظم هذه الشخصيات إن لم يكن كلها مسطحة، أو جاهزة، لأنها تضم قادة وجنودا يمارسون أفعالا وأعمالا تحقق لهم السيطرة على ضحاياهم. ونرى هذه الشخصيات في الأغلب الأعم من الخارج، ولا نراها من الداخل إلا نادرا، لأنها تؤدي دورا تفرضه الأحداث والسياق السردي.

بعض هذه الشخصيات استوطن في مصر، وتعرّب، وصار مثل أبناء البلد تماما، ولكن داخله النفسي لم يتغير، فهو مع الغزاة قلبا ومشاعر، أو يحلم بالعودة إلى بلاده بعد تحريرها، وفي كل الأحوال، تبدو من الناحية الفنية ثرية إلى حد ما، حيث تتفاعل مع الأحداث، ويكشف السرد أبعادها المختلفة، وتأثيرها في الواقع الاجتماعي وسلوك الشخصيات الأخرى.

وغالبا ما تعيش هذه الشخصية المستوطِنة في الريف المصري، حيث تذهب إليه قادمة من بلادها فقيرة لا تملك شيئا، فتعمل في تجارة البضائع البسيطة، ولا تلبث مع التسامح وامتداد الفضاء أمامها أن تتمكن بذكائها من تنمية التجارة البسيطة إلى تجارة كبرى تتضمن بيع البضائع الأساسية والخمور في أغلب الأحيان، وممتلكات عقارية وأراض زراعية، وهي تجارة يصنعها الربا الفاحش الذي يفرضونه في تعاملهم على الفقراء البائسين، والأغنياء السذج من أبناء القرية.

وتتحول الشخصية إلى مركز قوة في المكان، وعن طريق المال والخمر يتمكن المستوطن من توطيد علاقاته بالأقوياء في القرية وخارجها، ويستقطب المسئولين التنفيذين والأعيان المؤثرين.. وهكذا يتحول المستوطن إلى صاحب البلد، أما ابنها الحقيقي فيعيش كأنه غريب بسبب فقره وضعفه وقلة حيلته!

ولأمر ما، لعله المعاناة التي مرت بها أسرة الكاتب في القرية، أو تأثره العميق وهو يشاهد سلوك هذه الشخصية واستشعار وطأتها على الفلاحين، فيعبر عنها بصور مختلفة في عديد من رواياته الأخرى، فضلا عن روايات الواقعية التاريخية.

ولعل أهم شخصيتين في هذا المجال شخصية فرط الرمان(برتلمي) في رواية "مواكب الأحرار" التي تعالج فكرة المقاومة للحملة الفرنسية على مصر، وقطان الأرمني في رواية "طلائع الفجر" التي تتناول حملة فريزر الإنجليزية على رشيد عام 1807م.

والشخصيتان حيوتان من الناحية الفنية، يقدمهما الكاتب من الداخل والخارج إلى حد كبير، ويرسم ملامحهما بما يخدم البناء الروائي.. وفيما يلي إشارة إلى كل من الشخصيتين في الإطار السردي..

فرط الرمان

يقوم برتلمي (فرط الرمان) في رواية "مواكب الأحرار" بدور خياني ضد الناس الذين عاش بينهم وعرفهم وقدموا له المودة طوال إقامته بينهم، مذ كان له دكان يبيع فيه القارورات الزجاجية وبعض

المساحيق الكيماوية والنباتات والبذور المطحونة، حتى صارت له تجارة كبيرة وعدد كبير من الزبائن.

فرط الرمان اسم أطلقه عليه الناس بسبب احمرار وجهه، مغرم بتتبع عوراتهم، والبحث عن خباياهم، ولديه كراسة ضخمة يطلق عليها "الكتاب الأسود" يسجل فيها كل شيء عنهم. ويلجأ إليها عندما تثور فتنة من الفتن، لأنه لا يفتأ يخطط ويدبر ليقضي على منافسيه في العمل الحكومي أو التجارة. وكل هذا لم يكن خافيا على ابنته وإن خفي على من يعرفونه.

يقدم نفسه للغزاة الفرنسيين ويعمل لحسابهم، ويكافئونه بتعيينه مسئولا عن المخابرات ووكيلا للمحافظ، ويطلقون يده في اعتقال المصريين وتعذيبهم وإعدامهم، ويقوده حقده على المصريين إلى أن يقود الجنرال ديبوي إلى حتفه بسبب قتله للمصريين وإطلاق النار على الأبرياء، وإذلال الشعب ونهب ممتلكاته وثرواته.

مع مجيء الغزاة وانتصارهم وانحيازه إليهم؛ ينتقل برتلمي من وضع بسيط إلى سكنى القصور التي هرب منها المماليك، ويمتلك أموالا كثيرة من منهوبات الهاربين وأبناء الشعب، ويدمن الخمر، ويتجاهل زوجته المريضة ولا يبالي بها، ويفرط في شرف ابنته التي يقدمها إلى الجنرال ديبوي الذي اعتدي عليها وهي في حالة سكر. بعد أن حرمها من الزواج من المملوكي إبراهيم أغا الذي كانت تحبه بإخلاص، وترى فيه صورة للرجل صاحب الأخلاق والمبادئ والقيم التي ترجوها فيمن تحب. ثم يستجلب في بيته عاهرة تعيش خليلة له دون زواج.

وتبدو قسوته على ابنته والشعب الذي تربى فيه لا حد لها، وخاصة بعد انهزام المقاومة، وقتله للحاج مصطفى البشتيلي بطريقة شائنة ووحشية. لقد أصبح شخصية رهيبة تشيع الرعب والكراهية في كل الأنحاء، ونال من المجد الملوث ما لم يكن يحلم به قط.
وتلفت هيلدا(ابنته) الجميلة (في الثامنة عشرة) أنظار العامة، وكانوا يهمسون حين تخطر في الشارع :" يا بنت فرط الرمان يا حلوة.. " وتختلف هيلدا عن أبيها إلى حد كبير، فهي تبدو فتاة فطرية طيبة ذات ضمير حي، تُراجع أباها في كثير من سلوكياته الخيانية الشاذة، مع أنه يحبها وتملك عليه فؤاده لأنها ابنته الوحيدة وكان لا يرد لها طلبا مما جعلها مدللة جدا. إنها ترفض العدوان من جانب فرنسا على الشعب المصري، وترى في قتل المصرين جريمة لا مبرر لها. وعاهدت نفسها أن تفتح قلبها وعقلها لتلقي الحقيقة.
تفقد (هيلدا) شرفها في لحظة عبث وسكر مع الجنرال ديبوي الذي كانت تزوره في بيته، فتسبب لها هذه الحادثة جرحا عميقا لا يندمل، ولكن فرط الرمان لا يبالي، ويبحث عن الانتقام من ديبوي بطريقة خادعة، ويعمل على إحلال الجندي مايوس مكان ديبوي ليشغل ابنته، ويلهيها عن المملوكي إبراهيم آغا .
لقد أبدع الكاتب في الكشف عن شخصية فرط الرمان الديوث، وتصوير العلاقة بين الأب الديوث والابنة التي ضيعها من خلال انحرافها وتعلقها بالجنرال والجندي، وتمزقها بين عاطفتها نحو إبراهيم أغا من ناحية، والجنرال والجندي من ناحية أخرى، كما

أوضح طبيعته الشخصية الانتهازية الخائنة التي تبحث عن مجد زائف وتستبيح في سبيل ذلك كل شيء حتى شرف ابنته..

بيد أن العاصفة تهزه، حين ينسحب نابليون وجنوده من مصر، ويسحبون وراءهم ذيول العار، فيعيش فرط الرمان في ذعر ينتظر القصاص الشعبي العادل.

قطان الأرمني

وفرط الرمان يشبه قطان الأرمني الذي عاش في رشيد واحتضنه أهلها، واغتنى بينهم. ويهتم الكيلاني في رواية "طلائع الفجر" بتصوير شخصية قطان في إطار الأحداث التي تبرز مقاومة الأهالي للغزاة وخيانة قطان لهم .

ترك قطان بلاده أرمينيا بعد الاضطرابات السياسية والعسكرية واستوطن في رشيد، و اعتنق الإسلام ليضع حدا للمتاعب التي عاشها، ونال الجنسية المصرية واستطاع أن يكون ثروة كبيرة من التجارة، إلى جانب أنه كان من كبار المرابين، ولذا سخط عليه كثير من المواطنين، وحقدوا عليه مما جعله يعيش في شبه عزلة بقصره الكبير في الطرف الشرقي للمدينة.

وهو جاسوس للإنجليز ويسوغ خيانته لأهل رشيد الذين استضافوه وأفسحوا له مكانا بينهم ليغتني ويعيش في بحبوحة، بأنه يعمل من أجل استقلال أرمينيا، ويتصور أن الإنجليز سوف يساعدونه على تحقيق حلمه بوعود وعدوها إياه.

ولكنه يشعر أنه بلا هوية، ولا ينتمي إلا لذاته، كل ما يريده أن يعيش ثريا آمنا، أن ترفل ابنته في أحضان السعادة. ابنته الجميلة اسمها (روز) في الثامنة عشرة من عمرها تزهو بجمالها وتجلس وسط القصر كوردة ندية فياضة بالعطر بالحيوية والأنوثة الساحرة..

وطلب منه الإنجليز أن تقوم ابنته روز بالحصول على الأسرار من بيت أحمد طاهر بك عن طريق إبراهيم ابنه الذي يمثل دورا مهما في قيادة المقاومة الشعبية حتى لو اضطر لتزويج الفتاة له. وسيحقق له الزواج عدة فوائد: أولاها إرضاء الإنجليز وتحقيق الآمال التي منّوه بها في تحرير أرمينيا، وثانيها تقوية أواصر العلاقة التي ستربط بينه وبين أحمد طاهر بك بالنسب، ودعم موقفه بين أهل رشيد وحمايته من الحاقدين والكارهين، وثالثها إشباع رغبة ابنته التي كبرت وتلبية نداء الشباب الذي يصرخ في أعماقها.

ولكن روز بفطرتها ترفض ما يخطط له أبوها ولا تستريح إليه وترى أنه بذلك يقتلها (طلائع الفجر، ص73) كما أنها تنظر إلى الموضوع نظرة خلقية بحتة، وليس من منظور العاشقة كما توهم السفير البريطاني بتروتشي.

ولكن الأقدار تفاجئ قطان بما لم يكن في الحسبان. فأهل رشيد ينتصرون، وينتحر قطان باشا بعد كشف خيانته، واندحار الحملة.

فريزر

جنرال، قائد الحملة الإنجليزية على مصر، ينهزم في رشيد، ومن حوله قادة أركان حربه، وهو عنصري متغطرس؛ يرى نفسه عبقريا لا يقل عن نابليون بل أفضل منه، ويرى في المصريين مجموعة من الحفاة العراة لا يعرفون شيئا عن الحرب الحديثة ولا يملكون من السلاح إلا أردأه، وهم حمقى يلقون بأنفسهم بين مخالب الموت طواعية. يحلم باحتلال مصر إلى الأبد، وضم ممتلكات الشرق إلى بريطانيا. وأنه سيضع حدا للحروب الصليبية ويمسح العار الذي ألحقه بهم صلاح الدين الأيوبي.

ولكن أحد قادته سير ولنجتون يسعى لأن يكون شخصية مستقلة عنه، يفكر بما يوقع جنوده في مآزق لا يخرجون منها، ويفضل الانسحاب أحيانا على الهزيمة. ويؤمن أن الحرب تفكير قبل أن تكون صراعا بالسلاح.

بعد الهزيمة ينسحب فريزر وجنوده، ويثبت المصريون الحفاة العراة أنهم كثر شرفا منه وبطولة، ويدحضون كل مزاعمه على أرض المعركة.

رجال الحملة الفرنسية

يمثل الجنرال ديبوي الغطرسة الفرنسية الاحتلالية، فهو يؤمن مثل بقية الغزاة بالقسوة والدم، والعنصرية، والاستهانة بحق الشعوب وحريتها وكرامتها واستقلالها، ويلقى حتفه وسط الشعب المصري الذي يتمرد على طغيانه وجبروته بعد أن قاده برتلمي ليواجه الناس

في خيلاء واستعلاء ورغبة دموية في تصفية من يعارضونه ويرفضون الاحتلال.

أما حارس ديبوي، الجندي مالوس، فيقع في حب هيلدا ابنة (برتلمي) فرط الرمان، بعد أن سلبها ديبوي أعز ما تملك، وقد استخدمه برتلمي ليملأ الفراغ لديها بعد ديبوي، ولكن العلاقة تتحول إلى حب من جانبه وتسلية من جانبها إلى أن يظهر إبراهيم بعد إشاعة موته فتتغير الأحوال. ويوقع مالوس بين إبراهيم وهيلدا، الذي يفر من القصر إلى الأزهر ساخطا على الفرنسيين وتصرفاتهم الوحشية. ويقرر الذهاب إلى الصعيد ليحاربهم مع مراد بك حتى تحين الفرصة لقتل برتلمي.

ويبحث الجنرال كليبر قائد الحملة عن الجلاء وتوقيع الصلح حفاظا على دماء جنوده بعد اشتداد المقاومة الشعبية، ويوقع اتفاقا مع الأتراك يتم نقضه، فيواصل القتال، ويهزم الجيش العثماني في عين شمس ويأسر وزيرا عثمانيا ويعود لتشتد حملته على المصريين المقاومين. ولكن طالبا أزهريا من حلب يقتله.

***

الفصل الخامس
الشخصيات اليهودية

تكاد الشخصيات اليهودية في روايات الواقعية التاريخية عند نجيب الكيلاني تهيمن على بقية الشخصيات الإسلامية وغيرها، لأنها مفعمة بالشر، والكيد، والحركة التي لا تهمد في سبيل تحقيق أهدافها الشيطانية، وإن بدا أن بعض الشخصيات اليهودية القليلة تجنح إلى الفطرة والحق، وهو ما يحقق قوله تعالي :" لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ"(آل عمران: 113-114)

لقد صارت الشخصية اليهودية في الواقع الإنساني، فضلا عن السياق الفني ظاهرة عالمية من البشر. إنها كائن فريد لا يخضع للتفاعل الاجتماعي. ولا ينتمي إلى الأمة التي تعيش بين ظهرانيها. يرفض الدمج والاستيعاب في المجتمعات الإنسانية حرصا على خصوصية غامضة، وقد فطرت الشخصية اليهودية على الشر والرغبة في التدمير وتخريب الأخلاق وإفساد النفوس، حتى تزداد الشعوب ضعفا ووهنا، بينما يزداد اليهود قوة، وذلك بهدف السيطرة على العالم. (انظر: عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2000، ص 11-12).

وتطبيقات الفلسفة اليهودية الشريرة أوضح من أن تفصّل، فهي قائمة في اغتصاب الأرض المقدسة والاعتداء على الشعوب العربية، والمذابح التي صنعوها فوق فلسطين وغيرها، وراجع ما جرى في مذابح دير ياسين وكفر قاسم وقبية وغيرها، لترى الطبيعة النكدة للشخصية اليهودية حين تملك السلاح وتتحرك في الظلام وضوء النهار لتسفك الدماء البريئة ولا تستثني شيخا أو طفلا أو امرأة، ولا تكتفي بالقتل بل تمعن في التعذيب وبقر بطون الحبالى وتقطيع الأوصال وتشويه الأجساد حتى يصعب التعرف عليها، ثم إنها تغتصب ما ليس لها من أرض ومال وثروات ومواقع وتسعى إلى القوة بكل جهد ممكن لتنفذ هذه الفلسفة الدموية الوحشية. (انظر تفاصيل تلك المذابح: عبد الله التل، خطر اليهودية العالمية، دار القلم، القاهرة، 1964، ص56).

واليهودي بصفة عامة يتحالف مع الأقوياء لتحقيق مصالحه الخاصة، وإن كان معنيا بتحطيم مقومات الأمم الاقتصادية والحضارية، والعقدية.. وهذا ما قامت عليه دولتهم وحضارتهم في العالم. (انظرنماذج من تحالف اليهود مع الأقوياء: نعمان السامرائي، اليهود والتحالف مع الأقوياء، كتاب الأمة32، الدوحة، 1412 هـ = 1992م- الصهيونية والعنف، ترجمة: حسين طنطاوي، مطبوعات دار الشعب، القاهرة، د.ت، ص234)

اليهودي في الآداب الغربية

وقد سبقت الآداب الأوربية أدبنا العربي في تناول الشخصية اليهودية بإفاضة وإسهاب، ويرصد رمسيس عوض جانبا مهما من رؤية الغرب الأدبية لليهودي في كتابه "صورة اليهودي في الأدب الإنجليزي"، وإن كان يطرح ذلك تحت ما يسميه مظاهر العداء للسامية في نهاية القرون الوسطى.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك حكاية الراهبة للشاعر جيوفر تشوسر (1340- 1400م)، وهي إحدى روايات كانتربري التي ألفها الشاعر المذكور، وتحكي عن جماعة من اليهود عاشت في مدينة مسيحية درج حاكمها على اقتراض المال منهم، وكان في طرف الشارع الذي يسكنه اليهود مدرسة لتعليم الأطفال المسيحيين، وكان من بينهم تلميذ صغير السن للغاية بدأ يفك الخط، وسمع زملاءه الأكبر سنا يرتلون لمريم العذراء– أم المسيح– واعتاد الطفل سماع ترتيل زملائه الأكبر سنا، واستطاع أن يحفظ البيت الأول بسرعة من إحدى الصلوات دون أن يدرك معناه، فتساءل عن معنى الترنيمة وأسعده أن يعلم أنها تدور حول السيدة العذراء. وصمم الطفل على أن يتعلم الترنيمة كلها لينشدها تبجيلا للعذراء. وكان يرفع عقيرته بإنشاد الترنيمة في شارع اليهود دون خوف أو وجل. وهمس إبليس المتمثل في هيئة حيّة في آذان اليهود قائلا لهم: إنه من العار عليهم أن يقبلوا غناء الصغير الذي أراد الإساءة إليهم والتحقير من شأنهم. فأخذوا يتآمرون على الطفل، واستأجروا قاتلا ذبحه وألقى بجثته في حفرة.

انتظرت الأم طفلها الذي لم يأت، فراحت تبحث عنه، وتطرق أبواب اليهود في الشارع الذي كان يسير فيه، فأنكروا معرفتهم به. وأنار المسيح الطريق أمامها ووجه خطاها إلى الحارة التي ذبح فيها الطفل، والحفرة التي دفن فيها.

عندما اقتربت الأم من المكان سمعت صوت ابنها ينشد ترنيمة "أم المخلص"، واجتمع الشعب من حولها وهم في دهشة من أمرهم، واستدعوا قسيس المدينة، وما إن وقعت أنظاره على الطفل الذي بعث حيا حتى أمر بتكبيل اليهود جميعا وحبسهم وجرهم على الأرض بالخيول قبل القيام بشنقهم.

أخذ المسيحيون الطفل إلى دير قريب. وأثناء القداس أنشد ترنيمة "أم المخلص" بصوت مرتفع واضح. وقال الطفل لرئيس الدير: إن المسيح ظهر وأمره بإنشاد هذه الترنيمة، وفي الوقت نفسه قامت العذراء مريم بوضع حبة من القمح فوق لسانه، وصاح الصبي: "يجب أن أغني بدافع الحب لها حتى تنزعوا حبة القمح من فوق لساني". وقام الراهب بنزع حبة القمح فأسلم الطفل الروح بسلام. وفيما بعد بنى الشعبُ قبرا من الرخام تخليدا لذكرى الطفل الشهيد. (انظر: رمسيس عوض، صورة اليهودي في الأدب الإنجليزي، دار الهلال، القاهرة،1999م، ص 5-7).

ويرى بعض النقاد أن حكاية الراهبة تنم عن كراهية جلية لليهود حيث يصف تشوسر اليهود بالملاعين في أكثر من موضع. كما يصف بعض الدارسين الغربيين أن هذه الحكاية تتضمن قدرا كبيرا مزعجا

من معاداة السامية وهو ما لا يتماشى مع ما عرف من تشوسر من رقة وإنسانية، ويحاول بعضهم التماس العذر لتشوسر بالقول إن معاداة السامية كانت سمة من سمات أوربة في القرون الوسطى، وإن الراهبة تعبر عن المشاعر السائدة في عصرها، وإنها لا تكره اليهود بقدر ما تشارك أبناء عصرها تحيزاتهم، وإن معاداة السامية في الحكاية شيء طبيعي"(السابق،7-8).

ويعزو الدارسون عداوة الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى لليهود منذ القرن الأول الميلادي إلى رفضهم الاعتراف بأن المسيح هو مخلص العالم. (نفسه، ص9).

وهذا حكم غير دقيق، لأن ما ترسب في وجدان أتباع الكنيسة منذ التآمر على المسيح عليه السلام، وما نتج عن سلوكهم الاجتماعي الانعزالي وما يصاحبه من مكر وخيانة وغش وتآمر، لا يمكن تجاوزه ببساطة في الآداب الغربية، وهو ما سوف نراه يظهر ساطعا في روايات عصر النهضة وما بعده.

ويذكر كل كتاب المسرح الإنجليزي حتى 1642 عام إغلاق المسارح على أيدي المتزمتين الدينيين البيوريتانيين(المتطهرين)، إشارات الطبيب اليهودي لوبيز الذي أعدم عام 1594 بتهمة دس السم لقتل الملكة إليزابيث.

وقد مر اليهود بمراحل متفاوتة أبغضهم فيها الأدب الأوربي بصفة عامة والإنجليزي بصفة خاصة، ومراحل أخرى حاولوا فيها تغيير الصورة النمطية السلبية، وساعد قيام الثورات وخاصة الفرنسية

على التخفيف من هذه الصورة النمطية ووصل الأمر برئيس الوزراء البريطاني بنيامين دزرائيلي (1804-1881) أن يبالغ في تمجيد اليهود. ونحا بعض الأدباء إلى تصوير اليهودي بوصفه إنسانا عاديا مثل بقية الناس يحمل صفات الخير وصفات الشر، وفي نهاية القرن التاسع عشر كان هناك إنتاج ضخم من الروايات اليهودية التي كتبها يهود بعد تحريرهم ومنحهم حقوقهم النيابية والانتخابية، ولكن ذلك لم يحل مشكلاتهم كلها فضلا عن أنهم يختلفون فيما بينهم في تقديرهم لليهودي وقيمته، فمنهم من يعيب على بني جلدته شدة ماديته ومنهم من يركز على وجود القيم الروحية بين اليهود حتى لدي أكثرهم فقرا، ومنهم من رأى الخلاص في الدين اليهودي التقليدي الموروث، ومنهم من رأي الخلاص في الدعوة الصهيونية، ومع كل هذه الاختلافات فإنهم يسعون إلى إقامة جسور تفاهم بينهم وبين العالم. (انظر السابق، 210). مع الاحتفاظ بموروثهم الفكري والسلوكي الشرير طبعا.

وهناك نماذج كثيرة من اليهودي المنحرف الشرير في الأعمال الأدبية الغربية، ومنها:

شيلوك اليهودي في مسرحية "تاجر البندقية" الشهيرة لشكسبير، وفيجي اليهودي المجرم في رواية "أوليفر تويست" لشارلز ديكنز، وجيد في "يوميات كاتب" لديستويفسكي. (انظر: اليد الخفية،45 وما بعدها).

في أوائل القرن العشرين يتسلل ستيفان زفايج – نمساوي من أصل يهودي- إلى داخل النفسية اليهودية ويكشف ميلها إلى الخداع والمخاتلة والكسب المادي بكل السبل، ومن خلال شخصية الأب في روايته " حذار من الشفقة " نجد السيد " كانيتز " الذي تحول إلى " الهر فون كيكسفايا " وصار من كبار الشخصيات في المنطقة التي يعيش فيها، يمارس ألوانا من الحيل والخداع حتى دخل نادي الأغنياء. كان الرجل يعمل بالسمسرة والوساطة في تجارة التحف والعاديات والتأمين عليها حتى وقع على فرصة نادرة استطاع من خلالها أن يخدع خادمة ورثت إحدى الأميرات الروسيات فيستولى على ضيعتها بثمن بخس ويتزوجها وينجب منها طفلة جميلة. لقد استثمر ذكاءه وخبرته التجارية في استغلال هذه الوريثة الضعيفة التي لا تجيد الحركة إلا من خلال أسيادها، فساعدته مهارته التجارية ليكون من الأثرياء بمقابل قليل.

وكأن ستيفان زفايج أراد أن يعاقبه على خداعه فجعل فتاته الجميلة وهي في العاشرة تصاب بمرض يقعدها عن الحركة بعد وفاة أمها يستمر سنوات طويلة مريرة، وتتعرض بعدها لنهاية مؤلمة تعصف بكيانه ومستقبله.

إن ضمير الكاتب الحي فيما يبدو كان أقوي من تعصبه لبني جلدته وأتباع ديانته، لدرجة أنه كان يقول لقد كنت يهوديا بالصدفة .

أما مارسيل بروست– وهو نصف يهودي– فقد صور شخصية اليهودي "سوان" بطل "البحث عن الزمن المفقود "، في صورة شبه

غامضة، وإن كان يتحرك في المجال الاجتماعي حركة رتيبة يحرص من خلالها على مشاركة الآخرين بانتظام، ويبدو أقرب إلى الأنانية والشك والسعي لإشباع طموحاته دون تضحيات في سبيل الآخرين!

وتصور إيثيل مانين في روايتها الطويلة "الطريق إلى بئر سبع" وحشية اليهودي وهو يحتل أرض فلسطين ويقتل أهلها ويطردهم خارج ديارهم وأرضهم، وتقدم نماذج بشعة للسلوك اليهودي في عديد من المواقف تخرجه من طبيعته الإنسانية أو البشرية .

ولعل هذه الصور المتشابهة لليهودي المنحرف الشرير في روايات كبار الأدباء الغربيين تكشف عن المشاعر الحقيقية للأوربيين تجاه اليهودي، وإن كانت الحكومات الغربية تتخذ مسارا آخر يتفق مع مصالحها وسياساتها .

اليهود في أدبنا الروائي الحديث:

هناك من يدعي أن إحسان عبد القدوس هو الأديب العربي الوحيد الذي أولى الشخصية اليهودية اهتماما خاصا في أعماله الأدبية، (راجع: رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، دار الهلال، القاهرة،1992، ص 7)، وهذا ليس صحيحا، فقد اهتم على أحمد با كثير وفتحي غانم ونجيب الكيلاني، ومن قبلهم إبراهيم عبد القادر المازني، أكثر من غيرهم بالكتابة عن الشخصية اليهودية على تفاوت في الرؤية والصورة.

وقد كتب إحسان رواية " لا تتركوني هنا وحدي" وبعض القصص القصيرة: "بعيدا عن الأرض"، و"أين صديقتي اليهودية"، و"أضيئوا

الأنوار حتى نخدع السمك"، و" لن أتكلم ولم أنس" و"كانت صعبة ومغرورة"، لتقدم يهوديا طبيعيا لا يعيش بمنطق عنصري.

وإحسان عبد القدوس يقدم الشخصية اليهودية بعيدا عن سمات اليهودي التقليدية الشائعة في الآداب العالمية. يقدم لنا يهوديا يمثل إفرازا للواقع الاجتماعي والسياسي للمجتمع المصري، كما يقدم اليهودي المذل المهان ولا يقدم اليهودي الذي يخلي مكان المشاعر الإنسانية لمشاعر القسوة الإنسانية ويطالب برطل من اللحم من دائنيه مقابل الدين، على غرار شيلوك شكسبير في تاجر البندقية، بل يقدم يهوديا تحركه دوافع الرغبة في أن يستفيد من ظروف الواقع المتعيّن الذي يعيش فيه ويتكيف مع الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والنفسية، ويحاول الهروب أو التخفيف من مشاعر العداء التقليدية تجاه اليهود في المجتمعات الإسلامية ..... يهودي إحسان من صميم النسيج المصري العام يفضل البقاء في مصر طالما أن الظروف الخارجية لا تضغط عليه من أجل الانسلاخ عن هذا النسيج...؟ (راجع: رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، دار الهلال، القاهرة،1992، ص 8 وما بعدها).

ويبدو أن إحسان بحكم عمله في روز اليوسف تأثر بنظرة الشيوعيين المصريين إلى اليهود الغزاة الذين اغتصبوا فلسطين، فقد وقف الشيوعيون المصريون الذين كان يرأسهم اليهودي "هنري كوريل" مؤسس الأحزاب الشيوعية في مصر والعالم العربي إلى جانب اليهود

في اغتصاب فلسطين، وأصدروا بيانات تندد بدخول العرب حرب1948 دفاعا عن الفلسطينيين، وكان ولاؤهم أولا وأخيرا لعرّاب الشيوعية في البلاد العربية اليهودي هنري كورييل.

لا أدين إحسان عبد القدوس في موقفه بقدر ما أعزوه إلى تأثره بزملائه في العمل، ثم إنه لم يكن فيما يبدو ملمّا بتاريخهم وواقعهم بما فيه الكفاية، مع أنه زار فلسطين قبل اغتصابها، واهتم بأحداثها في مجلة روز اليوسف وغيرها. ويكفي أن اليهود في مصر قبل إنشاء كيانهم الغاصب استغلوا تسامح المسلمين المصريين من أجل بناء كيانهم الغاصب في فلسطين الذي فرّوا إليه جميعا بطريق مباشر أو غير مباشر.، فأنشأوا صحفا وجمعوا أموالا، وبنوا كتائب عسكرية استعرضوها في الإسكندرية، ودفعوها لتحارب مع العصابات اليهودية ضد الفلسطينيين.

وللأسف؛ فإن بعض الشيوعيين المصريين مازالوا حتى اليوم يدافعون عن اليهود المصريين الذين خانوا وطنهم وهربوا إلى فلسطين المحتلة تحت دعوى التمييز بين الصهيونية واليهودية في السياسة، وزعموا أن اليساريين اليهود في مصر يرفضون الصهيونية ويعدّونها طريقا لزرع العداوة بين اليهود والعرب! بيد أن هؤلاء كانوا قلة أو استثناء يثبت القاعدة، وكان موقفهم نوعا من توزيع الأدوار الذي يتقنه اليهود الغزاة في كل العصور حتى يومنا هذا.

وفي حقيقة الأمر، فإن مئات الآلاف من اليهود المصريين لم يتبق منهم الآن في مصر إلا نحو خمسين شخصا، أغلبهم من الطاعنين في السن. وقد تناول الموضوع بالوثائق عدد لا بأس به من الباحثين من بينهم عواطف عبد الرحمن (يسارية) في كتابها: «اليهود المصريون والحركة الصهيونية»، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، القاهرة، 2017. ويمكن مراجعة كتب سهام نصار: اليهود المصريون صحفهم ومجلاتهم- الصحافة الإسرائيلية والدعاية الصهيونية في مصر- اليهود المصريون بين المصريّة والصهيونية- موقف الصحافة المصرية من الصهيونية 1897-1917. وحسين كفافي " هنري كورييل :الأسطورة والوجه الآخر، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم 240 ، القاهرة 2003م، لنرى خرافة التفرقة بين اليهودي المصري والصهيونية!

أما باكثير وفتحي غانم ونجيب الكيلاني، فقد اهتموا بتقديم الشخصية اليهودية ووصلوا إلى أعماقها الشريرة، من خلال إنتاج روائي وقصصي غزير. في الوقت الذي صمت فيه نجيب محفوظ تماما عن الإشارة إليها باستثناء ما تناوله بصورة هامشية في الثلاثية حول شخصية فتاة يهودية يقع في حبها واحد من شخصيات الرواية (كمال)، مع فشل هذا الحب. وفي رواية "زقاق المدق"، حيث يشير على لسان حميدة إلى أن حياة اليهوديات هي الحياة الحقة، وأن اليهوديات العاملات كلهن يرفلن في الثياب الجميلة، وأن اليهود متحررون من الأعراف والتقاليد.

وللأسف فإن معظم من تناول الشخصية اليهودية في مصر من الجيل الحالي يسعى إلى غسيل سمعة الشخصية اليهودية من الكذب والحقد والكراهية والعنصرية والعدوانية والشراهة للمال والربا، فهناك مثلا روايات: «أيام الشتات» لكمال رحيم و«سانتا تريزا» لبهاء عبد المجيد، و" النبطي" ليوسف زيدان، و«آخر يهود الإسكندرية» لمعتز فتيحة، و «حد الغواية» لعمرو عافية.

وتدور حول التعايش وقبول الآخر(؟) والإيمان بالتعددية الدينية التي كانت قائمة(؟) بين المسلمين والمسيحيين واليهود، والحب بين يهودية ومسلم أو العكس، والتعاطف مع الشخصية اليهودية الطبيعية المسالمة التي تعيش مثل بقية الناس.

هناك رواية وحيدة لمصطفى نصر، اسمها «يهود الإسكندرية» حاولت أن تقدم على استحياء الصورة اليهودية الحقيقية المعجونة بالخبث والجشع والطمع والاستحلال، ولكن المناخ الأدبي المصري الموجّه يروج لمقولات كاذبة عن يهود ما قبل الكيان الصهيوني الغاصب من أنهم كانوا جزءا من النسيج الاجتماعي المصري، وهو كلام سخيف لا أساس له من الصحة. لأنهم في أغلبهم عاشوا مفتوحي الشهية على الربا والرهونات والاستغلال، والمؤامرات والتجسس لصالح المحتلين الغزاة، وكان هنري كورييل، عرّاب الشيوعية في مصر والبلاد العربية- باعترافه- جاسوسا للإنجليز حين فتح مكتبة في وسط البلد ليرسل من خلالها تقارير للقيادة البريطانية. (يمكن مراجعة ما كتبه جيل جيرو، ورفعت السعيد، وحسين كفافي على سبيل لمثال)

يقول الكيلاني:

" إن الخطر اليهودي يضرب بجذوره الخبيثة في أعماق التاريخ ويتسلل حتى عصرنا هذا، والغريب أن أخطر المواقف التي تعرض لها الإسلام في بدايته كانت على أيدي اليهود أمثال كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وعمر بن الجحاش، وكعب بن أسد وغيرهم. فهم الذين حركوا قريشا في غزوة أحد وهم الذين ساقوا العرب بدهائهم وأموالهم ومؤامراتهم في المعركة الخطرة غزوة الأحزاب، وهم الذين حاولوا اغتيال الرسول– صلى الله عليه وسلم– وغدروا بالعهود والمواثيق في أحلك الظروف.." (نور الله- ج1، ص9).

ولهذا تبدو الشخصيات اليهودية في روايات الواقعية التاريخية لدى نجيب الكيلاني، ذات وجود مهيمن كما سبقت الإشارة، بل تبدو فنيّا أكثر حيوية وحركية أكثر من الشخصيات الإسلامية بسبب انحرافها ومكرها وسوء طويتها، وتعبيرها عن الشخصية الفنية المعقدة شديدة التركيب، المتباينة المتنوعة.. التي تتعدد بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية.. (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 83).

وشخصية المرأة اليهودية في روايات الواقعية التاريخية، تبدو أكثر هيمنة وحضورا من شخصية الرجل، مع أن الرجل هو الذي يتصدر الواجهة، ويتخذ القرار، ويقوم بالتنفيذ والقتال، في حين أن المرأة- نظريا- لدى اليهود لا تعدو أن تكون سيدة بيت وأما للأطفال، وتنفذ ما يطلبه سيد البيت وهو الزوج!

ومن أهم الشخصيات النسائية اليهودية التي عالجتها رواية الواقعية التاريخية عند الكيلاني:

صفية بنت حيي بن أخطب

تعد من أشهر نساء اليهود على الإطلاق فأبوها حيي بن أخطب رجل مرموق المكانة، نابه الشأن، صاحب رأي وكلمة مطاعة بين بني قومه من اليهود، وعلى صلات وثيقة مع رجالات القبائل العربية في طول الجزيرة العربية وعرضها. ويقال إنها من سلالة النبي هارون شقيق رسول الله موسى عليهما السلام، وزوجها كنانة بن الربيع سيد قومه، كثير المال، قوي الجانب، تحميه السيوف والدنانير والتجارة الواسعة، والديانة العتيقة، وصفية في الوقت نفسه على جانب كبير من الجمال والفطنة والأريحية؛ فهي تبش عند اللقاء، وتجود للفقراء، وتواسي المحزونين، بل إنها تحظى أكثر من زوجها بحب شعب اليهود بنسائه ورجاله، ولم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن كبريات الأمور التي تجري، سواء في مجال السياسة أو الدين أو الحرب أو المال.

وامرأة هذا شأنها لم تغلق فكرها، أو تغمض عينيها عما يجري بشأن النبي العربي الجديد. كانت تتقصى أنباءه، وتلح في طلبها، وتتلقى ما يصل إليها من آيات القرآن تلقي الشغوف ذات الفضول الزائد. وترمق بعين يقظة صدى الدعوة الإسلامية في مجتمعات اليهود الصاخبة، وتابعت تطورات الموقف لحظة بلحظة ومرحلة مرحلة..

فقد كان اليهود يتمنون أن ينحاز إليهم النبي الجديد الذي بشرت به كتبهم. وقد ناقشت صفية مع زوجها كنانة بن الربيع أمر هذا النبي الذي يؤمن بموسى وعيسى والأنبياء من قبله، وقد آمن به الحبر الأكبر اليهودي ابن سلام الذي كان مخلصا للدعوة اليهودية. بيد أن زوج صفية يخبرها أن اليهود لا يؤمنون بغير أنبياء بني إسرائيل وكتبهم، ويكشف عن نية اليهود في معاداة النبي العربي لأنه يتهم كتبهم بالتزييف والتحريف والتغيير، ويرى كنانة أن "لا إله إلا الله محمد رسول الله" شعار خطر لأنه سيسوي بين زعماء اليهود وأتباع محمد من العبيد.

لا تستريح صفيه لأفكار زوجها، وتنحاز بقلبها وعقلها إلى ما يدعو إليه محمد من إخاء ومساواة وقيم وفضائل يقبلها العقل والضمير الحي، وتهتز لما تسمعه من آيات القرآن الكريم، ولكن زوجها لا يعبأ بصوت العقل والضمير، ولا يهتم بما تقوله صفية فهو يراها مجرد امرأة لا يجوز أن تناقش أمور الدين؛ فالنساء للفراش وقدور الطعام ونظافة المنازل!

وهي تكره من زوجها الاستعلاء والغطرسة وازدرائه لها ولأفكارها مع أنه يعترف بمنطقها الخلاب وحوارها المذهل. لكنه يعاملها كما يعامل الجارية. ويرى أن النساء لا يعرفن كيف يفكرن أو لا يستطعن أن يفعلن صوابا.

في داخل صفية ينبت تمرد على منطق الزوج المتغطرس، وتنطوي على نفسها تكظم أساها وهي لا تريد أن تسيء لزوجها أو أبيها فهي زوجة ملك وابنة ملك.

وسط هذا الصراع النفسي والروحي ترى صفية رؤيا غريبة، وهي أن قمرا منيرا سطع في الظلام الكثيف يأتي من يثرب يعبر السماء يقترب منها ثم يدخل في حجرها. ولكن هذا الحلم يزعج زوجها الذي تتغير سحنته فيهوي بقبضته على وجهها ويقول في غيظ : كأنك تحبين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة ..؟!!

إن كنانة يرى زوجه متمردة ويطلب منها ألا تسمعه مثل هذه الأحلام أو السخافات. وفي لقاء لها مع أبيها حيي بن أخطب بعد أن علمت بخطط اليهود وتآمرهم على الدعوة الإسلامية، تقول له : "لم لا تدعون محمدا وشأنه، وتنصرفون إلى النافع من الأمور؟ فيرد عليها : وهل هناك أهم من الدين حتى نشغل أنفسنا به ؟". (نور الله ج1، ص 42-48).

ولا يختلف والد صفية حيي بن أخطب عن زوجها في حقده على الإسلام ومشاركته مع زعماء خيبر وبني النضير وبني قريظة وبني قينقاع في تدبير الخطط والمؤامرات ضد الإسلام والمسلمين، ويعلل ذلك لابنته التي لم تر اليهود يوما يهتمون بالدين مثلما يهتمون به الآن، بأن محمدا يعري سوءاتهم يسفه أحلامهم ويتهم كتبهم وأحبارهم ويدعوهم إلى دينه.. (انظر: على أبواب خيبر، ص 11)

قُتل أبوها الرجل المرموق وصاحب الكلمة المطاعة في قومه بعد هزيمة يهود بني قريظة، وعاشت تندبه وتبكيه. وكانت علاقتها بزوجها كنانة بن الربيع متوترة وليست على ما يرام، وتبدي كثيرا من الرفض لتصرفاته وأفكاره.

وحين يؤخذ حيي بن أخطب ليقتل جزاء غدره وتآمره وخيانته، يتذكر صفية " أين أنت يا ابنتي يا صفية؟؟ لا شك أنك ستولولين وتملأين الربوع دموعا وصياحا .. وسآتي إليك نسوة خيبر ويقدمن لك التعازي.. كان أبوك يا صفية رجلا عظيما .. وكنت أنت يا صفية تعترضين دائما على مخططاتي.. وكنت تفضلين مصالحة محمد، والعيش في جواره، والوفاء بعهوده.. هل كنت يا صفية أبعد نظرا منّي أن قلبك كان يحدثك بهذا الموقف الرهيب الذي يقفه أبوك؟؟ ..." (نور الله ج1، ص276)

وشخصية صفية من الشخصيات اليهودية التي تستجيب للفطرة الإنسانية في صفائها ونقائها، وصورها الكاتب من داخلها، وخارجها، فقدمها لنا وهي تتمنى الخير لقومها، من خلال اتباعهم للنبي الجديد، وتفكيرها لا يقف عند الحدود الهامشية للدعوة الجديدة بل يتأمل ويتدبر ويتساءل ويجيب، ويستقر على تخوم الإيمان بهذه الدعوة ونبيها، ورفض السلوك اليهودي الشاذ الذي يأبى إلا أن يكون معارضا للدعوة والداعية، ولا يكتفي بالمعارضة بل يدبر ويخطط للقضاء على الدين الجديد وأتباعه جميعا. ثم هي شخصية خيرة محبوبة يحبها اليهود أكثر من زوجها ويحترمونها ويقدرون لها تعاطفهم معها.

وقد كافأ الله صفية بزواج سيد الخلق– صلى الله عليه وسلم– وحمل لقب أم المؤمنين.

وتقدم الصورة التالية أعماق صفية بعد أن خيّرها الرسول- صلى الله عليه وسلم- بين الإسلام والبقاء على دينها:

" آه لقد تقلبت في فراش النعم والأبهة، ودرجت بين آباء ملوك.. حولي الخدم والحشم، وتحت أقدامي الذهب.. أأمر فأطاع، ولم أستشعر السعادة والرضا إلا عندما رأيتك يا نور القلوب وربيعها.. آه.. أحببتك وأنت وحدك في مكة تدعو إلى الله، وتحمل العناء والعذاب، وترفض المساومات، وأحببتك وأنت تهاجر واثقا بنصر الله. وأحببتك وأنت تخوض المعارك القاسية؛ يا أشرف محارب، وأنت تقاوم الجموع وعلى رأسهم أبي وتحطم كبرياء المغرورين والموتورين وتخرج من كل ملحمة قوي البأس مشرق الوجه، تنفض عن جبينك الطاهر التراب والدم الغالي.. تكبر للصلاة.. أنت لم تقتل بني قريظة.. هم قتلوا أنفسهم... قتلهم أبي، أنت لم تقتل اليهود، بل قضيت على رذائل الإنسانية، ودمرت الحقد والدس والمكيدة، فالثعابين لا تترك البشر ينعمون إذا ما انطلقت من جحورها، يا واهب الأفراح لقلبي التعس، ومشعل فكري بنور الحقيقة، يا نبع الحب والنظام والأمل، يا فجر حياتنا الجديدة...." (على أبواب خيبر، ص141)

إنها شخصية حية مكتملة التصوير الفنّي، في سياق الواقع التاريخي الذي تعيشه، وهي تحقق صورة الشخصية في الرواية التقليدية التي تبدو كائنا حيا له وجود فيزيقي فتوصف ملامحها وقامتها وصوتها

وملابسها وسحنتها وسنها وأهواؤها وهواجسها وآمالها، وآلامها، وسعادتها وشقاوتها، لأنها تلعب دورا كبيرا في العمل الروائي التقليدي، مثل شخصيات بلزاك، زولا، محفوظ... (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 86).

وإذا كانت صفية حاضرة في رواية "نور الله" بحكم تطور حركة الدعوة والصراع مع اليهود حضورا عاما يحمل ملامحها الأساسية؛ فسوف نجد لها حضورا خاصا تفصيليا يبسط الملامح والصفات والمميزات والأعماق والتصورات والأخلاق في رواية "على أبواب خيبر"، حيث كان زوجها زعيما ليهود خيبر وقائدا لهم حتى قتل فيما بعد مع هزيمة قومه، حيث كانت خيبر مستهدفة بالفتح نتيجة مباشرة للغدر اليهودي الذي أسفر عن وجهه.

زينب بنت الحارث

في المقابل نري زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم الصورة العكسية من صفية بنت حيي بن أخطب فهي مليئة بالحقد والغل والأنانية والتعصب، وتقوم بالتحريض السافر على المسلمين وتقتحم مجالس الرجال اليهود وتثير فيهم نزعة العدوان والوحشية ضد محمد– صلى الله عليه وسلم– ومع أنها تتطابق مع زوجها سلام بن مشكم في الصفات المعادية للإسلام والناس جميعا انطلاقا من نزعة اليهود العنصرية بوصفهم شعب الله المختار كما يزعمون؛ فإنها كانت تفكر كيف تهزم المسلمين دون قتال، وتعبر عن أحلامها في سبْي أمهات المؤمنين وجعْل عائشة جارية تخدمها وتدلك أقدامها وتمارس

الإذلال معها ومع غيرها من نساء المسلمين كما لم يحدث من قبل. ويشاء الله أن تساق هي مع سبايا خيبر إلى يثرب ولا تتحقق أمنيتها الشريرة بسبْي أمهات المؤمنين.

زينب بنت الحارث لا تقنع بزوجها سلام بن مشكم، بل تستقطب في إطار خططها لإيذاء النبي- صلى الله عليه وسلم- عبدا يملكه زوجها اسمه "فهد" تعده ليقوم بمهمة اغتيال النبيّ، ومن أجل ذلك تمنحه نفسها فهي تشتهيه وترى فيه الرجل الذي يمنحها ما قصر فيه زوجها وتقضي معه ليالي من المتعة الحرام. وقد تهامست الجواري بما تفعله امرأة الزعيم مما سبب صدعا في تفكيرها. ويخذلها العبد بعد هزيمة خيبر، ويعلن إسلامه فتنهار ويستولي عليها اليأس.

وتصور الرواية أعماق شخصية زينب تصويرا قويا بعد أن سقطت في قاع البؤس والذل كاشفا عن وحشية الحقد اليهودي والرغبة في الانتقام من الأبرياء الذين لم يسيئوا إليها، كما توضح نظرتها العنصرية إلى الآخرين وحرصها على تحقيق مصلحتها بالنفاق والخداع ولو جعلت من خدها وطاء لمن تحتقره وتزدريه، ثم إنها في حالة اليأس تقدم نموذجا إنسانيا هشا لا يصمد للمقاومة، بل يبحث عن الموت ليتجاوز المتاعب والمصاعب :

"ويحي. ويحي. جلل العار حياتي، والذل يهوّم على رأسي، وفي عيني، وأنا بالأمس زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم، لكني الآن إحدى السبايا.. حلمت بأن تركع عائشة تحت قدمي، ويأتي السبايا من نساء الرسول يدلكن بالطيب ويمشطن شعري، ويحركن المراوح

أمام وجهي ويتلقين من ورائي فتات الموائد.. كيف انعكست الآية؟؟ زينب بنت الحارث ستذهب إلى بيت محمد لتخدم نساءه. تمرغ شرفها العريق في الذل والوحل!! وا مصيبتاه!! والخسيس بن الخسيسة "فهد" ما إن وهبته الحرية، ومنحته قلبي وجسدي حتى تمرد واندفع في نذاله ليعلن إسلامه، وينخرط في سلك المسلمين.. وا كرباه!! تشبثتُ بأذيال القذر.. ذرفتُ الدموع.. قلت له أعطيتك الحرية لتكون لي وحدي لتخفف من أسى الزمان وغدره.. فلنهرب.. ولنعش بعيدا عن العيون. سأجعل من خدي لك وطاء.. وأنت العبد الحقير.. لكنه زمجر قائلا: لن أبيع آخرتي بدنياي سوف أركض إلى الله. فلتركض يا ابن اللئيمة حتى تكسر رجلك، ويدمي الشوك قدميك.. اليأس يطوق عنقي، ويغلل فكري، ويحرقني بسياط الندم.. ما قيمة الحياة بعد ذلك؟؟......" (على أبواب خيبر، ص 129)

بعد انتصار المسلمين ومقتل زوجها تنفذ خطتها الأخيرة فتعلن إسلامها نفاقا وتضليلا، وتدعو الرسول– صلى الله عليه وسلم- والصحابة لوليمة بمناسبة دخولها في الإسلام وتقدم شاة مسمومة يموت أحد الصحابة (بشر بن البراء) إثر تناول قطعة منها، وتعترف بجريمتها، فتقتل قصاصا جزاء وفاقا على ما اقترفته يداها.

زوجة عبد الله بن أبي

تبدو هنا امرأة يهودية أخرى موازية إلى حدّ ما لشخصية صفية بنت حيي بن أخطب، فهي تصدر عن فطرة إنسانية نقية لا تؤثر فيها الأحقاد اليهودية وخططها الشريرة. إنها زوج عبد الله بن أبن أبي

رأس المنافقين اليهود. حين يصرح لزوجته بحقده على المسلمين الذين انتصروا في بدر، وعيشه في قهر وعجز لأن محمدا اغتصب مقعده في الزعامة والرئاسة؛ تجيبه بأن محمدا لم يحارب أحدا، وأن ابن أبي لو سلك طريقا سويا منذ البداية ربما كان الآن واحدا من المقربين إليه. ولكنه ليس بالمؤمن ولا بالكافر، فلو كان على دينه القديم لكان زعيما لخصوم محمد، ولو اندفع إلى الإسلام دون تردد أو وهن لصار كبيرا من كبراء المسلمين. ومع ذلك فما زال محمد يعامله برفق ويغضي عن تصرفاته الخطرة، وعقابه لبني قينقاع أرحم مما يفعله العرب بأعدائهم المنهزمين.

الزوجة اليهودية هنا تمثل صوت المنطق والعقل، وهي صوت الحقيقة التي يتجاهلها زوجها اليهودي المنافق، وتختصر القضية أمامه بأنها الإيمان والكفر.(نور الله ج1، ص 92-93).

إن الزوجة اليهودية تكشف نفاق زوجها وتدحض مزاعمه. وترى أنه يسير في طريق وعر سيؤدي به إلى حرق أنامله وآماله، لأن ما يفعله حسدٌ لمحمد ويتناقض مع إسلامه.

كما ترى أن مصرع كعب بن الأشرف عدل يستحقه لأنه جاهر بالعدوان ضد المسلمين، وشبّب بنسائهم وفضح سترهم وهجا نبيهم وآذاهم بلسانه دون مسوغ، وهو ما جعل زوجها رأس المنافقين يرى أن محمدا أتلف العبيد والنساء والرعاع، وابنه يعاديه، وزجه تعارضه وتحنق عليه "لقد أصيب الناس بلوثة" (نور الله ج1، ص107)

ثم إنها تكشف نفاقه الرخيص وحقده العميق على الإسلام والمسلمين حينما بدت عليه ملامح السرور والفرح وجيش قريش والقبائل يقترب من المدينة في غزوة الأحزاب لسحق الدعوة الإسلامية، في الوقت الذي يحاول فيه إقناع زوجته أنه سيدافع عن المدينة مع اليهود وفاء لعهد وميثاق وقعوه مع المسلمين.

زوجة رأس المنافقين تمثل صوت العقل والمنطق الذي يهدره الحقد والهوى، مما يؤكد على أن اليهود ليسوا سواء. ولأن الزوجة تمثل الجانب الذي يفتقده زوجها رأس المنافقين، فقد جاءت مسطحة لانعرف عنها غير وظيفتها (زوجة وأما) دون أن نتعرف على أعماقها أو ملامحها السلوكية أو الخلقية أو غير ذلك من تفاصيل الشخصيات الحية النامية.

اليهودية اللعوب

هي شخصية موضوعة فيما أظن ولها نظائر موجودة في الواقع التاريخي والواقع المعاصر. اليهودية اللعوب لا اسم لها في رواية الواقعية التاريخية، ويكتفي المؤلف بتسميتها بصفتها هذه" اليهودية اللعوب"، وهو اسم له دلالة، وله أبعاد. تشير مهمتها إلى التخطيط اليهودي في استخدام سلاح المرأة للإيقاع بالضحايا والعناصر التي تستعصي على الوسائل الأخرى. والجنس سلاح ناجع بأيدي اليهود في أحوال كثيرة إلا على المؤمنين إيمانا حقيقيا، إلى جانب المال الذي يسيل لعاب الضعفاء ومحبي الدنيا وعرضها الزائل.

واللعوب يهودية مستعدة لفعل أيّ شيء من أجل اليهود: إغواء، تجسس، معرفة الأخبار، نقل الأسرار، التحرك بين اليهود لنشر توجيهات الزعماء والقادة اليهود، لها أيضا عقل ناقد يتوجه إلى اليهود باللوم والانتقاد والسخرية حين يهزمون ويفشلون، وقد حاولت في البداية الإيقاع بعمر بن الخطاب وإغرائه وهو مسلم؛ كما كانت تفعل في الجاهلية، ولكنها وجدت منه صدا وموقفا حازما، وينجو عمر من مؤامرة اغتياله في بيتها، ما أكثر ما تتزيّا الشياطين في زي امرأة...(انظر قصة المؤامرة كاملة: نور الله ج1، على صفحات 57-61).

واللعوب لها كلمة مسموعة في قومها، ويلجأ إليها كبار الزعماء اليهود للاستشارة، كما فعل كعب بن الأشرف، الذي يكشف عدم قدرة اليهود في اجتماعهم السري على إشعال الحرب بعد سطوع نجم محمد، وأنه سيفكر وحده، من أجل قومه، ويرى في اليهودية زادا وطعاما شهيا ولكنها توقظه في الصباح وتخبره أن محمدا قد انتصر في بدر، وفرّ من بقي من قريش يطلبون النجاة (السابق، ص 68-69) ومن بيت المرأة اليهودية يخرج كعب ابن الأشرف ليؤلب قريشا والقبائل لغزو المدينة منددا بحيي بن أخطب ذلك المأفون الذي أبى أن ينقض على المدينة في غفلة من أهلها وفي غيبة الرسول .. (السابق أيضا، ص71).

وتخبر اليهودية اللعوب عمر بما يعتزمه كعب بن الأشرف، ونيته في التحلل من عهد اليهود مع محمد ومجاهرة المسلمين بالعداء، ويستغرب عمر وشاية اليهودية بكعب وهو يهودي مثلها، ولكنها تدعي أن اليهود ينكرون تصرفه وأنهم قرروا عدم إيوائه والتنصل من تبعيته لهم، ويبتسم عمر: "تتكلمين كأنك سفيرة لليهود أو كأنك رأس كبيرة من رءوسهم المفكرة".

وفي حوار عمر مع اليهودية يذكرها بدورها الخبيث الذي تقوم به معه من خلال مقارنة دور "العاشقة" الذي كانت تقوم به بالأمس، ودور "السفيرة" الذي تقوم به اليوم. ما أوسع الفرق بين الحالين! ولم يخف على عمر أن اليهودية أرادت أن تعتصم بالدهاء وتحمي بني قومها إذا ما ظهرت خيانات كعب بن الأشرف وأمثاله. ويستعيد عمر ما فعله فرعون وما كان يملكه من قوة وبطش وملك وجنود وسحرة حيث لم يستطع أن يقف في وجه الطوفان، وغرق فرعون وصارت كلمة الله هي العليا.

لقد عادت اليهودية لتقول لقومها إنها نفذت كل شيء بدقة، وإن عمر أدرك هدفها وأن المسلمين يتمتعون بطاقة هائلة من الذكاء والإلهام. وإنه لم يكترث كثيرا بما يخطط له كعب بن الأشرف (نور الله ج1، ص77- 78)

بعد سماعها لخطط اليهود التي تعبر عن أحقادهم تجهش بالبكاء وتنتحب وتقول لهم : " لقد مللت هذه الأدوار المقيتة.. لقد تعبت أعصابي.. كل يوم أتشكل بشكل جديد. أتعرفون الملل، لقد تعبت،

أريد أن آوي إلى بيتي، وأنام هادئة سعيدة. دعوني.. فقد سئمت كل شيء" (السابق، ص79)، كأن الفطرة الإنسانية ترفض سلوك اليهود التآمري الحقود الذي لا يهدأ، وسنلاحظ أن المرأة اليهودية بشكل عام ترفض سلوكهم بصورة ما، وتجنح إلى المسالمة، ولكنها في عصرنا تقود عصابات القتل والتدمير!

وسوف نجد لهذه اليهودية اللعوب أدوارا أخرى، حيث ترى أن بني قينقاع يجب أن ينزلوا على حكم محمد بعد اكتشاف غدرهم وعدوانهم، وعدم نجدتهم من قبل حيي بن أخطب وبني قريظة، وإلا كان الفناء نصيبهم.

كما تصف اليهود بالأغبياء وهم يتآمرون لقتل محمد وفقا لاقتراح عمرو بن جحاش، ويتهمها عبد الله بن أبيّ بالفشل في استدراج عمر بن الخطاب لشباكها، وأنها لا تحسن غير تسوية الفراش، والمشاركة في السمر ومقارعة الكئوس (انظر: السابق أيضا، ص 149) ويقرر اليهود بعد فشلها حبسها في منزل مهجور في أطراف بيوت بني النضير بعد تقييدها وإقامة حراسة عليها، فتسبّ اليهود وتكشف عيوبهم وأحقادهم وغباءهم وتؤكد لهم أن المسلمين نمط آخر من الناس. وعقب انكشاف مؤامرة بني النضير لقتل محمد وحصاره لهم يطلقون سراحها، فتمسك بخناق عمرو بن جحاش وتتهم اليهود بالغباء والسير نحو حتفهم، وتخبرهم أنهم يكررون قصة بني قينقاع من جديد، "الطريق الأسود المليء بالأشواك والرعب والظمأ والجوع والضياع.. ما أتعسنا وأشقانا!!" (نور الله ج1، ص 159)

وتظهر اليهودية مرة أخرى بعد غدر بني قريظة بالمسلمين وتمزيق المعاهدة في ظل غزوة الأحزاب وتجمّع القبائل لسحق المدينة والقضاء على الدعوة، فتخاطب اليهود باكية كاشفة عن إدمانهم للغدر والخيانة: " جربوا الوفاء مرّة.. مرة واحدة". (السابق، ص 198).

ثم إنها تواجه زعيم اليهود حيي بن أخطب بما لم يستطع أحد أن يواجهه به، فتتهمه بالمسئولية عن دماء اليهود وحريتهم: " يا حيي بن أخطب.. إن دم الرجال في عنقك. يا حيي بن أخطب إن سبي النساء والذراري في عنقك.. يا حيي بن أخطب أنت المسئول عن رحلة الضياع والشقاء الطويلة.." (السابق أيضا ، ص 200)

ومع ذلك فإنه يلجأ إليها بعد هزيمة الأحزاب ويسألها الرأي والعون والمساعدة، ولكنها- وهي تنتظر مصيرها البائس- تخبره ألا جدوى من فعل أي شيء فهي تنتظر الموت وتقتات الحزن وتذرف الدموع. وترى أنه لا بد أن يدفع الغادرون الثمن ويعاقب الخونة بالعدل:

" أجل يا حيي بن أخطب.. ماذا تنتظر من رجل أردت أن تقتله؟؟ وبأي وجه يقابلك المسلمون وقد غدرت بهم في أحرج الأوقات، ورسمت الخطط الرهيبة للقضاء عليهم وإفنائهم؟؟ ألا تعتقد يا حيي بن أخطب أن الجزاء من جنس العمل.. وأن في القصاص حياة ؟؟" (نور الله ج1، ص 250)

وفي لحظة القصاص منه تقول له:

"أنت صانع المأساة أيها الملعون ... ". " لقد حذرتك يا حيي بن أخطب .. يا فاتح طريق المتاهات والعذاب والضياع.. عليك اللعنة". (السابق، ص 278)

ينتهي المطاف أخيرا باليهودية إلى التفكير في أمر الدعوة بعد تلك الرحلة المليئة بالدم والدموع والضياع في ديار بني قينقاع والنضير وقريظة إلى النطق بالشهادتين وإعلان الإسلام، وترسو على ميناء الأمن والسكينة والاطمئنان الروحي والإنساني. (انظر: السابق أيضا، ص 297ومابعدها)

تظهر المرأة اليهودية اللعوب في رواية على أبواب خيبر مرة أخرى ولكن بشكل محدود مختلف قليلا عن رواية نور الله، ولكنها في كل الأحوال " تلك المجنونة.. العاقلة.. اليهودية، تلك التي حذرتنا يوم بني قينقاع.. ونصحتنا قبل أن تحدث مأساة بني النضير.. والتي كادت تجن وهي ترانا نرتكب الخطأ الثالث في بني قريظة. لقد حقرنا من شأنه. وسفهنا آراءها، ورميناها بالجنون والعته.. إن لهذه المرأة كلمات واضحة صريحة وأحيانا لها تأثير نفسي طيب.." (على أبواب خيبر، ص 18).

***

ومن أبرز الشخصيات اليهودية من الرجال:

عبد الله بن أبي

هذا رأس المنافقين، وهو شخصية قيادية يهودية حاضرة في روايتي "نور الله"، و"على أبواب خيبر"، وإن كان وجودها الفني محدودا إلى حد ما، مع خطورة الدور الذي يقوم به. وتكشف الروايتان عن شخصيته المنافقة والصراع الذي يحركه بين ولائه لليهود، وكراهيته للنبي والمسلمين، بينما يتظاهر بالولاء للإسلام وعبر عن ذلك الصراع الذي يدور بداخله:

"إنه عذاب من نوع غريب لا يستشعره غيري، فبيني وبين نفسي أمقت محمدا وأحنق على دعوته وانتصاراته، وأمام ابني والناس أظهر الخوف على محمد، وأتظاهر بإسداء النصح له، وتبصير رجاله بما يجب أن يفعلوا، لكم تمنيت أن أجد المناخ المناسب الذي يبدو فيه ظاهري كباطني، وأن أعبر عما يجيش في صدري دون حرج، وأنا بين المقت الخفي والحب الظاهري أقاسي العذاب.. لماذا لا أقف على ملأ من الناس أطلق كلمة الحق التي أعتقدها صريحة مدوية وليكن ما يكون.. وفي المدينة مسلمون وكفرة. ولكل واحد منهم موقف. لا أنكر أيضا أنني أطرب وأسعد للغش والخديعة والتآمر، ولا أنكر أيضا أنني أؤدي دورا كبيرا في سبيل الغاية التي أعمل لها. لكني مع ذلك حزين، وليس مرد حزني إلى ما ينتابني وينتاب حلفائي من فشل.. لكن مرده الحيرة بين الصراحة والجبن، بين الانكشاف والانطواء.. بين الشك واليقين.. وا عذاباه!". (على أبواب خيبر، ص 93)

إنه يظهر غير ما يبطن يمقت محمدا في الخفاء ويظهر حبه في العلن، يطرب لسماع الغش والخديعة والتآمر، يعيش الحيرة بين الصراحة والجبن والشك واليقين، ولاؤه الحقيقي لليهود، ونفاقه لمحمد من أجل اليهود! وعذابه الحقيقي بين ما يظهر وما يبطن.

يتخلف المنافق الأكبر عن الخروج مع المسلمين الذاهبين لمحاربة يهود خيبر ويخذلهم، بحجة أن الرسول اختار للخروج من شهد صلح الحديبية، ولكن زوجه تخبره أنه ينتقي من الكلام ما يوافق هواه ونسي أن الرسول- صلى الله عليه وسلم- جعل الغنيمة لمن حضر الحديبية وبايع محمدا على الموت، تكريما وتقديرا، الخروج مفتوح للمسلمين جميعا. المنافق يتوقع أن يعود المسلمون من خيبر مهزومين؛ لأن اليهود أعدوا لهم كمينا. بيد أن زوجته تشكك في كلامه، وتتهمه أنه ليس على حق فيهوي على وجهها بصفعة مؤلمة! (انظر: السابق، ص 95-97)

ابن أبيّ يصرّ على حقده ضد الإسلام والمسلمين، وحين تدعو له زوجته بالهداية فإنه يتجهم ويرتجف ، ويقول لها:" لا تضرعي من أجلي.. إن دعواتك في الهواء.. إن بيدي مصيري.. أتفهمين؟" (نفسه، ص 99)

ويستمر المنافق في نفاقه، حتى يموت ولا يصلي عليه، وتكون فضحيته أبدية من خلال آيات القرآن الكريم " وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا

وَهُمْ فَاسِقُونَ. وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ " (التوبة: 84- 85)

كعب بن الأشرف

شاعر يهودي يحقد على المسلمين. لا يخافت بعداوته لمحمد ويسعي إلى التحريض ضده وضد أتباعه، ويذهب إلى قريش والقبائل ويدفعها إلى القتال، ويثير فيهم الأحقاد والأضغان، ويذكرهم بهزائمهم وضرورة الثأر لقتلاهم، وينظم شعرا يهجو فيه محمدا، ويشبب بنساء المسلمين وينال من الدعوة الإسلامية ويلصق بها الشبهات مما أدى إلى إهدار دمه، وبالفعل يلقى مصرعه الذي يمثل ضربة قوية لليهود والمنافقين جميعا.

لقد أثمرت جهود كعب ودعوته تأليب قريش والقبائل، ونقض يهود بني قريظة لعهودهم وتجييش الجيوش الكافرة للزحف نحو المدينة والقضاء على الإسلام وسحق المسلمين في غزوة الأحزاب، ولكن الله سلم.

يبدو شاعرا صعلوكا لا أسرة له ولا مأوى، ويتنقل بين اليهود وقبائلهم، ويجد لدى اليهودية اللعوب ما يريحه، فيقضي بعض الأوقات لديها، ويسألها الرأي حين تتراكم سحب الهزائم فوق رأسه ، ورأس اليهود.

السرد لا يقدم ما وراء شخصية كعب في واقعها الحركي. لا نعلم عنه شيئا في حياته الخاصة أو الاجتماعية غير حضوره في المجتمعات اليهودية، وطرح آرائه، وإلقاء شعره، والتحرك بين القبائل للتحريض

والاستنفار. إنه شخصية مسطحة ولكنها مؤثرة بشكل ما في الواقع اليهودي من خلال شعره وتحريضه الذي يناغي وتر التعصب والحقد لدى اليهود.

الحجاج بن علاط

تاجر يهودي يمثل المعارضة من داخل اليهود خوفا على اليهود من مصيرهم المحتوم الذي صنعه غدرهم وتآمرهم، ويشهد عملية الهزيمة التي حذر منها ويدعو كنانة بن الربيع لمقابلة النبي- صلى الله عليه وسلم- ويذكره بتحريضه ضد المسلمين وإعداده للسلاح وحشد الجند، فتأثر بما يقوله الحجاج، يخرج مطأطئ الرأس مرتاع الفؤاد، ليلقى مصيره جزاء خيانته وغدره!

والحجاج كان شاهدا دائما على غدر اليهود وخيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق وخططهم الشريرة. ويعلن خبر انتصار المسلمين في خيبر للعباس بن عبد المطلب وحده، دون أهل مكة الذين احتال عليهم ليسترد ديونه منهم، ثم يعلن إسلامه ويلحق بالمسلمين في المدينة.

سليمان الحلاق

إذا انتقلنا بعد عصر المبعث أكثر من اثني عشر قرنا، سنجد أن الشخصية اليهودية بملامحها العنصرية وسلوكياتها العدوانية لم تتغير. يحركها الحقد ويحكمها الغدر، ولا تتخلى أبدا عن حب الدنيا والمال، ولو كان الثمن قتل الأبرياء وذبح الشرفاء، فاليهود يقدرون كل شيء بثمن مادي، ولا أثر على كل ما هو معاد للروح والضمير. وزاد زمانهم تعاليم صريحة لأحبار اليهود تحضّهم على مزيد من

العنصرية والعدوان والغدر، سجلوها في كتب تُقرأ وتُدرّس وتُعّلم في الكنس والبيوت اليهودية. اشتهر منها التلمود، وبروتوكولات حكماء صهيون.

سليمان الحلاق من أبرز شخصيات حارة اليهود، وأكثرها حيوية. وهو صاحب محل حلاقة يتردد عليه كثير من اليهود وغيرهم، وهو ذرب اللسان حلو النكتة، يقلد الأوربيين في طريقة قص الشعر وتنظيم الخصلات وتنسيق السوالف، وهو أيضا مشهور بعملية فصد الدم، ولا يخرج من أي بيت خالي الوفاض، ويؤكد لكل مريض أن فصد الدم ضروري له حتى لوكان مريضا بفقر الدم والهزال!

إنه يحب المال ومنظر الدماء. وبالإضافة إلى ذلك فهو سمح الوجه، باسم دائما لا تشف تعبيرات وجهه عما في داخله. (حارة اليهود، ص 8) ولكنه كان يعبر دائما عن كراهيته للأب توما، ويقول: " إني أكره هذا الرجل كراهية لا مثيل لها.. (حارة اليهود، ص 28) ويردد ذلك أمام أصدقائه اليهود ومراد الفتال وآل هراري والحاخام موسى أبو العافية والحاخام موسى سلانيكي.. ويعلل كراهيته للرجل تعليلا دينيا، لأن اليهود يعدّون المسيحيين وثنيين ولذلك يكرهونهم، ويستبيحون أموالهم ودماءهم، ويضعونهم في مرتبة الحيوانات والبهائم حسب تعاليم التلمود.

بيد أن الكراهية الأكبر للأب توما من جانب سليمان تكمن في الجانب المهني فسليمان يزاول الطب والأب توما يمارسه أيضا ولكن بالمجان وعلى أسس علمية وتجربة طويلة. أما سليمان فمجاله محدود وأغلب عمله في مجال فصد الدم، ولا يلجأ أحد إليه ألا عندما يتعذر وجود الأب توما.

"وقد تجرأ سليمان ذات مرة وقال:

- أيها البادري الصالح.. يجب أن تتقاضى أجرا على جهودك الدائبة في الليل والنهار.. الأجر يجعل لعملك معنى وقيمة.. حينما تقدم للناس شيئا بلا ثمن فإنهم يزهدون فيه.. ابتسم الأب توما في رقة وقال:

- أي سليمان لا أريد أجرا، ولا أنشد مجدا بين الناس، إن عيني متجهتان دائما صوب السماء، من أجل المسيح أعمل.. وفي سبيل التعساء من بني البشر أجاهد.. والسعادة التي تتدفق بين حنايا الضلوع هي الثواب الكبير.. إنها نعمة كبرى.. فليبارك الرب مسعانا". (السابق، 29-30)

وكان لهذه الكلمات وقع السهام على قلب سليمان وفسر موقف توما بالبلاهة، لأنه يعتقد أن لكل شيء ثمن في هذه الحياة، ولو لم يكن لكل شيء ثمن لما وجد الملايين الرغيف! والعمل الشريف وحده لا يستطيع أن يصعد بالإنسان إلى قمة المجد، لا بد إذا من الوثب.. لابد من الكذب والممالأة والنفاق والسرقة بل القتل في بعض الأحيان، ويستشهد بأوربة وكيف حكمت العالم وسيطرت عليه.. لابد من الخوض في دماء البشر وجثث الضحايا.. (انظر: السابق أيضا، ص 30-31)

سليمان يقوم بأمر من دواد هراري بذبح البادري توما وتقطيع أوصاله لتلقى في المجاري. وإذا كان قد أبدى شيئا من التردد والخوف عند عملية الذبح فقد أتمه، وقام بتقطيع الجثة، وحصل على مكافأته. وبعد أن قبض عليه لم يتردد في الاعتراف بماجري مقابل الإفراج عنه ونجاته من الإعدام.

داود هراري

من أسرة هراري المعروفة في دمشق. وهي أسرة ثرية ثراؤها فاحش ولها تجارات واسعة وصيت ذائع، وداود هراري معروف لدى العامة والخاصة .

ونساء الأسرة مثل نساء اليهود في دمشق لا يكترثن كثيرا بالآداب المرعية، ولذا تجذب حارة اليهود عشرات الشبان الشوام الذين يصبون في آذان النسوة كلمات الإطراء والثناء على جمالهن .

وداود شخصية مرموقة لها بطش ونفوذ، وهو متدين بمقاييس حاخامات الدين اليهودي، ويحافظ على الصلاة ويهتم بالشعائر ويظهر احتراما وتقديرا بالغين نحو الحاخامات، وأسهم في ترميم المعبد اليهودي ودهانه بالألوان الزاهية. ويملك حاسة تجارية لا تخيب ويحتكر البضائع لبيعها في السوق السوداء بأعلى سعر. وله روابط مع رجال القنصليات والحكام، ويستطيع بالمال أن يحصل على ما يستعصي عليه بالقانون وهو مستبد في أسرته، ولكن زوجته الجميلة تضيق بنظامه الآلي الصارم وتشمئز منه، وكانت صغيرة السن بالنسبة له فهي في الثلاثين وهو في الخامسة والخمسين،

فأنشأت علاقة سرية مريبة بخادم الأسرة مراد الذي هو محل ثقة داود وخادمه المخلص.

مراد يحب خادمة اسمها استير تخدم أسرة هراري وهي في التاسعة عشرة، وتغار منها كاميليا زوجة داود وتحقد عليها، وهمت بطردها أكثر من مرة لأنها تقف عقبة في طريق علاقتها المريبة مع مراد.

يعتزم داود السفر إلى بيروت من أجل نوع من البذور يعيد الشباب ويحسن علاقته الحميمة مع كاميليا، ويخبرها إنه لن يردّ إليه قوته ويرضي ربه إلا الفطير المقدس؛ فطير عيد الفصح، وفقا لأوامر التلمود، ويقول لها " دم المسيحي الممزوج بالدقيق له فعل السحر يا امرأة .. (حارة اليهود، ص 21)

ويقرر داود وزعماء الحارة ذبح الأب توما (البادري توما) لصناعة الفطير المقدس، حيث تتوفر فيه المواصفات المطلوبة. فالبادري توما قسيس يقترب من الستين. يتمتع بنشاط وحيوية. وهو من مواليد سردينيا، إيطالي الأصل ويحمل الجنسية الفرنسية ويعيش في دمشق منذ أكثر من ثلاثين عاما. ودمشق كلها تعرفه، وجهه أشقر يفيض حيوية ونشاطا وتنسكب الطيبة والرضا واليقين من عينيه الصافيتين. ولحيته الشقراء تتناثر فيها بعض الشعيرات البيضاء تقطر سماحة وأمنا وثقة. ويحظى بالإجلال والاحترام، والأطفال يحبونه ويمتزج حبهم له بشيء من الخوف لأنه يعطيهم دائما الطعم الواقي ضد الجدري. واليهود يحبونه أيضا وداود هراري التاجر اليهودي الثري يعد من أصدق أصدقائه، وأخلص خلصائه.

الأب توما صيد مناسب لليهود الذين قرروا ذبحه، فهو لن يثير متاعب كثيرة، لأنه وحيد يسكن مع خادمه الوحيد أيضا، إبراهيم عمار في دير صغير، وحياته هادئة بسيطة لا إزعاج فيها، ووقته موزع بين العبادة والقراءة ومعالجة المرضى، ولديه مكتبة ضخمة مليئة بالكتب المتنوعة، وهو حريص على مطالعة كتب الطب خاصة ويعتمد عليها في معالجة الأهالي.

وكان قرار داود وزعماء الحارة بذبحه مناسبا لهم، وتمت الجريمة، وأثرها كشفهم، وكانت تحقيقات، وكانت فضيحة، وكانت خطط يهودية وتدبيرات؛ لإنقاذ دواد المجرم ومن معه!

الخواجة ينّي

في رواية "النداء الخالد" تقابلنا شخصية الخواجة ينّي. وهو يوناني يهودي مستوطن بمصر. في الأربعين من عمره، هادئ الأعصاب لدرجة مثيرة.. باسم دائما في خبث، شديد سواد القلب كما يقول الفلاحون؛ يشبه فص القطن الأبيض وبداخله بذرة سوداء. يملك في القرية مئات الأفدنة وله تجارة واسعة يعتقد أن التجارة لا تعرف الرحمة ولا المجاملات، دستوره: خد وهات! له أصدقاء من كبار البلد، يودّهم ما داموا يملكون القرش، فإذا خلت جيوبهم فلا يعرفهم إلا من خلال التعامل بالأوراق المكتوبة (الكمبيالات والإيصالات) وبنسبة ربح مركبة (ربا فاحش)، وله وكيل أعمال اسمه الحاج إبراهيم يشبهه في كثير من الصفات، وخاصة برود الأعصاب

وعدم الرحمة. ويشرف على الأرض التي يملكها ينّي واستولى عليها من الفلاحين بأثمان زهيدة في ظروف مريبة.

يقف ينّي إلى جانب الإنجليز، ويدافع عن السُّخرة بحجة أن الإنجليز يدافعون عن الحريات وعن مصر التي أذلها الأتراك! ويهدّد من يعارضون السخرة بالإنجليز والأحكام العرفية وفلسفة الأقوياء.

وأدرك ينّي من أحداث الثورة أن القرية تغيرت، وأن أهلها لم يعودوا كما كانوا، ولأنه رجل ذكي يفهم الأمور وتطوراتها، ويعرف متى يتقدم ومتى يتراجع، فقد قرر الانتقال إلى الإسكندرية حيث البورصة والأسهم والسندات وتجارة القطن والبنوك والتصدير والاستيراد، على أن يقوم وكيله الحاج إبراهيم بإدارة الأرض ومتابعة الفلاحين، ولم يكن عجيبا أن يتنكر لامرأة خفاجة التي جاءت تطلب منه أن يؤجر لها فدانين من الأرض، ولكن العمدة يؤجر لها فدانا، ويمنحها الشيخ عنبة جوالا مملوءا بالحبوب مساعدة لها.

ينّي شخصية اليهودي المعاصر الذي لا يعرف الرحمة وتحركه الأنانية، ولا أثر للإنسانية في تفكيره أو سلوكه. وهو لا يختلف كثيرا عن اليهود في عصر البعثة النبوية، ولا اليهود في القرن التاسع عشر، ولا في عصر المسيح عليه السلام، إلا في قدرته المتنامية على الأخذ بالمزيد من أسباب القوة التقليدية، والتقنيات الحديثة وأفضل معطياتها.

***

الفصل السادس

أساليب السرد

لاريب أن الكاتب وهو يصمم بناء روايته يتخذ لها من الأساليب السردية التي تسمى أحيانا تقنيات السرد، ما يوصل فكرته الروائية إلى القارئ بسلاسة ويسر، وتتفاوت حظوظ الروائيين في هذا المجال، بقدر مواهبهم وخبراتهم في استخدام هذه الأساليب التي تبدأ باللغة والتصوير وتنتهي بالحوار مرورا باستحضار النصوص القرآنية والتوراتية والتاريخية والأحاديث الشريفة والخطب والرسائل والأشعار والأزجال والأحلام...

هناك رؤى مختلفة حول دور المؤلف خارج الرواية، والسارد الذي يروي الأحداث داخل الرواية في تصميم الرواية والتعامل مع أساليب السرد وأدواتها المختلفة، ومن ثم تنبع قضية خلافية حول حضور المؤلف والسارد.

فإذا كان السارد موجودا، فأين المؤلف؟ وإذا كان المؤلف موجودا فأين السارد؟ و" لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"، فأين هذا السارد مع وجود المؤلف صاحب الشأن كما يقول عبد الملك مرتاض؟

السارد يحل محل المؤلف في السرديات الشفوية. ذلك حق. أما في السرديات المؤلفة فإن الكاتب الروائي هو الذي يتولى بنفسه. أي هو الذي يسرد حكايات روايته، ويخبرنا بما يجري من أحداث. فأما إن

كانت الرواية تقليدية فإنه يبدو لنا الملمّ بكل شيء عن شخصياته، ونواياها وأهوائها، وهواجسها، وعواطفها ومصيرها كما نرى في روايات الواقعية التاريخية التي أبدعها نجيب الكيلاني..

وأما إن كانت هذه الكتابة حداثية (تجديدية)، فإن الكاتب يحاول ألا يعرف أي شيء عن الحدث والشخصية، وكأنه يرافقها ويواكبها، ولا يتدخل لتغيير مجرى الأحداث السردية إلا بتخفٍّ شديد، وذكاء احترافي لطيف. (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 243).

ولاريب أن صرامة التصميم الروائي وفقا لما يطالب به بعض النقاد تمثل نوعا التكلف الذي يؤثر على عفوية البناء الفني، ويخضع العمل الروائي لما يسميه مرتاض "مكننة" الأدب بإخضاع الكتابة الروائية لضوابط دقيقة، وهو ما لا يفضي إلى نتيجة مثمرة. (انظر السابق، ص 249) . وأظن أن روايات الواقعية التاريخية، بل روايات الكيلاني جميعا تصب في إطار العفوية الذكية التي ترفدها الموهبة والخبرة في آن واحد.

وإذا كان جيرار جينيت يعرف العمل السردي بأنه عرض لحدث، أو سلسلة من الأحداث واقعية أو خيالية بواسطة اللغة، وبخاصة اللغة المكتوبة، فإن هذا التعريف يبدو قاصرا وليس جامعا مانعا.

إن الأحداث التاريخية تنضوي تحت لواء التاريخ – في تصور مرتاض- لا تحت لواء الحكي، وإلا فبم تميز بين الحدث التاريخي المستند إلى الواقع والفعل، والحدث الحكائي المستند إلى مجرد الخيال الخالص؟... (انظر السابق أيضا، ص252)

بيد أن نجيب الكيلاني قد حول أحداث التاريخ الحقيقية إلى عالم ساحر من الجمال والعذوبة بفضل عفويته وعبقريته الفنية، فحافظ على ثوابت التاريخ، ومنح القراء عالما لا يقل سحرا عن الخيال الجميل، وذلك بفضل امتلاكه للغة الفن بصفة عامة، ولغة السرد بصفة خاصة. وهو ما أطلقت عليه في كتابي " الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني " بالسهل الممتنع.

الرجل يملك لغة فطرية انسيابية لا تعمُّل فيها ولا تكلُّف. تشعر أنه يحدثك وجها لوجه، وصديقا لصديق؛ في جلسة ود اعتيادية، ويضيء لغته بألوان شتى من النصوص، وأنت تصغي في شوق إلى ما يقول، وتكره أن تقاطعه، لأنه يحقق كثيرا من تنظيرات النقاد المهتمين بالفن الروائي خاصة، والقصصي عامة.

موسيقى النثر

ولأن الكيلاني شاعر أيضا، فلعله يحقق ما يسمى "موسقة النثر القصصي"، وهو ما نطالعه على امتداد سرده السهل الممتنع.

يتحدث " هكسلى " في قصته تقابل الألحان paint conter paint وعنوانها يوحى بتركيبها الموسيقى عن ضرورة "موسقة النثر القصصي". لا بطريقة الرمزيين بإخضاع المعنى للصوت.. ولكن على نطاق أوسع في تركيب القصة ".

ويشرح " جورج ديهاميل " أهمية موسيقى الأسلوب الروائى في إسهاب نقتطف منه هذه السطور لأهميتها التي يقول فيها :

" إن موسيقى الأسلوب في نظري شرط لازم لسيطرته على النفوس. نعم إن الروائى الحق هو الذى يعرف قبل كل شيء بعضاً من أسرار الحياة، ولكنه أيضاً رجل يلجأ في التعبير عما يعلم؛ إلى موسيقى لفظية يستخدمها بطبيعته، فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه ". (انظر: طه محمود طه ، القصة في الأدب الإنكليزي، ص 212).

تتحقق الموسيقي في لغة روايات الواقعية التاريخية من خلال الوصف والتصوير الذي يعتمد على الصور الجزئية أو الكلية. وتتفاوت رقتها وعذوبتها من موضع إلى آخر.

كما تحرص لغة السرد في هذه الروايات على التناغم بين السياقات الروائية للأحداث وما يحيط بها لتتحقق الموسقة التي تحدث عنها ديهاميل. فهي مثلا تصف حالة المناخ أو الجو قبيل نقض بني قريظة لعهدهم والأحزاب تتسور المدينة لتتواءم مع الأحداث:

"الجو شديد البرودة، وأيدي الرجال تصلبت على مقابض السيوف والرماح، وعيون الرجال مفتوحة تشق الظلام تكاد لا تطرف، والصمت الرهيب يبسط رواقه فوق آفاق المدينة والروابي التي تحيط بها، وأطراف الرجال لا ترتعد أو ترتعش على الرغم من الهول والبرودة القارصة.." (نور الله ج1، ص 210)

وعندما تتدخل الإرادة الإلهية وتهزم الأحزاب، يصف السرد الموقف بصورة تبرز حركة الريح والعواصف والسحب ويمزج بينها وبين ما يشبه قعقعة السلاح وصهيل الجياد.. وحركة الجنود:

" وزأرت العواصف فجأة..

كان الليل باردا مظلما، والسحب تغطي السماء بأستارها القاتمة، والريح تصفر في جنون حتى إنها اقتلعت بعض الخيام، وقلبت كثيرا من قدور الطعام، وحملت النيران المشتعلة قسرا من مكان إلى مكان.. فاشتعلت بعض الحرائق..

وهتف عكرمة :" ماذا جرى؟؟ لكأنما قد انقضت الشياطين على عسكرنا.."

قال رجل في الظلام : " أخاف أن يكون المسلمون قد داهمونا فجأة.. إنني أسمع قعقعة سلاح وصهيل جياد.. وتكبير الجنود وتهليلهم.."

قال عكرمة في حنق :" إنه وهم يجسمه الظلام والخوف والعواصف.."(نور الله ج1، ص244)

إننا أمام تصوير لحالة الارتباك والذعر التي أصابت معسكر المشركين، تفيد من الصور الجزئية التي تصنع المشهد كله مثل: (الريح تصفر– حملت النيران قسرا- انقضت شياطين...)

اللغة هنا انسجام وتناغم ونظام. فاللغة الإبداعية نسج بديع يبهر ويسحر والأديب الكبير هو الذي يعرف كيف يتلطف على لغته حتى يجعلها تتوزع على مستويات، لكن دون أن يشعر قارئه باختلال المستويات في نسج لغته. (انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 128) مع التذكير أن اللغة قد تكون من أهم ما ينهض عليه البناء الفني للرواية، فالشخصية تستعمل اللغة أو توصف بها أو تصف هيأتها، مثلها مثل المكان والزمان والحدث، فلا وجود فاعلا لهذه العناصر لولا اللغة. (انظر: السابق، ص 125)

والسحر اللغوي إذا غاب عن العمل الروائي، غاب عنه كل شيء: غاب الفن، وغاب الأدب معا.

بالطبع ؛ فإن هذا السحر لا يأتي من خلال استخدام مفردات مهجورة صعبة وثقيلة، ولا من خلال عامية مبتذلة غير مفهومة خارج بيئتها.

ينبغي ألا يكتب الكاتب بلغة مقامات الحريري، ولا بلغة يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس من ناحية أخرى.. ولكن بلغة أنيقة تكون مفهومة وشعرية وبسيطة ورفيعة النسج.. (انظر: السابق أيضا، ص 133)

يصور الكاتب تأثير الإيمان في نشر السكينة والهدوء على المؤمنين وسط الأجواء المشحونة والاضطراب والخوف والرعب والمفاجآت:

"فهناك قوة عليا تحرس الوجود كله.. قوة لا تُقهر ولا تنام.. بيدها وحدها مصير الأنام. هذه الألوف بسيوفها وحديدها وتدابيرها أمام هذه القوة الكبرى.. القوة الإلهية .. أسراب من نمل ضعيف.. وبنفحة واحدة تتبدد هذه الأسراب، ويذوب حقد الحاقدين ومكر الأغبياء والحمقى ..

فلماذا لا تنام هند وينام رابح؟"(نور الله ج1، ص 222)

ويصور ذعر حيي بن أخطب بعد رحيل القبائل وانهيار أحلامه في الثأر من المسلمين:

"لقد تحولت الأحلام الوردية إلى كومة من رماد تختلط بالقاذورات والعفن.. أهذا هو الحصاد يا بني قريظة ؟؟ لقد رحلوا.. حلفاؤنا

رحلوا إلى مكة وغطفان.. هناك يجدون الحماية، بعيدين عن النار والثأر والعقاب بعيدين عن المدينة.. أما نحن.. آه.. الطريق يمتد أمامي أسود فاحما كوجه إبليس.. وعلى جانبيه الأفاعي.. ينثر على ثراه الشوك والعذاب والحفر.. وهيهات أن يعود الصفاء والسلام". (نور الله ج1، ص246)

الوصف الحركي

في سرده يعتمد الكيلاني على ما يمكن تسميته "الوصف الحركي" إن صحت التسمية؛ ليقدم الصورة التي يريد رسمها للقارئ في أفضل حالاتها تأثيرا ودلالة وعمقا، من خلال أداء مبسط، ومحكم، كما نرى في تصويره لغدر داود هراري بصديقه الحميم الأب توما، ثم ذبحه من أجل ما يسمى الفطير المقدس:

"وسار الرجال في موكب مهيب يتقدمهم البادري وداود والحاخامان الكبيران، إنها صورة للتسامح والمحبة بين أتباع دينين عرف العداء الشديد بينهما من قديم الزمان، منذ العشاء الأخير للمسيح.. ودلفوا إلى بيت داود عبر الباب الصغير، واجتازوا الممشى الضيق المعتم، وانحرفوا صوب المربع الجديد.

لو قيل للبادري إن البحار هاجت وماجت واشتعلت أمواجها نيرانا فجأة لصدق الأمر، أما أن يرى صديقه الحميم اليهودي الصالح داود يكشر عن أنياب الغدر، وتنقلب سحنته الطيبة فجأة إلى سحنة شيطان شرير، ثم يقترب منه يريد أن يفترسه؛ فهذا أمر لا يمكن تصديقه، تمتم البادري " ماذا جرى ولِمَ؟". لم يجب داود

بشيء. نظر البادري حواليه سائلا الرجال:" هل تصيبه هذه اللوثة من آن لآخر..؟ لم أكن أعرف".. وفي لحظات كان البادري مغللا بالحبال، لا يستطيع الحركة.. وبدأ يشعر بآلام الحبال تحز في جسده الرقيق، وهمس في دهشة وقد شحب وجهه: أنتم أيضا تشاركون داود فيما يفعل؟؟" ونفض البادري رأسه، وفتح عينيه جيدا، وهتف في استغراب:

-" هل أنا في حلم أم في يقظة؟ أيها الرجال الطيبون وماذا تنوون أن تفعلوا بي؟".

قال الخام سلانيكي ساخرا:

- أنت مقدم إلى المحاكمة".
- ولكنكم تمزحون مزاحا ثقيلا لا يليق بكم ولا يليق بي..
- **زعمت أنك تطمع في تحويلنا عن ديانتنا إلى المسيحية أتقر بذلك؟!**

قال البادري وأمارات الألم ترتسم على وجهه وفي عينيه:

- نحن لا نسوق الناس سوقا إلى بابه وحرية الاختيار للجميع، وصاحب كل دين، أي دين، يدعو الناس للهداية بطريقته السلمية. هكذا أمرنا السيد المسيح...

وضحك الرجال في هيستيرية وقال داود:

- حسنا ، إن ديننا يأمرنا بأن نسفك دمك. أترانا نطيعه أو نخالفه ؟؟

- فال البادري وقد دق قلبه بعنف:
- إنك تمزح يا داود.

أخرج الحاخام سلانيكي كتابا صغيرا من جيبه ثم قال:

- إذا فلنقرأ كلمات التلمود عن الفطير المقدس المعجون بدم المسيحي.. لنقرأ معا....." (حارة اليهود، ص 37-39)

ويمتد السرد على هذا النمط مازجا بين الوصف، والحوار والنصوص التلمودية التي تحض على القتل والذبح، بالإضافة إلى تفسير التاريخ على طريقتهم الخاصة، وذلك لتقديم مشهد حي متحرك من أبشع مشاهد الغدر اليهودي بشخص وثق في اليهود وكان صديقا حميما لهم ومقربا منهم، وعندما تحركت في أعماقهم شهوة الغدر والحقد الكامنة التي تغطيها الابتسامات والكلمات الحلوة والمزاعم الزائفة الكاذبة، لم يترددوا في ذبح الرجل وقتله وسط الهستيريا الوحشية والفرح الشيطاني.

يضاف إلى المشهد ما قامت به كاميليا زوجة داود حين لفت على خصرها شالا حريريا لترقص وسط الغناء ودقات الدفوف وتصفيق الأيادي وضحكات الأطفال والانتشاء بذبح الضحية المسكين الأب توما!

وفي سرده يغوص الكاتب في أعماق الشخصية الإنسانية، حتى لو كانت شريرة فهناك في داخل الإنسان العميق المجهول حيز لا يستطيع الخداع أن يتسرب إليه، كأنما أحاطه الله بأسوار وحواجز لا يمكن أن تخترقها قوة الشياطين، وإلا لماذا يشعر سليمان الحلاق بالخوف الآن بعد أن أوكلت إليه مهمة ذبح الأب توما؟ ولماذا يرتجف قلب مراد الفتال والحاخامات والرجال من أسرة هراري وهم يؤدون

دورهم البغيض وفي داخل كل منهم صوت يرتفع: لا.. ويرفض تنفيذ الأمر، وهم مقتنعون أن ما يقومون به فريضة دينية نادى بها التلمود وأكدها الأحبار؟؟ لو كان أمر دين ما حدث هذا التردد، ولا داهمهم ذلك الخوف، ولا أعجزهم الارتباك...

تشبيهات

بعد الهدنة في فلسطين وانكشاف الخيانة وانتشار الخبر المشئوم بالتوقف عن القتال مما خيم على الجنود بأسى حزين؛ يصور الكاتب المغتصبات التي حولها الصهاينة إلى قرى ومساكن ويقارنها بالقرى العربية المهزومة:

" وبدت المستعمرات الصهيونية من بعيد كمجموعة من العاهرات عرايا في تبجح وصفاقة، وانتثرت القرى العربية على مدى البصر كقطع من الضباب الداكن.. وارتعشت رءوس النخيل كعمالقة ينوحون.." (أرض الأنبياء، ص 284)

وتأمل صورة الثورة المصرية ضد الفرنسيين التي تنشب كلما أخمدوها، كما صورها كاتب فرنسي ونقلها عنه الكيلاني في سرده:

" يتحدث برتلمي ساخرا:

انتهت الثورة؟ يا له من حلم!.. لقد نشبت من جديد في أقاصي الصعيد والوجه البحري، وصدق صديقنا الفرنسي" ريبو" الذي يقول في أحد مقالاته:" كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين، فرض الغرامات على البلاد، لكن الثورة كانت كحيّة ذات مائة رأس، كلما أخمدها السيف والنار في

ناحية، ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت، فكأنها تعظم ويتسع مداها، كلما ارتحلت من بلد لآخر"... (مواكب الأحرار، ص163)

صياغة شعرية

ويقترب السرد من الصياغة الشعرية حيث نسمع كلام الحاج مصطفى البشتيلي بعد مغادرة الزنزانة في الليل وخروجه إلى الشارع بعد اعتقال وتعذيب:

" آه.. عدت إليك يا ليل القاهرة، يا ذا الأسرار الغريبة.. يا ذا الرموز والأشباح والذكريات والمواويل الحزينة.. عدت إلى الشوارع الخالدة من مئات السنين التي لا تهجرها الخطوات العنيدة والسير المستمر إلى الأبد.. إلى المساجد السامقة بمآذنها وقبابها.. إلى القبة الزرقاء الصافية.. إلى الرجال الذين تجمدت الدموع في مآقيهم، وامتلأت قلوبهم بالعزم الحديدي.. إلى الأطفال يا قاهرة المعز.. وللأطفال في قلبي منزلة فريدة تزخر بالحب والبراءة والحيوية والسعادة البالغة..

آه.. عدت إليك يا ليل القاهرة.. يا قلبها الخافق.. هذا هو عهد الله.. أن أظل أنسج من خيوط الليل المدلهم الدرع الواقي لمجدك يا بلدي.. وأظل أدق أعتاب" المقطم" حتى ينبثق فجر المني.. ويبدد الشقاء والعناء.." (مواكب الأحرار، ص 204 ونلاحظ أن حديثه عن الليل في السطور يذكرنا بسطور من الشعر المنثور كتبها جبران خليل جبران عن الليل).

ثم تأمل هذا التشبيه الجديد الذي يشبه به الخواجة يني:
" شديد سواد القلب كما يقول الفلاحون، يشبه إلى حد كبير فص القطن الأبيض بداخله بذرة سوداء.."، وهو تشبيه مستوحى من الواقع الريفي الزراعي الذي يجعل المشبه قريبا ومألوفا من أهل الريف أو الفلاحين، وفي الوقت نفسه يخرج من دائرة التشبيهات المألوفة أو المكررة.(النداء الخالد، ص58)

أخطاء

وفي كل الأحوال لا يخلو السرد من بعض التصحيفات أو الأخطاء الصرفية أو النحوية، مثل قوله:
"إنها طعم مغري يا قطان"، والصواب "مغرٍ"(طلائع الفجر، ص72)
أو قوله:
"لكن المخلصون الذين يحملون الأنباء للرسول لا يمزحون.." (على أبواب خيبر، ص95) والصواب :" المخلصين" اسم لكن منصوب.
"وإن يك صادقا يصيبك بعض الذي يعدكم" (على أبواب خيبر، ص 98) ، والصواب "يصبك" لأنها جواب الشرط مجزوم.
"أنا لا ألوم أبي ولا ألوم محمد" (على أبواب خيبر، ص114)، والصواب: ولا ألوم محمدا، مفعول به.

الحضور القرآني في السرد

يمثل الإعجاز القرآني نموذجا رفيعا في الصياغة والأداء الأسلوبي، ويتمثل ذلك في السور والآيات والمعاني والدلالات، والكاتب الحافظ للقرآن يملك زاد يفوق به الآخرين في كتابته وسرده وأدبه بصفة

عامة. ونلاحظ تفوق الكتّاب البارزين والشعراء المشهورين الحافظين للقرآن الكريم والحريصين على مداومة قراءته في أساليبهم وصياغاتهم من أمثال: مصطفى لطفي المنفلوطي، أحمد حسن الزيات، مصطفى صادق الرافعي، عبد العزيز البشري، محمد السباعي، كامل كيلاني، آل تيمور، عباس محمود العقاد، طه حسين، إبراهيم المازني، على الجارم، محمد عبد الحليم عبد الله، نجيب محفوظ، على أحمد با كثير، محمد سعيد العريان، عبد الحميد جودة السحار، ثروت أباظة.. على سبيل المثال، ومن ضمنهم بالطبع نجيب الكيلاني.

وقد أضفى الحضور القرآني على روايات نجيب الكيلاني وقصصه عامة، نوعا من الجمال التعبيري البارز والعمق الدلالي المتميز. وهو حضور قائم بكثرة في كل رواياته وقصصه تقريبا، سواء بالتأثير غير المباشر في الأسلوب، أو الاستدعاء المباشر.. نجده في افتتاح بعض الروايات، وفي متنها، في السرد وفي الحوار، لتحقيق غايات متعددة تشد القارئ إلى الإعجاز القرآني، وتضيء اللحظات السردية بما يعمق دلالتها أو يؤكدها، أو يوجه إليها.

يفتتح المؤلف رواية نور الله، وهي أطول الروايات، وتتكون من جزئين، بآية من سورة المائدة تتحدث عن عداوة اليهود للمسلمين والإنسانية عامة لأن الرواية تركز على الصراع بين اليهود والإسلام، ومقاومتهم له بكل الوسائل والأساليب:

" لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ"(المائدة:82).

ودلالة الآية واضحة، تبرهن عليها أحداث الرواية، وسلوك الزعامات اليهودية المتمثل في النفاق، أو الخداع والغدر.. والآية تأتي في سياق التوكيد الثقيل، اللام، ونون التوكيد الثقيلة (لتجدنّ) ، وبعدها أفعل التفضيل (أشد الناس)، وهو ما تبسطه الرواية وتعالجه باستفاضة. وبهذا تكون الآية قد رسخت فكرة الرواية بصورة ما في ذهن القارئ، وهيأته ليطالع سلوك العداوة اليهودية مكانيا وزمانيا، وعلى مستوى الشخصية والجماعة اليهودية.

وفي ثنايا الرواية يكون الحضور القرآني عامل تغيير في سلوك الشخصية وتحولها من موقف إلى آخر، كما نري في قوله تعالى:

" وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا. وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (طه: 111-114)

هذه الآيات قرأها عمر وتأثر بها عندما هجم على بيت أخته ليتحقق من إسلامها وزوجها، ومتابعتهما لمحمد، وقد أحدثت قراءة الآيات لديه تحولا كبيرا وبثت في نفسه صراعا عظيما انتهى بنطقه بالشهادتين.

وفي مجال بيان طبيعة الإسلام والإيمان؛ تطرح الروايات في سياقات سردية أو حوارية الآيات القاطعة التي توضح الحرية المطلقة للأشخاص في اختيار الإيمان أو الكفر، مع تحمل المسئولية بعدئذ أمام الله.

"وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " (الكهف:29)

ويتردد مقطع اختيار الإيمان أو الكفر في أكثر من موضع للدلالة على أن الإسلام لا يفرضه أحد على أحد ولا يجبره على الدخول فيه. (انظر: نور الله ج1، ص161)

كما يكشف الحضور القرآني عن كيفية الدعوة إلى الإسلام، وأنها تقوم على وعي الداعية وفهمه الصحيح للدين وقيامه على بصيرة تدرك أعماق الدعوة والمدعو إليها في آن واحد، مع تعظيم الله سبحانه، ورفض الشرك بالواحد الأحد:

" قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.." (يوسف، 108)(انظر : في نور الله ج1، ص161)

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام تقوم على الإقناع والاختيار، فإن الدفاع عنها من خلال فكرة الجهاد لرد عدوان المشركين، وإبطال مكائد الكافرين، أمر يقتضي التضحيات، التي تصل أحيانا إلى الموت، أو الاستشهاد من أجلها، وهنا يكون القتل في سبيل الله حياة،

وبعثا لمن استشهد، وعيشا في الجنة واستمتاعا بما فيها من رزق وعطاء..

" وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ". (آل عمران: 169).

والآية تبث الطمأنينة في نفوس المسلمين، وتبعد فزع الموت عن قلوب المجاهدين (نظر: نور الله ج1، ص181)

وهناك آيات تبشر بالانتصار على الأعداء وهزيمتهم، مهما تساقط من شهداء في ميدان القتال، وكما هناك شهادة؛ فهنا نصر مؤزر وفتح مبين:

".. وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" (الروم:47)

وتسجل الآيات في إطار البناء الروائي نماذج من انتصار الإسلام على أعدائه، وتمكنه منهم، فالمشركون تجمعوا فيما عرف بعزوة الخندق أو الأحزاب، بأعداد ضخمة، وجاءوا بالسلاح والعتاد والفرسان ليسحقوا المسلمين، ويقضوا على الدعوة تماما، ولكن صمود المسلمين وثباتهم وصبرهم ،جعل النصر من نصيبهم، وكان طبيعيا أن يعاقب الخونة من يهود بني قريظة، الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين، وانحازوا للمعتدين، وتخلوا عن واجب الدفاع عن يثرب (المدينة)، فسجل القرآن الكريم هذا المشهد في بيان رائع:

" وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا. وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

فَرِيقًا. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا" (الأحزاب:25-27)

لقد انهزمت الأحزاب، وتم تطبيق العقاب على الخونة اليهود من بني قريظة وقتل زعيمهم حيي بن أخطب (انظر: نور الله ج1، ص278)

وما كان هذا الانتصار على أعداء الخارج وخونة الداخل إلا بالجهاد والبذل والتضحية من المجاهدين المخلصين المؤمنين الصادقين:

" مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا" .(الأحزاب:23)

والآية تصف المجاهدين الذين حققوا هذا النصر بعون الله. فقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه والتضحية في سبيل الدفاع عن دينه، فانتهوا إلى فريقين؛ الأول الشهداء الذين انتقلوا من الدنيا إلى الآخرة، والآخر ما زال مرابطا على ثغور الدين دفاعا وتضحية وانتظارا وثباتا على الإيمان حتى يأتي أمر الله.

كانت امرأة يهودية تهمس في أذن جارتها بعد هزيمة الأحزاب وتنفيذ القصاص في بني قريظة، موضحة أن المسلمين يعزون النصر إلى الله الذي هزم الأحزاب وحده. فأنزل الله الآيات السابقة من سورة الأحزاب (انظر: نور الله ج1، ص279)

وفي حديث الشيخ عنبة في أثناء ثورة 1919عن الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، وما لقيه الرسول– صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من نفي وتشريد واضطهاد، يستشهد بالآية الكريمة ".. ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون" (الأنبياء:35)، ولم ينس أن يتذكر

حبيبه جمال الدين الأفغاني وقوله:" بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة.. "، (النداء الخالد، ص 55 وانظر أيضا صفحات 44،53، 117،139).

إن الاستشهاد بالقرآن الكريم يبث في النص السردي روحا إسلامية ومعجما إسلاميا يتفق مع المزاج الجمعي الاجتماعي المخاطب في مصر والبلاد العربية والإسلامية؛ حيث يكوّن القرآن الكريم مع الحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام أساس الثقافة الإسلامية ومضمونها. وبذا يكون السارد قريبا من روح القارئ ووجدانه وطبيعته، فضلا عن التأثير البياني، والتوكيد الدلالي، والفضاء الجمالي الذي يحدثه الحضور القرآني في السرد والحوار بصفة عامة.

وتجدر الإشارة إلى أن التصحيف قد يلحق بعض الآيات الكريمة بسبب قصور المراجعة أو لأسباب أخرى. ومن ذلك قوله تعالى:

" لقد كان (سقط) في يوسف وأخوته آيات للسائلين" (مواكب الأحرار، ص217)، والصواب " لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين"(سورة يوسف:7)

الأحاديث والمأثورات

تقف الأحاديث والمأثورات النبوية والأدبية إلى جانب الحضور القرآني، في تقديم التصور الإسلامي عبر السرد، وتوضيح التوجيهات النبوية بشأن الحياة والمجتمع والسلوك مع الآخرين وفق منهج إسلامي إنساني عادل.

وفي حضور الأحاديث والمأثورات ما ينقل السرد من المستوى العادي للأسلوب إلى مستوى أكثر حركية وتعبيرا عن روح الإسلام في التعامل مع الواقع.

فعندما يحاول حيي بن أخطب التأثير على أتباعه اليهود كي يؤلبهم ضد محمد، ودينه، فإنه يأخذ من الحديث "اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين" دليلا على أن محمد يبهر التعساء والضائعين، بحلو حديثه وسحر بيانه وحدة ذكائه، ويراهن اليهود على ذكائهم القوي وحسم السيف الذي يضع نهاية محتومة لكل الخارجين على نظام الحياة المقدس من وجهة نظرهم. (انظر: نور الله ج1، ص 116)

وأيضا يتخذ من الحديث الشريف: " لن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما" دليلا على تعلق المسلمين بنبيهم الكريم- صلى الله عليه وسلم- واندفاعهم وراءه والتضحية بكل شيء وترك الدنيا وراءهم بكل ما فيها من مال وزخارف وأهل وولد". (راجع: نور الله ج1، ص182).

وتبرز أهمية الأحاديث التي تتضمن أدعية مرفوعة إلى الله، في السرد الروائي بروايات الواقعية التاريخية، حين نرى دواعيها، فالحيث الشريف:

"اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا" الذي أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بترديده عندما بلغت القلوب الحناجر في أثناء حصار الأحزاب، ويرفع يديه إلى السماء، ويقول:

" اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب.. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم.. أيها الناس.. لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإن لقيتم العدو فاصبروا.. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف..

يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فإنك ترى ما نزل بأصحابي.."

ومعلوم أن الله يستجيب دعاء المضطر والمظلوم والمستجير به، وهو في كل الأحوال يربط الداعي بالمدعو الذي يملك الحول والطول، والاستجابة والعفو. وعند الكرب والشدة تبرز أهمية الدعاء كما حدث للمسلمين في غزوة الأحزاب التي ابتلي فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، فاستجاب الله دعاءهم، ونصرهم على المعتدين والخائنين. (راجع: نور الله ج1، ص220)

وحين يكون الحديث معبرا عن السعادة الإنسانية متسقا مع الفطرة فإنه يكون سلاحا قويا في أيدي المؤمنين بالإسلام، وهو ما لاحظه أحد اليهود الحكماء، في الحديث الشريف الذي يقول:

" من بات آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها".

حيث علق اليهودي الحكيم بقوله: إن أخطر ما في محمد أنه استطاع أن يحرر طاقات الإنسان فأبدع ..." ويعلق يهودي آخر بالقول:" فكيف تهزمون رجلا هذا شأنه. فلنبحث لنا عن طريق آخر غير الحرب..." (انظر: نور الله ج1، ص 285)

وتلعب الأمثال العربية الموروثة دورا في إثراء الأسلوب بالحكم القديمة التي تؤكد ما يحدث في الحاضر.

من ذلك مثلا ما جرى بعد غدر يهود بني قريظة بالمسلمين في أثناء غزوة الأحزاب وخيانتهم لهم وانحيازهم لقوى الأحزاب التي جاءت لسحق المسلمين والقضاء عليهم وانتظارهم للعقاب فقد اطلق أحدهم المثل العربي الشهير:

"على نفسها جنت براقش"

ليؤكد على استحقاق اليهود للعقاب الذي سينزل بهم.

ومعروف أن براقش هي الكلبة التي دلت الأعداء بنباحها على قومها فهلكوا! (انظر: نور الله ج1، ص244)

الخطبة

يلجأ الروائي إلى الخطبة في بعض الأحيان ليلون طريقة السرد، ويتخطى بعض العقبات التي تجعل من الصعب عليه تقديم بعض الأحداث أو تصوير بعض الشخصيات بطريقة سلسة فتكون الخطبة جسرا من الجسور التي يعبر عليها السارد ليوصل ما يريد إلى القارئ، وإن كانت هناك مزالق يمكن أن يقع فيها الكاتب حين تكون كيانا منفصلا عن السرد، أو يمكن اجتزاؤها منه، أو حين يتفاوت أسلوبها مع أسلوب السرد بشكل كبير؛ فتصبح كيانا غريبا عنه.

ويمكن القول بشكل عام إن الخطب في روايات الواقعية التاريخية عند نجيب الكيلاني موظفة بشكل جيد، وتؤدي دورها السردي بصورة مفيدة.

فلنتأمل خطبة حيي بن أخطب وهو يخطب في يهود بني قريظة محاولا إقناعهم بسلامة تخطيطه وتدبيره ضد الدعوة والمسلمين، وسط معارضة قوية له، بل اتهام بأنه هو الذي قاد بني قريظة واليهود إلى المهالك، وتتعدد أساليبه في الخطبة في محاولة لدفع التهمة عن نفسه، والبحث عن أسلوب يناسب هؤلاء المعارضين له الذين تحطمت آمالهم، وتلوثت بالقاذورات، ويتناسب مع الذعر الذي يعيشونه أمام الكارثة الوشيكة الوقوع وهي العقاب الرادع من جانب المسلمين بعد انكشاف غمة الأحزاب وهزيمتهم بفضل الله؛ فيخاطبهم قائلا:

"يكفي ما تعرضنا له من هجوم ومآس، وأراكم فعلا متعبين وفي مسيس الحاجة إلى أيام من الدعة والهدوء حتى تسكن نفوسكم وأرواحكم، وتستقر أفئدتكم.. ولهذا سوف أوفد الرسل إلى محمد بن عبد الله مستعينا بحلفائنا الأقدمين من الأوس والخزرج.

وسنبدي له أسفنا واعتذارنا، بل واستعدادنا المطلق لكل ما يطلبه منا، مقابل الصفح عما ارتكبناه في حقه من نقض للعهد.. لقد كان في نيتنا يا بني قريظة أن نغتال محمدا وأن نقضي على المسلمين لكن شيئا من ذلك لم يوضع موضع التنفيذ، ومن ثم فإن فرصة الصلح مع محمد فرصة كبيرة.. وبعدها يعود الوئام والاطمئنان، وتسود روح الود والصداقة بين اليهود والمسلمين من جديد، وساد الصمت فترة وجيزة.

وعاد حيي بن أخطب يصيح قائلا:

- ما رأيكم؟

قال احد الشيوخ:

لعل هذا هو التصرف الوحيد الذي قد يؤدي إلى حقن الدماء وسيادة السلام وما أظن أن هناك بديلا لهذا التصرف.. وقال حيي بن أخطب معلقا:

ومع ذلك يجب أن نكون على حذر.. سيوفنا في أيدينا ورجالنا في قلاعهم وحصونهم، ومداخلنا محروسة، والجميع على أهبة استعداد، إنه قد تجد أمور يا بني قريظة .. فلا مناص من الحيطة والله الموفق.

وارتفعت ضحكة ساخرة..

وتلفت حيي بن أخطب، ليرى من هذا الذي لا يحترم مشاعر الأسى العام الذي لف الربوع، وحط على قلوب الناس ووجوههم؟

- من؟ كعب بن أسد؟ أين كنت؟ ولم تضحك؟

استجمع كعب كل شجاعته وقوته، ثم بصق.. بصق بقوة في وجه حيي بن أخطب.. وصرخ قائلا:

ألم أقل لك إنك امرؤ شؤم؟ ألم أقل لك يا حيي بن أخطب، إنك جئتني بذلّ الدهر، وكل ما يخشي، جئتني بجهام (سحاب) قد أهرق ماءه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء.

ألم أقل لك يا حيي دعني وما أنا عليه.. فإنني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.. عم تتحدث الآن أيها الشيطان؟ لقد أحاط بنا الفناء

من كل جانب.. إن الشيء الوحيد الذي يبرد غلتي، ويهدئ من ثورتي.. هو أنك معنا.. معنا.. لتشرب من نفس الكأس المريرة المذاق.. تلك التي ستشربها حتى الثمالة.. أيها الملعون.." (انظر: على أبواب خيبر، ص21-24)

في هذه الخطبة تركيز من جانب حيي بن أخطب على العواطف والمشاعر، ومحاولة للتبرير والدفاع عن الخطأ، وفيها أيضا اعتراف بالجريمة التي اقترفها اليهود، وفيها كذلك حوار يقطع الخطبة، ويعارض الخطيب ويفحمه ويهجوه، وفيها تصوير لمشاعر اليهود المخدوعين من جانب الخطيب الذي يمثل زعامة فاشلة. ويمكن أن نطالع خطبة أخرى على هذا المنوال ألقاها سلام بن مشكم في المقاتلين اليهود بحصن أنطاد بخيبر قبيل لقاء جيش المسلمين يحضهم فيها على الاستبسال في المعارك وتحقيق النصر لقومه، ويركز فيها على بعض الجوانب التي تشعل حماسهم وتدفع بهم إلى أتون المعركة. (انظر: على أبواب خيبر، ص 111)

في مسجد زغلول برشيد يجتمع الأهالي من كل الطبقات ويخطب فيهم إمام المسجد حين يرى الفوضى التي شاعت في أثناء الحوار حول مقاومة الإنجليز ويدعوهم إلى مراعاة حرمة المكان.. بيت الله، **يقول:**

"أيها الناس.. يا أبناء رشيد.. أنتم في بيت من بيوت الله، فلتراعوا حرمة هذا المكان المقدس، واخفضوا من أصواتكم، ولا تميلوا بنا إلى

هذه التشعبات ونبش الماضي في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى تكتيل الجهود، ولم الشعث، وتناسي الأحقاد قديمها وحديثها..

إن علماءكم وأولي الأمر بينكم، وأصحاب الرأي والتدبير يقدمون الصفوف أمامكم، مضحين بكل ما يملكون.. طاهر بك.. مراد باشا.. رجال الأسر الكبيرة.. الميقاتي والنقرزان والحمامي والجارم.. كلهم يقاتلون معكم جنبا إلى جنب..

ثقوا بالله... واعلموا أن النصر بعد ذلك مواتينا، ولن يستطيع هؤلاء الكفرة المعتدون أن ينالوا امن أرضنا وكرامتنا ودينا.."

"لن يعود فريزر إلا بما عاد به الفرنسيون من قبل، ولن يجني غير ما جناه الصليبيون بالأمس البعيد.. سيعود هو وجنوده مدحورين، وقد لا يعودون على الإطلاق..

أما حكام القاهرة فهم آتون إلينا لا محالة، فهم يفهمون دائما أن العدو إذا أكلنا فسوف يثنّي بهم، وقد يلتهمهم مثلما التهمنا، فهم منا ونحن منهم ، وقد بلغتنا أخبار أكيدة اليوم تقول إن الهدنة قد تعقد قريبا بين محمد على وأتباع البرديسي في الصعيد حتى يتفرغ الجميع للعدو الخارجي.." (طلائع الفجر، ص39 وما بعدها)

والخطبة جزء من الحوار المجتمعي إذا صح التعبير، حيث يعبر الناس عن واقعهم وما يدور في أنفسهم، وحين تتقاطع الأصوات والآراء يتدخل إمام المسجد ليخطب فيهم ويدعوهم إلى مراعاة حرمة بيت الله، والوحدة في الموقف، ويذكرهم بما يقدمه كبارهم وقادتهم من تضحيات، ومشاركة في القتال، كما يذكرهم أن الإنجليز لن

يعودوا إلا بما عاد به الفرنسيون، والصليبيون في الزمن البعيد.. إنه يحرضهم على المقاومة والتضحية والصبر، ويبشرهم بقرب الاتفاق بين حكام القاهرة الذين سيحضرون للمشاركة في القتال ....

وكما نرى فالخطبة تتضمن توجيهات باحترام بعضهم والتكاتف وتوحيد الجهود، وأخبارا عن الاتفاق بين محمد على والبرديسي للتفرغ لقتال الغزاة، وتذكيرا بالماضي الذي يبث فيهم العزيمة والمثابرة..

الرسالة

الرسالة من الأدوات الفنية التي يستخدمها الكيلاني في رواياته. واستخدام الرسائل يساعد في الكشف عن المشاعر وتوضيح أحداث الواقع والتعبير عن الرؤى والأحلام التي تحملها الشخصيات تجاه المستقبل كما نرى في رسالة ضحى إلى خميس من القدس.

ورسالة ضحي تقدم مدينة القدس العتيقة وما يجري فيها من أحداث، وأحوال اللاجئين في داخلها وعلى مشارفها، وجهودهم للإسهام في المعركة ضد الغزاة اليهود مثل المركز الطبي للإسعافات، وقد صارت ضحى واحدة من العاملات به تستقبل الجرحى والمرضى في بشاشة، فتضمد الجراح، وتعالج الآلام، كما تحمل أخبارا عن بعض الشخصيات المرتبطة بالرواية وأحداثها، فضلا عن التعبير عن مشاعر الفتاة تجاه خميس الذي تحبه، وتتمثل فيه مع رفاقه الذين يضحون ولا يرجون من الناس جزاء ولا شكورا أحلام أمة تأبى أن يقهرها الطغيان. (انظر: أرض الأنبياء، ص115 وما بعدها)

وهناك مثلا رسالة صالح إلى أبيه الأستاذ أحمد بدران ، وتأتي بعد وقت طويل من سفره، فتجعله يطمئن عليه، وتحمل أخبارا عن تقدم كتيبته عمر بن الخطاب أميالا عديدة تجاه المناطق التي يحتلها العدو في فترة وجيزة، واستطاعت الكتيبة تطهير منطقة "بتير" و"سور باهر" وما حولهما من أوكار الصهيونية، كما تنوه الرسالة إلى أن المقاتلين في صفوف المتطوعين من شتى الأقطار ويمثلون الوحدة العربية. كما يخبر والده أن الوقت ضيق والالتزامات كثيرة، وهو سبب إيجاز الرسالة....(أرض الأنبياء، ص 194 وما بعدها)

ومن الرسائل ما كتبه أحمد شلبي إلى صابرين يعبر من خلالها عن مشاعره، وتكون الرسائل في هذا السياق تعويضا عن اللقاءات المباشرة التي تبدو صعبة التحقيق لأسباب مختلفة.

ومنها الرسالة التي كتبها قبل سفره إلى القاهرة، والتزم فيها منهجا محافظا مؤدبا يختار الكلمات التي يسطرها قلمه المرتعش بعناية:

"عزيزتي صابرين:

لا أعلم هل ستسعدين بهذه الكلمات أم لا.. لكن الشيء الأكيد هو أني أكتبها بروحي وقلبي، لأني مؤمن أشد الإيمان أن أحلى لحظات عمري، هي تلك اللحظات التي سنلتقي فيها تحت سقف بيت الزوجية.

عزيزتي صابرين:

في قلبي كلمات كثيرة لا أستطيع أن أخطها على الورق، فالكلمات- في أغلب الأحيان- تعجز عن التعبير الصادق عن أشواق روحي وأمنيات حياتي..

عزيزتي:

منذ سنوات، وأنا أعتقد أن الله قد خلقك لي، ولم يزعزع إيماني قط ما كان يحدث بين أسرتينا، من خلافات متوالية، وقلبي لم يتنكر يوما للمشاعر النبيلة التي أكتها لك".

وتستمر الرسالة على هذا النحو المتحفظ المهذب ليخبرها أنه مسافر غدا ويحلم بيوم العودة، وينتظر أن تكتب إليه ويهديها كتاب حديث عيسى بن هشام. (النداء الخالد ، ص 89)

ويكون هذا الخطاب أول نغمة قدسية تتسلل إلى روحها، وأول أغنية حانية تتغلغل في أعماقها البكر فتشعر أنها تعيش وتنمو.. وأن الدنيا طوع بنانها.. فتكتب صابرين لأحمد رسالة طويلة في أيام المظاهرات، وترسلها بالبريد إلى القاهرة، وتتناول أحداث الثورة في البلاد وأحوال المرأة من خلال أفكار قاسم أمين وآرائه، وتشير إلى أن الثورة شاملة.

الصحف

وتعد الصحف والإذاعات (لم يكن هناك يومها تليفزيون ولا انترنت) والسجلات الرسمية مثل المحاضر الشرطية والفرمانات (قرارات الوالي) نافذة من النوافذ المهمة التي اعتمدت عليها بعض روايات الواقعية التاريخية التي تناولت حركة المقاومة للاحتلال الصهيوني في

بداياتها وخاصة في أثناء حرب 1948، وبعض الجرائم التي ارتكبها اليهود في أواسط القرن التاسع عشر (رواية أرض الأنبياء، ورواية حارة اليهود. ومهمة هذه الوسائط كشف الجانب الآخر من حوادث الصراع مع العدو في فلسطين، أو بعض العواصم العربية، فضلا عن كونها تضيء حركة الشخصيات والقوات المحاربة وجموع الضحايا العرب، بما تنشره من أخبار وما تبثه من موضوعات حول سير القتال، وما تسجله من اعترافات وأحداث. ويمكن للقارئ مثلا أن يعود إلى رواية "حارة اليهود" ليجد صورة لبعض صفحات التحقيق مع قتلة الراهب البادري توما، وقد استقى منها الكاتب بعض السطور في ثنايا السرد ليوضح كيفية ارتكاب الجريمة.

التضمين بالشعر

يعطي التضمين بالشعر إذا كان في مكانه الفني بُعدا مهما للسرد، فهو ينقل القارئ إلى جو الموسيقى والطرب الأسلوبي، ويؤكد على المعاني التي تفيض بها الشخصيات والأحداث. ولأن نجيب الكيلاني شاعر أيضا، فهو يقدم بعض المقطوعات من شعره، أو من محفوظاته، وكان صاحب ذاكرة لاقطة، لشعراء آخرين.

في فلسطين كان هناك شاب من الأزهر الشريف متطوعا ضد العصابات الصهيونية، ويرقد مصابا في مركز الإسعاف؛ وكان ينظم بعض القصائد الملتهبة عن فلسطين ويلقيها على المرضى وتسمعها الممرضات والأطباء. ويفعل ذلك بوصف الشعر سلاحا من أسلحة المعركة إلى جانب البندقية والمدفع حيث يجيّش النفوس ويبعث

الأمل على النصر والصبر في القتال، ومما ألقاه الشاب وأظنه من شعر الكيلاني نفسه بعض الرباعيات، ومنها:

وحيفا والروابي الخضر والشطآن والنهرً

وعذراء لها عينان يهفو منهما السحرُ

وأغنية مهومة سداها الحب والبشرُ

طواها عاصف الطغيان في لج من الألمِ

أخي ومآذن سمقت وأجراس وصلبانُ

وخلد مونق الأعطاف بالإجلال مزدانُ

حضارات وأمجاد. وأعلام وفرسان

وأرض تنبت الأخيار والأطهار من قدمِ

(أرض الأنبياء، ص161)

وهناك تضمين بالشعر القديم، كما نرى في حالة ضحى بعد أن استشهد والدها الشيخ إسماعيل ريحان وتشبعت بالأسى الغزير حتى باتت في غنى عن أي أسى وافد، فقد أوردت الرواية بيتين للشاعر القديم:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشـاء من نبالِ

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصالِ

(أرض الأنبياء، ص 230)

و يستشهد الحاج مصطفى البشتيلي في خلال مقاومة الحملة الفرنسية على مصر بالمتنبي لإقناع زوجته أن الموت أمر حتمي، والخوف منه عار، فالموت لا نجاة منه، لأنه نهاية كل حي:

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

(مواكب الأحرار، ص109)

وفي سياق مقاومة الاحتلال الإنجليزي لمصر، وثورة الشعب المصري، تورد الرواية أبياتا لحافظ إبراهيم قالها في مشاركة النساء في مظاهرات ثورة 1919، ومنها:

خرج الغواني يحتجحن ورحت أرقب جمعهنه

وإذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنة

وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه

والورود والريحان في ذاك النهار سلاحهنه

(النداء الخالد، ص165)

وتبدو الأبيات تسجيلا لمرحلة من مراحل التطور الاجتماعي التي صاحبت ثورة 1919، حيث كانت المرأة بصورة ملحوظة لا تشارك في السياسة ولا مواجهة الغزاة، ولا في الشئون التي تهم المجتمع بصورة عامة. بعد الثورة جرت في النهر مياه كثيرة، كان من بينها ما يسمى حركة تحرير المرأة خاصة بعد تأليف قاسم أمين لبعض الكتب التي أثارت جدلا واسعا في المجتمع لأنها تضمنت بعض الأفكار المتطرفة.

استدعاء الموال

والموال أيضا له حضور إلى جانب الشعر في عديد من روايات الكيلاني، ويرتبط الموال في الوجدان الشعبي بالحزن، وما أكثر مناسبات الحزن في الواقع المصري قديما وحديثا، وتنعم ذاكرة

الكيلاني بتراث غير قليل من المواويل التي كان يحفظها منذ الصغر، وتناغي وترا حساسا لدى المصريين الحزاني والمقهورين.
يستدعي مثلا شيئا من موال حزين يردده الحاج مصطفى البشتيلي في سجنه تحت جنح الظلام حين تذكر ابنه وأسرته:

لو كان بكايا على المحبوب يجيهولي
لكنت أبكي وأجيب الناس يبكولي
يا ليلي .. يا عيني (مواكب الأحرار، ص189)

والموال تعبير عن عدم جدوى البكاء أمام صولة القضاء، ولا تنفع الدموع في معركة ضارية أشعلها المجرمون..
إن الكاتب يجعل قطان الأرمني المتمصّر الذي عاش في رشيد واغتنى بين أهلها ، ثم خانهم وانحاز للإنجليز، يستعذب الموال وغناءه ، فيصغي إلى نوتي يبحر في النيل أمام رشيد بعد هزيمة الإنجليز وانسحابهم، وتركه وحيدا ليواجه مصيره بوصفه خائنا وخائبا لم يستطع أن يحقق شيئا مما كان يحلم به:

سهران أعد النجوم وأبكي على حالي
وأقول يا ريت اللي كان ما كانش يجرا لي
راحوا الحبايب وفاتوني لوحدي حزين
أنوح عليهم يا ليل ولاّ على حالي ....

ويستغرق قطان في الحزن ويتماهي مع الأنغام الحزينة ، ويردد البيت الذي يعبر عن الندم والتمني " وأقول يا ريت اللي كان ما كانش يجرا لي!" (انظر: طلائع الفجر، ص248)

وهكذا يكون الموال جزءا حيويا من السرد، ويقدم الحالة النفسية التي وصلت إليها شخصية قطان بعد أن عاش في قصور الخيانة والوهم، فإذا به ينهار ويسقط في المجهول الذي ما كان يتوقعه ولا يخطر على باله، وهو النهاية البائسة المؤلمة!

واستدعاء الجبرتي

يضمن الكاتب سرده بعض النصوص للجبرتي مؤرخ الحملتين الفرنسية والإنجليزية على مصر، وقد استند عليه في رصد أحداث كل منهما. والطريف أنه يعتمد أسلوبه في ذلك الزمان، ليسجل بعض الأحداث، فيكتب بعد تمكّن كليبر من حصار القاهرة:

"... وصل كليبر إلى داره بالأزبكية ، وأحاطت العساكر الفرنساوية بالمدينة وبولاق من الخارج، ومنعوا الداخل من الدخول، والخارج من الخروج، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء المعركة، وقطعوا الحالب، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، فعند ذلك اشتدت الحرب، وعظم الكرب، وأكثروا من الرمي المتتابع، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات، من أعلي التلول والقلعات، خصوصا البنبات الكبار، على الدوام والاستمرار، آناء الليل وأطراف النهار، في الغدو والبكور والأسحار وعدمت الأقوات، وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات، وفقدت الحبوب والغلات، وارتفع وجود الخبز في الأسواق، وامتنع الطوافون على الأطباق...." (مواكب الأحرار، ص 253 وما بعدها)

وفي هذا النص تبدو الصياغة المختلفة عن أساليبنا المعاصرة فضلا عن أسلوب الكيلاني نفسه، وهي صياغة لها معجم مختلف ومميز، ومسميات بنت زمانها، واشتقاقات نادرة الاستعمال في زماننا. ولعل الكاتب لجأ إلى هذا الاستدعاء ليوجز ما صنعه الفرنسيون الغزاة من فظائع ووحشية عندما دخلوا القاهرة منتصرين، بالإضافة إلى أنه نقلنا من عصرنا لنعيش زمن الرواية، ونستنشق رائحة الأماكن والعلاقات الاجتماعية في مرحلة بعيدة.

تضمين بالمنشورات

كما يضمن الروائي روايته بمنشور نابليون الذي يخدع فيه الشعب المصري ويكذب عليه. وهو منشور سجله الجبرتي في تاريخه الشهير الذي اعتمد عليه الكاتب في بناء الأحداث الروائية، ويقرأ الحاج مصطفى البشتيلي هذا المنشور ويتأمله ويعلق عليه ويكشف جبروته ووحشيته، وأيضا زيفه وتضليله. يقول المنشور:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه...".(مواكب الأحرار، ص 39) وابتسم الحاج في أسى، ثم تابع في القراءة بصوت خفيض: " يأيها المصريون ، قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح لا تصدقوه، وقولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين "

" ... أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون"،".. طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم"(يفتح مدرسة جديدة للخيانة والغدر، ويبث فيها مبادئه المدمرة!)، "طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر، تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر..". (الذئب يكشف عن نواياه) " كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار".(أجل هكذا يكون الدين ، وهكذا تكون المدنية، وهكذا يكون تخليص المظلومين والتعساء...) (مواكب الأحرار، ص40-41)

يعلق الشيخ السادات على المنشور بما يغني عن كل تعليق:

" لعل المعركة القادمة من أخبث المعارك التي ستخوضها، لم يكن الصليبيون في حملاتهم السبع، التي استمرت قرنين أو أكثر من الزمان، لم يكونوا يلجأون إلى مثل تلك الحيل، والبلاغات الكاذبة. ولو فرضنا أن نابليون مسلم وموحد بالله فهل يعني ذلك أن نفتح له أبواب مدينتنا ونسلمه قياد أمرنا؟!

إنها ألاعيب مكشوفة على أعين الخلق.. إن تهديده بحرق القرى التي تبدر منها أدنى مقاومة له دلالة عميقة.. مثل هذا الرجل لا تعرف الرحمة ولا العواطف الإنسانية إلى قلبه سبيلا. وعلى أية حال فلن

تكون هذه الحرب آخر ولا أول معركة نخوضها. إنه ابتلاء من الله، ولعل ذلك يكون فاتحة خير.

لكم طال نومنا، حتى خيل إليّ أن اليقظة في هذه الأيام معجزة عسيرة التحقيق. وصدق الله العظيم إذ يقول:" ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين". (مواكب الأحرار، ص 42)

الحلم

الحلم أو الرؤيا المنامية وسيلة من وسائل التبشير بالمستقبل الأفضل، وبث الأمل في نفس من يراها؛ ليصبر على واقعه المؤلم ويتحمل المعاناة حتى يأتي الفرج بواقع خال من الصعوبات والعذابات ومليء بالسلام والسكينة والاطمئنان.

ولدينا نموذج مدال ومهم يتمثل في حلم صفية بنت حيي بن أخطب، وهي في عصمة زوجها اليهودي كنانة بن الربيع؛ حيث رأت فيما يرى النائم أن الظلام قد غطى الأرض بسواده الكثيف وليس فيه بصيص من نور، أو بارقة من أمل، وفجأة سطع في السماء قمر منير رأته يأتي من يثرب، يعبر السماء في مشهد رائع باهر..

العجيب أن القمر مال نحوها واقترب منها ثم دخل في حجرها.. وحين قصت الحلم على زوجها كنانة اربدّ وجهه، وهو يستمع إليها وتغيرت سحنته ثم كوّر قبضته ورفعها إلى أعلى، ثم أهوى(..) بها على وجه صفية قرب عينيها، فانتفضت في ذعر ووضعت يدها على مكان

اللكمة، وقد هطلت الدموع من عينيها، وامتلأ قلبها بحقد هائل نحو زوجها، وقبل أن تنطق بكلمة سمعته يقول في غيظ:

كأنك تحبين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة(أي زوجة له)؟! (على أبواب خيبر، ص 9 وما بعدها)

لقد تحقق هذا الحلم فيما بعد، وأصبحت صفية زوجا للرسول- صلى الله عليه وسلم- وأما للمؤمنين، بعد انتصار المسلمين على يهود خيبر وتطهيرهم منها جزاء خيانتهم وغدرهم وعدوانهم على أتباع الدين الجديد المنتصر.

هناك على امتداد روايات الواقعية التاريخية أحلام أو رؤى أخرى، تشير إلى ما سوف يحدث، ويتحقق على أرض الواقع، ويمكن للقارئ أن يتابعها في مواضعها، ولكن رؤيا صفية بنت حيي تبقى هي الأشهر والأوضح فقد تحققت بالفعل، وتحدثت عنها بعض الأطراف، وتناقل خبرها الناس من جيل إلى جيل.

***

الفصل السابع
الحوار

يمثل الحوار ركنا مهما في البناء الروائي بصفة عامة إذا استخدمه كاتب موهوب خبير مدرب. فهو يمنح العملية السردية طاقة متجددة تضيء كثيرا من المعالم الإنسانية والبيئية والتاريخية والزمانية والثقافية. كما يكسر رتابة السرد ويلوّنه بنغمات سردية تبعث الحيوية والنشاط في الهيكل الروائي، وتوقظ انتباه القارئ، وتجدد وعيه بأحداث الرواية واشخاصها ومكانها وزمانها ولغتها.

والحوار الجيد يكون في العادة ممتزجا بالسياق الروائي؛ لا يمكن فصله عنه، أو اجتزاؤه منه، وهو في كل الأحوال يضيف جديدا إلى معرفة القارئ بأحداث الرواية وعناصرها وجمالياتها.

وهناك مواصفات عديدة للحوار المتألق اجتهد النقاد في العمل عليها ليكون الحوار في صورة مفيدة وفنية في البناء الروائي، فرأى بعضهم أن يكون مقتضبا، ومكثفا، حتى لا تغدو الرواية مسرحية، وحتى لا يضيع السرد عبر الشخصيات المتحاورة على حساب التحليل، وعلى حساب جمالية اللغة، واللعب بها. (انظر: مرتاض، نظرية الرواية، ص 134).

كما يجب ألا تبتعد لغة الحوار عن لغة السرد، وإلا وقع النشاز البشع في نسج مستويات اللغة السردية.. (انظر السابق: ص 134-135).

وهناك تحذير بعدم الإكثار من الحوار في العمل الروائي، لأن ذلك يدل على شيئين أو كليهما: الأول هروب الكاتب من موقف صعب في التحليل والوصف والكشف، فيلقي المهمة على عاتق الشخصيات المتحاورة. والآخر أن يكون الكاتب مبتدئا وخبرته محدودة؛ فيكتب الحوار بدون وعي فني كبير، وهنا يفسد الشكل اللغوي العام، وتطفو لغة الحوار على لغة السرد. وهو ما يدخلنا متاهة البحث عن طبيعة ما نقرأ هل هو رواية أو مسرحية. (راجع السابق أيضا، ص 135)..

وإذا نظرنا إلى الحوار في روايات الواقعية التاريخية عند نجيب الكيلاني، فسوف نجد شروط الحوار الجيد المتألق ومواصفاته، متحققة فيها، ويعود ذلك بالطبع إلى موهبة الكيلاني الساطعة وخبرته الناضجة، فهو يقدم مثلا نوعا من الحوار الكاشف الذي يشارك السرد في بيان تسلسل الأحداث، كما يؤثر على سيرها واتجاهها ويفسر طبيعة الواقع الاجتماعي والعقدي، ويسبر أغوار النفس البشرية وانفعالاتها سعيا لتحقيق مآرب أو غايات مختلفة.

ها نحن أمام نموذج يبدو فيه المنطق أكبر قوة من العاطفة، ويضع لبنة في تغيير مسار الأحداث وموقف الشخصيات..

عندما عزم عمر بن الخطاب على قتل النبي- صلى الله عليه وسلم- وتخليص قريش مما يسميه الفتنة التي أحدثها بدعوته، فإن الصحابي الجليل نعيم بن عبد الله؛ وكان قد أسلم في مكة قبل الهجرة إلى الحبشة وكتم إسلامه؛ يقابل ابن الخطاب وهو في الطريق

لتنفيذ الجريمة التي صمّم عليها، ويدور بينهما حوار مهم في سياق السرد وبناء الأحداث، فقد عرف عمر أن محمدا في دار الأرقم بن أبي الأرقم مع أربعين من أتباعه فخرج لقتله قائلا: "فإن كان نبيا فليحمه الله مني.."؛ ودار الحوار بينهما:

"- إلى أين يا عمر؟؟

- من؟؟ نعيم بن عبد الله؟؟

- نعم ..

- وما شأنك بي؟

- أراك مكفهر الوجه، متوشحا سيفك.. أخشى أن يكون وراء ذلك أمر خطير يا عمر. توقف عمر وقال: " لسوف أقتل محمدا..".

لكأنما أراد عمر أن يعلنها على الملأ، وأن يطلقها كوعد لا يصح النكوص عنه.

هذه مقدمة لحوار ينبئ عن فعل خطير يعتزمه عمر، وهذا الفعل تدل عليه ملامح عمر التي يجلّيها الحوار(مكفهر الوجه، متوشحا سيفه)، ثم الإعلان عن الفعل الخطير بطريقة مباشرة، وهنا يتحول الحوار من جانب نعيم إلى محاولة للإقناع بالعدول عن موضوع القتل، ولكن عمر يسعى لتنفيذ رأيه من خلال ما يتصور أنه منطق مقنع:

" قال نعيم:

- ويحك يا ابن الخطاب!! لقد عهدتك راجح العقل، ثاقب النظرة..

- لم أزل كذلك..

هتف نعيم:

- لا تغرق نفسك في متاهات الخطأ، وأنت في فورة الغضب..
- إن محمدا رجل مثلنا .. يأكل.. ويشرب .. وينام .. ويعاشر النساء..
- وهو لم يزد على ذلك، سوى أنه نبي مرسل.. ولك أن تصدقه أو لا تصدقه، وهو لا يحاسب أحدا، إنما الحساب عند الله .. قضية لا يفصل فيها الآن..

صاح عمر محتدا:

- بل سأفصل فيها الآن بسيفي..
- لكن محمدا لم يرفع في وجهك سيفا..
- ليته يفعل .. لو حدث ذلك لهان الأمر..

وأردف نعيم قائلا:

- إن الرجل يقارعكم حجة بحجة، وينازلكم الكلمة، ولجوؤكم إلى السيف مظهر من مظاهر العجز أو الخطأ، وهو في نفس الوقت إقرار غير مباشر بقوة حجته...

قهقه عمر ساخرا، وهو يقول :

- أية حجة تلك التي تتحدث عنها؟؟ هذا الصابئ فرق أمر قريش، وسفه أخلاقها، وعاب دينها، وسب آلهتها...".

هنا تبد و الحجة أمام الحجة استجابة لرجاحة العقل والنظرة الثاقبة، ويبدو عمر كأنه يملك الإقناع (محمد مثلنا) وهل هناك من قال غير ذلك؟ كل ما هنالك أن محمدا يقول إنه نبي مرسل، ولا

يحاسب أحدا على إيمانه أو كفره، فالحساب عند الله، وكأن الحوار لا يرد على كلام عمر فحسب، ولكنه يكشف عن جوهر الدعوة وطبيعتها السلمية التي يواجهها عمر بالسيف مع محمد أو بالقوة كما تفعل قريش مع أتباعها، وهنا نرى أن مقاومة الدعوة بالسيف أو بالقوة دليل على ضعف منطق خصومها وعجزهم، وقوة منطق محمد وحجته، وهو يقود إلى فهم السبب الحقيقي للمقاومة، وهو تفريق أمر قريش وتحقير دينها. وهذا السبب ليس منطقيا ولا مقنعا، ولكنه نابع من التعصب والحماقة.

ونلحظ أن الكاتب لا يسترسل في الحوار بل يقطعه بتقديم حالة المحاور، وملامحه النفسية، هتف نعيم، صاح عمر محتدا. وأردف نعيم قائلا، قهقه عمر ساخرا، وهو يقول... وذلك ليجعل الحوار جزءا من البناء الروائي، ولا يضعه في خانة الحوار المسرحي..

يمتد الحوار بين نعيم وعمر لبيان طبيعة الواقع الاجتماعي الذي تحكمه علاقات القوة وقيم السيادة ورفض الاستهانة بأي فرد من أفراد القبيلة أو الاعتداء عليه. وهو ما نراه في كلام نعيم لتذكير عمر بخطورة إقدامه على قتل محمد:

" ورأى نعيم أن يجرب معه شيئا آخر، فقال مهددا:

- أترى يا عمر أن عبد مناف تاركوك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟؟

وهنا أدرك عمر فداحة الثمن الذي يمكن أن تدفعه قبيلته بنو عديّ من فناء كامل وفقا لمنطق الثأر بين القبائل في الجاهلية، ولكن عمر كان سادرا في غضبه ومصمما:

" لسوف أضحي بأغلى شيء كي أقضي على الوباء قبل أن يستفحل أمره".

قال نعيم في غير قليل من السخرية المرة:" أنت تسميه وباء، ومحمد يسميه شفاء، والحكم ليس لك وحدك، إنها قضية كبرى تهم الجميع، والناس في أنحاء مكة وخارجها هم القادرون على إصدار.. وفي مثل هذه الأمور يا عمر لا يصح أن نحكم السيوف.. إنها عمياء صمّاء لا تخلف وراءها غير الدماء والأحقاد.. لنترك الآراء تتصارع يا عمر.. إن محمدا يعرض قضيته ويترك للناس الخيار فلا قهر ولا إلزام.. وأنت تلزمه بقضيتك بحد السيف.. والدم لا يطفئ الحزازات، ولكنه يزيد في إشعالها".

قال عمر في صبر نافذ: "هل انتهيت من كلامك؟؟"فلما لم يجب نعيم، هدد عمر في إصرار: " لسوف أقتله ..".

يوضح الحوار علاقات القوى القبلية في مجتمع مكة قبل الإسلام. فأمام تصميم عمر على قتل محمد يفاجئه نعيم بما يمكن أن يحدث نتيجة ذلك، ولذا يهدد عمر بثمن فادح سيدفعه هو وقبيلته بنو عديّ، لأن القبائل لا تسمح لأي أحد أن يتجاوز حدوده ويعتدي على واحد منها أيا كان، ولو اقتضى الأمر شن حرب ضروس تقضي على الأخضر واليابس، بيد أن عمر مع تصاعد غضبة وشدة انفعاله

يواصل تصميمه على تنفيذ قراره الدموي، متصورا أنه سينهي أمر الدعوة التي يسميها بالوباء!

ويبدو موقف نعيم هنا أكثر تأثيرا على عمر، جين يسخر منه ويفهمه أن هناك رأيا آخر هو رأي المؤمنين بالدعوة والتوحيد الذي يرى أن ما حاء به محمد شفاء وليس وباء! كما يشير الحوار إلى جوهر الدعوة المتمثل في الاختيار الحر من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!

ومع استمرار عمر في التصميم على اقتراف جريمة قتل محمد يفجر نعيم قنبلة ذات حساسية شديدة في سياق العلاقات الأسرية؛ وهي موقف الشخصيات القوية البارزة في الأسرة التي يفترض أن يكون لها القول الفصل في شتى القضايا، وخروج بعض أفراد الأسرة على قرار الكبار وتمردهم عليهم. وهوما نراه في الحوار الممتد على النحو التالي:

اقترب منه نعيم ، وسدد إليه نظرات حادة لا تخلو من شماتة ، وقال:" ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم..".

قال عمر وقد ساد وجهه شحوب ظاهر: "ماذا تعني؟؟".

أجاب نعيم وهو يضغط على مخارج الحروف : " لقد أسلمت أختك فاطمة و...".

وقاطعه عمر: " أختي؟؟".

- أجل ، وزوجها ابن عمك سعيد بن زيد...
- هذا كذب، إنك تحاول تحطم عزيمتي، والنيل من كبريائي..

واستطرد نعيم دون أن يكترث لاعتراضه: "وتابعا محمدا على دينه..".

وهكذا يؤدي الحوار إلى ذهاب عمر إلى بيت أخته وتتوالى أحداث إسلامه، وانفراج الضيق الذي يضغط على صدره رويدا رويدا.. وتحوله إلى أنغام حلوة شجية تضج بها روحه.. مذاق جديد لحياة رائعة. (انظر: نور الله ج1 ، ص 26-33)

ومع طول الحوار، فإن الكاتب لا يقع في مأزق الحوار المسرحي ؛ لأنه يمزج حواره بالسرد، ووصف المتحاورين وأحوالهما النفسية والحركية والانفعالية. فنراه يصور نعيما وهو يتحرك ويقترب من عمر ويسدد إليه النظرات الحادة التي لا تخلو من شماتة، ونرى عمر والشحوب يسود وجهه، ونعيما وهو يضغط على مخارج الحروف، ثم مقاطعة عمر له.. وهكذا نعيش حيوية المتحاورين وكأنهما يتحركان أمامنا على شاشة سينمائية مصورة، تجمع إلى الكلمة (الحوار) الصورة(الحركة).. لنطالع حوار متألقا، فيه الإيجاز والحيوية والدلالة.

الإخبار عن الماضي

ويوظف الكاتب الحوار في الإخبار عن بعض حوادث الماضي وتأثيرها على شخصيات الرواية وأحداثها، ولعل في حوار عمر بن الخطاب مع ابنته حفصة زوج الرسول– صلى الله عليه وسلم- عن ذكرياتها حول مقاطعة قريش للمسلمين في شعب أبي طالب بمكة، ما يوضح ذلك. فعندما سألها عمر عن المقاطعة قالت:

"- أتذكر ذلك جيدا يا أبي.. لقد علقوا ورقة مكتوبة بذلك على أستار الكعبة.

- أجل.. تعاهدوا ألا يتزوجوا منا ولا نتزوج منهم.. وألا يتجاوروا معنا.. كان حصارا شديدا قاسيا.. عشنا معزولين في شعب بني هاشم نجتر آلام الحرمان والعناء والمقاطعة، كالمنبوذين فترة طويلة من الزمن يا حفصة. لطالما فكرت أن أحمل سيفي وأخرج إلى قريش أقاتلها وأظل أقاتلها حتى أستشهد.. لكن أباك رجل نظام.. ولم أكن بالشخص الذي يخرج عن إرادة محمد ونظامه.. كان يوصينا بالصبر والتبتل إلى الله، وتدريب النفس على المشاق والصعاب..

هزت حفصة رأسها في أسى:

- كانت أياما قاسية يا أبي..

واستأنف عمر حديثه:

- وكان رجالات قريش يظنون أننا نضمر وننكمش، وأن قوة محمد ودعوته ودينه كلها في طريقها إلى الزوال، وأن المسألة مسألة وقت ليس إلا.. ولم يدر بخلدهم أن ايام العزلة والانطواء والاضطهاد نار هادئة تنضج النفوس وتشحذ الهمم وتتيح الفرصة للاستعداد ثم الانطلاق.. أنت تعرفين ماذا حدث بعد ذلك .

قالت حفصة:

- أجل.. انشقت قريش على نفسها وتلاوموا ومزقوا المعاهدة الآثمة، وفكوا الحصار الغادر، وأقبل بعضهم على اعتناق الإسلام.."(نور الله ج1، ص 36 وما بعدها)

وكما نرى فالحوار يتحدث عن ذكريات المسلمين في مكة بعد أن ان انتقلوا من سرّية الدعوة إلى الجهر بها، وقد تفنن المشركون في

تعذيب المسلمين وملاحقتهم ولما لم يُجْد ذلك نفعا، تفتق ذهنهم عن فرض حصار قاتل يتضمن عدم التعامل معهم أو الزواج منهم أو مجاورتهم، مما أدى إلى حصرهم في شعب أبي طالب أو شعب قريش، إلى درجة أكلوا معها أوراق الشجر، وكان بعض المسلمين ومنهم عمر يحاولون مواجهة قريش قتالا، ولكنهم أمروا بالصبر لأن الله يدبر أمرا لصالحهم، وهو ما حدث بالفعل، فقد اختلف الفرقاء، وتم رفع الحصار، ودخل نفر من صناع الحصار في الإسلام.

لقد ظل المسلمون حوالي ثلاثة عشر عاما في مكة يواجهون الابتلاء والأذى والاضطهاد بالصبر والتحمل والأمل، ولم يؤمروا بقتال إلا مع غزو ة بدر حين امتلكوا القدرة على المواجهة مع وجود فارق بين الطرفين، وهو ما يعني أن المسلمين ينصاعون للأوامر الإلهية، والنبي- صلي اله عليه وسلم- ويطيعونه فيما يقول ويأمر.

كما يكشف الحوار عن مفارقة في شخصية عمر التي تغيرت فقد كان عناده قبل الإسلام يدفعه إلى تنفيذ ما يصمّم عليه، مثلما رأينا في إصراره على قتل محمد ولم تُجْدِ معه محاولات نعيم بن عبد الله ليعدل عن موقفه إلا بعد أن دعاه للنظر في أمر أخته التي أسلمت مع زوجها، بيد أنه بعد الإسلام يلتزم بما يأمره به الرسول– صلى الله عليه وسلم– ويطيع، ولذا لم يخرج لقتال قريش بالسيف مع أنه كان يريد ذلك.

وهكذا نجد الحوار كاشفا عما سبق من أحداث، ويجليها ويوضح سرّها وحكمتها ليربطها بواقع الأحداث التاريخية التي يقدمها السرد، ولتضيف للقارئ وعيا بحركة الدعوة ومسيرتها.

والإخبار بالماضي يمثل ما يسمي بالإبطاء السردي في بعض جوانبه. وهذه التقنية نقيض تقنية تسريع السرد، حيث تعطل وتيرة السرد وتفسح المجال للحوار أو الوصف، ومن أبرز التقنيات الموظفة هنا: المشهد، والوقف.

فالمشهد: يقصد به المقطع الحواري الذي يأتي في كثير من الروايات في ثنايا السرد، ويشكل بوجه عام لحظة توازي السرد زمن القصة. فينقل المشهد مثلاً تدخلات الشخصية كما هي تتحاور دون حذف، وهنا يطغى الوصف على السرد وتشل حركة الزمن، وتكمن أهمية تقنية المشهد في إعطاء الكلمة للشخوص والكشف عن طباعهم النفسية والاجتماعية، وقد تكون للمشهد فائدة أكبر في تعميق المعنى عن طريق الوصف الخلاق.

أما الوقف؛ فيلجأ فيه الروائي أحياناً إلى توقيفات معينة بسبب الوصف، والوصف هنا هو وصف خلاق يخدم السرد ويقوي الجانب الجمالي فيه.(من مقال بعنوان: إشكالية الزمن الروائي ـ د. صالح ولعة).

ونجد في الحوار التالي مشهدا وتوقيفا للكشف عن غدر اليهود وطرق التخلص من المزعجين لهم.

حين يكتشف عبد من عبيد زينب بنت الحارث؛ زوجة سلام بن مشكم الزعيم اليهودي في خيبر، علاقتها الآثمة بالعبد فهد؛ فإنها تدعوه وتسقيه سما دون أن يدري ليموت ويذهب معه السر الذي يعرفه. قالت زينب للعبد بعد أن شرب الماء الذي يمتزج بالسم دون أن يدري:

"اذهب ولا تبطئ....

وما إن انصرف حتى أطلقت ضحكة شيطانية عالية..

وبعد لحظات جاء فهد شاحبا وقال متلعثما :

- هل توعدته حتى لا يفتح فمه؟

قالت وهي ترمقه بنظرات ولهى :

- لسوف يغلق فمه إلى الأبد.

- كيف؟

- لقد أرسلته إلى البستان ليحضر لي بعض الفواكه على عجل.. لكنه لن يعود.. لن يعود؟

أجل يا فهد الحبيب.. من أجلك أنت لأنك أمتع رجل في الوجود، ولن تستطيع قوة أن تفرق بيني وبينك...

وتنهدت في ارتياح وقالت:

- لقد سقيته السم، وعندما يصل إلى البستان ستكون أعضاؤه قد تراخت.. وسيستسلم لنوم طويل.. أبدي. مسكين لسوف يموت دون أن يرى هزيمة محمد.. الغريب أنه سيموت بنفس السم

الذي أعددته لمحمد. إنها منزلة لم يكن يحلم بها ذلك المغرور، لكني دائما أتصدق على هؤلاء الأغبياء، حتى بالميتة الحسنة.
ثم التفتت إلى فهد المذهول الذي دارت به الأرض وصرخت:

- وأنت ..
- ماذا؟
- لسوف تنتظرني هذا المساء، هناك في نفس المكان.. تصور.. حاول سلام بالأمس أن ينال حقه مني كزوج لكني تعللت وأبيت.. أصبح مذاق سلام كالعلقم إنه شيء مقيت...".

وحين تأمر عبدها الحبيب بالانصراف، يطأطئ رأسه يخبرها:
" ولكن سيدى هنا؟

- لا شأن لك.. إنني أعرف كيف أدبر شأني، ومولاك غارق في الغرور حتى أذنيه، إنه لا يتصور أنه كائنا ما كان لا يجسر على العبث بشرفه.. إنه عظيم لا يهتم إلا بالعظماء، أما أنا وأنت فأتفه من التفاهة.. العبيد والنساء هنا لا مكان لهم سوى الحضيض لكن ألست معي في أنه حضيض رائع.. أنصرف أيها الأحمق.

قال وهو يقترب من الباب بظهره:

- أمر مولاتي".(على أبواب خيبر، ص75-76)

الحوار هنا يشير إلى:

- أن اليهودي حين يواجه مشكلة ما، فإنه لا يتورع عن الغدر والقتل، وهو ما فعلته زينب مع العبد الذي اكتشف سر علاقتها الآثمة بالعبد فهد حيث سقته السم وهو لا يدري.

- أن هزيمة محمد والقضاء عليه هو الشغل الشاغل لليهود في خيبر وغيرها حتى وهم في غمرة الإثم والمتعة الحرام.

- يفرق اليهود بين درجات الأذى الذي يلحقونه بمن يقفون في طريقهم. وكما نرى في الحوار هناك ميتة حسنة تحدث للعبد الذي عرف سر العلاقة الآثمة لزينب، وأخرى غير حسنة تحلم بها زينب وتنتظر محمدا النبي الذي يقلق راحة اليهود ويهدد عرشهم وجبروتهم.

- لا يوجد وفاء أو اهتمام بالأخلاق أو تعاليم الدين اليهودي الأصلية. فالزوجة تبحث عن المتعة التي تشبعها ولو كانت حراما، وفي المقابل ترى أن متعتها مع الزوج مرّة كالعلقم.

- مكانة المرأة والعبيد لدى اليهود في الحضيض، أما الرجال فهم مشغولون بمظاهر العظمة والوجاهة.

وفي الحوار نرى مشهدا مرسوما بعناية يقوم فيه العبد وزينب بدور كاشف عن طبيعة التفكير اليهودي تجاه الدعوة الإسلامية، وطبيعة العلاقات السائدة في داخل المجتمع اليهودي، فضلا عن منهج الغدر الأذى الذي تسوغه الأنانية وحب الذات واستباحة الحياة من أجل الشهوة، والمصلحة الخاصة.

الميلودراما

ويتصل بما سبق مشاركة الحوار في صناعة الحبكة الروائية حتى لو بدا الأمر أقرب إلى الميلودراما، فعلي بن أميمة مثلا في رواية "الرايات السوداء" يجير شخصا غريبا مطاردا لا يعرفه ويختار له اسما من

عنده "حسان بن نافع"، فيعيش في قصره ويتولى تجارته ويصيران صديقين حميمين، ولكنه في لحظة مباغتة يتحول المجير إلى عدو لدود للمستجير؛ لأنه يكتشف في أثناء جلسة ودية وحوار حميم أنه الرجل الذي قتل والده، ويبحث عنه منذ زمان، ويشغل ليله ونهاره، وأضناه البحث عنه في الكوفة والحيرة ومرو، بينما هو يعيش في بيته وإلى جواره:

" تمتم عليّ:

- حسان..

- أنا؟

- أجل أنت.. نسيت أن اسمك مستعار، وأن اسم حسان كثيرا ما يكون غريبا على سمعك..

قال حسان باسما:

- هو كذلك بالضبط..

ووجد عليّ نفسه يقول:

- لماذا لا تريحني، وتخبرني باسمك الحقيقي؟

- حسبت أن أمره لا يهمك..

- لقد أصبحنا أخوين..

قال حسان:

- اسمي الحقيقي هو إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك..

وهبّ على واقفا وصرخ:

- أنت؟

لكأنما انقضت صاعقة من السماء على رأس عليّ فأفقدته وعيه، وذهبت بلبه، وأنسته نفسه، والمحيطين به. لقد دارت به الأرض، وأظلمت الدنيا في وجهه ولم يعد بقادر على أن يميز شيئا مما أمامه، وعاد يصرخ من جديد..

قال الغريب وقد شحب وجهه وتوجس خيفة:

- أجل أنا إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك.

أفاق عليّ قليلا إلى نفسه، ثم انقض عليه كوحش كاسر، وقبض على عنقه، وهتف:

- لا تنطق بهذا الاسم مرة أخرى.

فحاول الغريب جاهدا أن يخلص نفسه من أصابع عليّ المتصلبة على عنقه، وأخذ يقول في دهشة:

- لماذا تفعل ذلك؟ لم كل هذا؟!

وأخذ عليّ يضغط على أسنانه من الغيظ ، ويقول:

- ألا تعرف نفسك

- أعرف؟

- أنت قاتل أبي..

- أنا؟

- أجل.. أنت الذي قتلته غيلة وغدرا في منطقة الحيرة . كان يأتي إلى هناك سرا ليبث الدعوة للعباسيين، وكشف الأمويون أمره، وكنت أنت الأداة القذرة التي استعملوها.. إلخ " (الرايات السوداء،

دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة،1434 هـ =2013م، ص 210 وما بعدها)

ويستمر الحوار العاصف بين الرجلين، ويسأل المكلوم القاتل عن سبب قتله، ويتناسى أن الخلافات والمؤامرات والبعد عن ثوابت الدين كانت من وراء تلك الجريمة والجرائم الأخرى، الكبرى والصغرى على السواء، ويغادر القاتل بيت مُجيره بعد عتاب مرير، حكمه وفاء الطرفين بالعهود التي قطعاها!

أسرار الشخصية وفلسفتها

ومن وظائف الحوار في روايات الواقعية التاريخية كشف أسرار الشخصية وفلسفتها العامة والخاصة ودوافع مواقفها وسلوكها. من ذلك ما دار بين الأب توما وصديقه الحميم الخواجا سانتي، حين سأله الأخير عن سر عدم زواجه.

" قال له سانتي ذات مساء:

- لماذا لم تتزوج؟

ابتسم الأب توما وقال:

- من قال ذلك؟؟ لقد تزوجت..

نظر إليه سانتي باهتمام وقال:

- عهدتك تتحرى الصدق دائما ..

هز الأب توما رأسه وقال في شيء من الشرود:

- لقد تزوجت الحقيقة.

انفجر سانتي ضاحكا وقال في معاتبة:

- المرأة أقوى حقيقة في حياتنا.

- الإنسان ليس الحقيقة كلها بل هو جزء منها.. يا صديقي العزيز سانتي.. لقد عشت لها.. للحقيقة.

همس سانتي وقد بدا الخجل على عينيه:

- لكن المرأة حقيقة تبعث الدفء في القلوب والأرواح والأجساد..

- الحقيقة الكبرى دفئها أبدي خالد.

ونظر الأب إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم المتألقة وكان الجو باردا وتمتم:

- طوبى لكل الأتقياء.

- تنهد سانتي وهتف:

- إنه ضرب فريد من البطولة.

- ماذا تقصد؟

- اغفر لي يا أبتاه.. أنا أصلي وأصوم.. لكن عطر النساء يدير رأسي، ولهذا تزوجت ولا أستطيع أن أتصور رجلا طبيعيا بدون امرأة.

قال توما في يقين ثابت:

- إنه حرمان بإرادتي.. لم يلزمني به أحد وأنا لا ألزم به أحدا.. فليتزوج الرجال.. وليأت إلى الدنيا أطفال كالزهور.. لكن لا بد أن يكون هناك طائفة يتفرغون لمجد الله، ويعشقون الحقيقة.. ويهبون حياتهم كاملة لها..." (حارة اليهود، ص 12 وما بعدها)

ويستمر الحوار على هذا النمط مبينا الفارق بين المتعة الروحية والمتعة المادية من خلال وجهة نظر كل من الرجلين ومواقفهما، أحدهما يصلي ويصوم ويحب الدنيا وهو الموقف الطبيعي، والأخر يتسامى على المتع الدنيوية، ويعيش من أجل الآخرين ، ويضحي بلذات الحياة ومباهجها كي ينعم غيره. كما يكشف الحوار طرفا من تاريخ الشخصية وماضيها وتطورها الاجتماعي والفكري والثقافي بالنسبة للراهب أو سانتي.

وفي حوار آخر نطالع كشفا عن فلسفة أصحابه ونظرتهم إلى الآخرين وتفسير سلوكياتهم وأفعالهم، كما نرى في حوار نابليون مع برتلمي أو فرط الرمان وتعيينه رئيسا للعسس وجهاز المخابرات، ومنه:

" ووضع نابليون يديه في جيبي سترته، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أدنى انفعال:

- إن الغزو عملية سهلة، هذا ما قدرته في البداية، وقد صدق ظني، إن رجالي لا يخذلونني في أي موقف، لأن الأهم من الغزو هو استمراره وتثبيت دعائمه، واحتلالنا لمصر عملية كبرى، ستثير العالم علينا، وخاصة انجلترا.. لكن كيد الأعداء لن ينال منا أي منال، إذا استطعنا أن نجعل الشعب المصري يرضخ لإرادتنا، وسوف نلجأ لشتى السبل مهما كانت، حتى نحقق هدفنا.

وسادت فترة صمت قال نابليون بعدها:

- إنني أعفو ببساطة تجعل الخصوم يتأكدون من تمكني الكامل من الموقف.. وأنا أيضا أقسو ببساطة، تجعلهم يرتعدون عند الضرورة.

.. ..

واستطرد نابليون يقول:

- ولكي تعفو أو تقسو، لا بد أن يكون ذلك لغاية، وهي غاية ليست إنسانية على أية حال، فليست هناك رحمة لمجرد الرحمة، وإنما بقدر ما تجلبه لنا من منفعة.. أتفهمني؟؟" (مواكب الأحرار، ص 79 وما بعدها)

يوضح نابليون في الحوار خططه بالنسبة للغزو، وما يتعلق به على المستوى الدولي، كما يبين هدفه الأكبر وهو استمرار الغزو وتثبيت دعائمه، واتخاذ كل الوسائل لاستسلام الشعب المصري وقبوله بالاحتلال.

ثم يفسر سياسته في العفو والقسوة، ليثبت للأعداء أنه قوي متمكن، وأنه قادر على بث الرعب في نفوسهم! وفي امتداد الحوار يتحدث بخبث وذكاء عن عناصر المقاومة أو التحريض عليها المتمثلة في مشايخ الأزهر، وإن كان يرى أن جماهير الشعب هي التي تلعب الدور الأخطر، ولذلك يرى ضرورة معرفة كل شيء عن المقاومة قيادة وجماهير على السواء، وأنه من حين لآخر يجب قطع بعض الرءوس والطواف بها في الشوارع، ولا مانع من العفو عن بعض المحكوم عليهم بالإعدام مقابل مبلغ كبير من المال، ولذلك لا بد من مراقبة الأثرياء، واصطياد الأخطاء لهم. (انظر: مواكب الأحرار، ص82)

تقديم الواقع

كما يكشف الحوار عن الواقع التاريخي الذي تعيشه شخصيات الرواية، ويعكس موقفها منه ومن أسبابه، مثلما نري في حوار عجوزين يسيران في موكب المهجرين من حيفا بعد عدوان اليهود على أهلها وبث الرعب في قلوبهم بالذبح والضرب والنهب:

"وتمتم لاجئ عجوز وهو يرمي جسده المنهك تحت شجرة مورقة:

- إنه حكم الله..

وقالت امرأة تعرج وهي تخطو إليه وتجذب خلفها طفلا صغيرا:

- وليس لنا إلا الصبر..

- أليس من الظلم يا امرأة أن نتحول بين عشية وضحاها من أثرياء إلى متسولين؟؟ لماذا؟؟ لماذا كل هذا؟؟ أي منطق يبرر ما يحدث اليوم؟ هل قالت كتب العهد القديم لهؤلاء اليهود اسلبوا الناس أموالهم وديارهم وأرواحهم؟ وهل قالت كتب العهد الجديد للإنجليز ضعوا السلاح في يد المجانين الموتورين، وبيعوا لهم أرواح البشر الأبرياء وأرضهم وكونوا عونا لهم على الفساد؟؟" (أرض الأنبياء، ص 52 وما بعدها)

ويبدو أن الكاتب وهو يضع على لسان الضحايا الفلسطينيين صورة مثالية للكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) في رفض القتل والذبح والتشريد لم يطالع الآيات الدالة على القسوة والعنف وإهراق الدماء، ومنها على سبيل المثال:

" الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء ، اقتلوا للهلاك " (حزقيال : 9:6)

"ومَلعونٌ مَنْ يَمنَعُ سَيفَهُ عَنِ الدَّمِ. " (إرميا 48 : 10) .

" قالَ الرّبُّ إلهُ إسرائيلَ: على كُلِّ واحدٍ مِنكُم أنْ يحمِلَ سيفَه ويَطوفَ المَحلَّةِ مِنْ بابٍ إلى بابٍ ويَقتُلَ أخاهُ وصديقَه وجارَهُ " (خروج 32 : 27) .

" فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جَمَلاً وَحِمَاراً " (صموئيل الأول 15 : 3)

" لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالاِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا " (متى 10 : 34- 35).

فالقسوة لدى اليهود والإنجليز تنبع من تربية دينية تحض على قتل المخالف وسحقه والتمثيل به، ولا تحض على المحبة والرأفة والرحمة، وهو ما عاناه المسلمون في فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام منذ الحروب الصليبية مرورا بديوان التحقيق (محاكم التفتيش) في الأندلس، حتى عمليات النهب والقتل التي صاحبت الاستعمار الحديث والقائمة إلى اليوم.

الطبائع والتحولات

كذلك يكشف الحوار عن دخيلة النفوس وطبائع الأفراد وتحولاتهم الخلقية والسلوكية، مثلما نرى في الحوار الذي يجري بعد استدعاء العمدة للشيخ عنبة، حيث يخاطبه قائلا:

" - أنت تعرف يا شيخ عنبة.. من أنا؟

- أعرف أنك خلاف عبد المتجلي رجل مثلنا.
- لكني عمدة البلد.
- المنصب تكليف لا تشريف.

فلم يفهم العمدة ماذا قصد، لهذا قال:

- لا تكلمني بالنحو.. كن واضحا.

رفع إليه عنبة وجها صارما وهتف:

- لست إلها يا حضرة العمدة.
- يمكنني الإيذاء والانتقام من أي معارض.
- ولِمَ لا تكون مجلبة للنفع والخير؟
- لأنك يا عنبة تعترض سلطاتي.

فرفع عنبة سبابته اليمنى إلى أعلى، وكأنه واقف فوق منبر وقال:

- بالحق

قال العمدة في ضيق:

- وأنا أعرف ما هو الحق.
- أنا أعرفه.

- وإذا اختلفنا في تفسيره يا عنبه؟ يجب أن يكون رأيي هو الأرجح.. رأي العمدة فوق كل اعتبار.

فلوح عنبة بيده محتجا وقال:

- هذا منطق أعوج.
- كيف يا عنبة ؟
- إذا اختلفنا احتكمنا إلى كلمات الله.

وتذكر عنبة كلمات خالدة لجمال الدين الأفغاني. كان قلبه يدق بشدة، ولحيته ترتعش، وأخذ يردد:

- يقول حبيبي حينما التقى بقيصر روسيا: أعتقد يا جلالة القيصر.. إنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص........". (النداء الخالد، ص 41-42)

الحوار بين الرجلين– وهو ممتد- يصور عقليتين ونفسيتين، العمدة المتسلط المستبد الذي يعتقد أنه يضر وينفع، ويملك من الصفات ما لا يملكه غيره من عامة الناس بما يجعله فوق الجميع كأنه إله يعطي ويمنع، ويأمر وينهى. وعنبة الذي يؤمن بالمساواة بين البشر، ويعتز بحريته وكرامته، وينظر للأمور نظرة كلية تتجاوز الذات إلى المجتمع، ولذا يواجه العمدة مواجهة عاصفة، فيخبره أنه ليس إلها، وأن المنصب تكليف لا تشريف- أي لخدمة الناس، وأنه ليس وجاهة لصاحبه واستعلاء على البشر، وأن الاختلاف بين الناس يجب حله بالرجوع إلى كلمات الله. وأن من يمتلك منصبا يجب أن يكسب

الناس إلى صفه بالصداقة والمودة بدلا من نفورهم منه والابتعاد عنه بالكراهية والرهبة.

ويبرز الحوار تأثر الشيخ عنبة بأفكار السيد جمال الدين الأفغاني الشجاعة، بينما العمدة يجهل من هو جمال الدين الأفغاني، ومع أن العمدة حاول أن ينهي الحوار بطرد الشيخ عنبة بعد أن هزمه الأخير هزيمة نفسية وفكرية، فإنه يسجل أخطاء العمدة وخطاياه مما يجعله يطلب من عنبة أن يكف عنه ويرحمه، ولكن عنبة يطلب منه العودة إلى الناس والانتماء إليهم، فيسأله كيف يعود.. ويمتد الحوار الذي انتصر فيه عنبة "وبكى العمدة كما لم يبك طول حياته" واحتضن عنبة بين ذراعيه وطلب الغفران والرحمة من الله.(النداء الخالد، ص 46)

وهكذا يكون الحوار بداية تحول العمدة من منهج أناني استعلائي وسلوك عدواني خادم للسلطة والإنجليز، إلى رجل آخر يبحث عن رحمة الله ومغفرته، وخدمة الناس والانتماء إليهم والبحث عن صداقتهم.

طبيعة المرابي اليهودي

وهناك حوار يكشف عن طبيعة السلوك التاريخي- إن صح العبير- لشخصية المرابي اليهودي الذي لا يؤمن بغير المادة والنقود، ولا يؤمن بالعواطف والمشاعر والعلاقات الإنسانية مثل الوفاء والمروءة والشهامة والنجدة. إنه مع امتلاك القرش والحصول عليه بأية وسيلة، والتعامل مع من يدفع لا من يأخذ.

فقد ذهبت أرملة خفاجة؛ الرجل الذي خدم الخواجا اليهودي ينّي وراح ضحية خدمته قتيلا، تطلب منه أن يؤجر لها فدانين تزرعهما وتستعين بعائدهما على صعوبة الحياة، ولكن يني يؤكد على طبيعته الربوية "الشايلوكية" المعروفة ولا يستجيب لها مع ما قدمته من مسوغات واستعطاف ورجاء وتذلل:

" وقفت المرأة قبالته، وطأطأت رأسها في ذلة وقالت:

- أعرف أفضالك على زوجي.

فقال في جفاف:

- ثم ماذا؟

- وظل مخلصا لك طول حياته.

- تشرفنا.

فأزاحت الغطاء عن وجهها وقالت:

- ألا تعرفني؟ أنا أرملة خفاجة.

وهتف الخواجة في دهشة:

- خفاجة؟

- أجل.. أنا زوجته.

فهز رأسه في ضيق وتمتم:

- الله يرحمه.

- جئت إليك.. وأنا واثقة أنك لن تخيب رجائي.. منذ أن مات و.. نحن في حيرة.. الحاج إبراهيم وكيلك طردنا من الأرض.

- لأنكم لم تدفعوا إيجارها.

- كنا في ضائقة .
- ماذا تريدين الآن؟
- فدانين اثنين نرتزق منهما.

رد في برود:

- آسف.

قالت في دهشة:

- كيف؟ لسوف أدفع الإيجار كغيري من الناس.
- آسف.
- لماذا؟
- لأن الذي يخل باتفاقاته معي مرة واحدة لا ائتمنه بعد ذلك.. أنت تعرفين.
- نحن لم نغدر.. كان موته مفاجأة.. ثم إنك كنت قد وعدت بإعفائه من الإيجار كان صديقك يا خواجة.. ألا ترى أن عطفك على أولاده- وأنت قادر على ذلك– حسنة تقدمها لصديق قديم؟

لم يعد لدى الخواجة ذرة من صبر.. فهتف في تأفف:

- عندما مات خفاجة.... مات كل شيء.
- حتى الصداقة؟
- لا أصادق الموتى.
- لكن الوفاء لذكراهم واجب.

- لا وفاء لقاتل.. لم أحبه يوما.. كنت أتقي شره، أنت تعرفين.. أمن الضروري أن أتكلم بصراحة.. اذهبي وإلا استدعيت الخفير.(النداء الخالد، ص210-213)

إن نفسية اليهودي المرابي لا تتغير بتغير الأحوال والأزمان، وإن تغيرت الأساليب التي يستخدمها. يبقى كما هو صلدا مثل الصخر، لا يأبه لصداقة أو معروف. لا يصادق الموتى تعبيرا عن نفعية مقيتة حين يتجاهل من خدموه في حياتهم ولو أدت هذه الخدمة إلى مصرعهم وانتهاء حياتهم. ولا مانع أن يتحول في لحظات الجحود والنكران إلى واعظ يتحدث عن القتل والقتلة، ولو كان هو الذي أوعز بالجريمة وحرض عليها .

الحوار الداخلي(المونولوج)- المناجاة

الحوار الداخلي أو المونولوج هو حديث الشخصية الروائية إلى نفسها، واعترافها بالحقيقة التي لا تعترف بها علانية أو أمام الناس. إنها تتحدث وتفكر في المستقبل، أو التعليق على ما يحدث لها آنيا، أو ربط ما يجري حاليا بالماضي ومحاولة تفسير الأحداث وتقويمها ورؤية مستوياتها الآن ومستقبلا.

ويفضل عبد الملك مرتاض مصطلح المناجاة بدلا من الحوار الداخلي أو المونولوج،(انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 136).

فالمناجاة حديث النفس للنفس، واعتراف الذات للذات، لغة حميمة تندس ضمن اللغة العامة المشتركة بين السارد والشخصيات،

وتنهض المناجاة بوظيفة لغوية لا يمكن أن ينهض بها أي شكل سردي آخر (راجع: السابق، ص 138).

ومن نماذج الحوار الداخلي أو المناجاة، ما رأيناه عند قطان باشا بعد أن استدعاه السير ولنجتون عقب انسحابه من معركة الحماد الأولى، فشعر بخوف غامض، وراح يهدئ من روع نفسه، ويغمغم في الطريق الأسود تحت جنح الليل:

" من أنا؟؟رجل بلا وطن.. أنا لا أنتمي لشيء.. العالم كله لا يساوي لدي قلامة ظفر.. أنا أنتمي لذاتي.. كل ما أريده أن أعيش ثريا آمنا.. وأن ترفل ابنتي في أحضان السعادة.. اللعنة على كل المبادئ.. الناس عبيد المال.. عبيد الخوف.. وكل يعمل من أجل نفسه.. كلهم أنانيون"(طلائع الفجر، ص15).

وبعد مقابلة ولنجتون شعر براحة غريبة، مزاجها التشفي واليأس وعدم المبالاة، وغمغم وهو يدخل بيته:

" ليحترق العالم.. لترق الدماء.. إنه ليس عالمي الذي أريد.. أنا أشعر بغربة قاتلة.. أيمكن أن يشعر أحد بما أعانيه من آلام وأحزان؟"(طلائع الفجر، ص16) .

إن الحوار الداخلي يكشف ما تعانيه الشخصية من آلام، وما تحمله من رؤى وأفكار، وقطان كان خائفا في البداية، ولكنه بعد اللقاء أحس بالراحة، ويكتم ما يعانيه عن ابنته، وعندما تسأله عن أحواله بعد أن بدت السعادة على وجهه وهو عائد من لقاء ولنجتون، يجيبها إجابة دبلوماسية إن صح التعبير، حيث يقول لها

:" كلما نظرت في وجهك غمرني الفرح".. ولكن حديثه إلى نفسه يكشف حقيقة ما تسأل عنه الفتاة، وما يعانيه هو حيث لا يستريح للوضع أو المكان الذي هو فيه، لأنه ليس عالمه الذي يريد، فهو يريد العودة إلى وطنه الذي جاء منه، ويحلم بتحريره على يد الإنجليز الذين يخدمهم، وتبدو مهمته في التجسس مزعجة له على كل حال!

***

خاتمة

يظل التاريخ العربي الإسلامي معينا لا ينضب لكتابة الرواية الواقعية التاريخية، بحكم ما يحفل به من حوادث وشخصيات أثرت في صنعه، أو حددت مساره بطريقة وأخرى. والتاريخ في صياغته الروائية يزود الفنان بطاقة هائلة من الأبنية والأساليب التي تتنوع وتتعدد وفقا لقدرته وموهبته في استثمارها، والإفادة منها.

لم يكن التاريخ مجرد حكايات يستدعيها الكاتب ليملأ فراغه أو يتسلى بها، ولكنه مصدر يلهمه عملا فنيا متميزا يربطه بواقعه بصورة ما، ويسكب فيه رؤاه وتصوراته، ليصل إلى غاية ما. فإذا كان موهوبا بحق استطاع أن يقودنا إلى عمل خالد نفيد منه ونرجع إليه للمتعة والمعرفة في آن واحد.

وأطن أن نجيب الكيلاني استطاع أن يصل إلى هذه الغاية (العمل الخالد) حين استطاع أن يبدع هذه الصور التاريخية على امتداد التاريخ الإسلامي حتى يومنا، ويختار منها ما يناسب الحالة الثقافية الراهنة، فقد اختار مسيرة الدعوة الإسلامية من بداياتها حتى تم انتصارها، وانتشارها في الجزيرة العربية، وتعرض للخلافات التي مزقت المسلمين في أواخر العصر الأموي وبداية العصر الإسلامي، ورصد تأثير هذه الخلافات على الناس أفرادا وجماعات، وتفتيتهم إلى شيع وأحزاب متناحرة ومتقاتلة، مما بث في ربوع الدولة جراثيم الضعف والهوان والتفكك وأغرت الأعداء بالتحرش بالمسلمين، فقد تم اجتياحهم فيما بعد على يد الصليبيين والتتار.

ولم تكن الأحوال في القرنيين الماضيين وما جرى فيهما على يد المستعمرين الغزاة ببعيد عن قلم نجيب الكيلاني فقد تناول الممارسات الوحشية لإنجلترا وفرنسا واليهود في مصر وفلسطين، والمقاومة الشعبية البطولية مع عدم التكافؤ بين الطرفين: الغزاة والمجاهدين.

وهناك العديد من الصور والمواقف والأحداث والشخصيات على امتداد التاريخ الإسلامي منذ صدْر الإسلام حتى جهاد الشعب الجزائري الشقيق؛ ضد الغزاة الفرنسيين ووحشيتهم الضارية التي استمرت أكثر من ثلاثين ومائة عام حتى انتزع الجزائريون استقلالهم وأخرجوا الجيش الفرنسي من بلادهم، عبر عنها الكيلاني في من خلال لوحات متنوعة بمجموعته القصصية " دموع الأمير".

ولأن نجيب الكيلاني امتلك الموهبة والخبرة؛ فقد استطاع أن يقدم ما سميته "بالسهل الممتنع"، الذي يبدو لك بسيطا متاحا بسهولة، ولكنه يصعب على آخرين ممن لم يتقنوا فن الكتابة القصصية ويتدربوا عليه، ويتلافوا المزالق التي يقع فيها قليلو الخبرة والتجربة.

ومع أن الكيلاني اتبع حركة السرد المتتابع أو المتعاقب التزاما بحركة التاريخ، فقد كان واعيا بالبناء الروائي المشوق، من خلال صياغة حبكة محكمة من المواقف والأحداث البسيطة التي تبدو أحداثا عادية أو مواقف مألوفة، ولكنه يختار ما يناسب البناء الذي يصنع حبكة شائقة، مركبة أو مفردة.

ومن خلال الأبنية السردية تتجلى البيئة الروائية مكانا وزمانا، ويتفاوت الاهتمام بالمكان والزمان وفق أحداث الرواية وحضور شخصياتها، فهناك اهتمام تفصيلي بالمكان حين يقتضي السرد ارتباط الأحداث بالمكان ارتباطا شديدا، وهناك رصد عام للمكان بصورة مجردة عابرة، لا تخل بالبناء الروائي.

ويتناغم الزمان في السرد مع بقية العناصر، فيلقي بظلاله على المكان وما يجري فيه، ويضيء تطور الأحوال لدى الشخصيات والأحداث، ويقيم علاقة حيوية مع البناء الروائي تنتهي مع نهايتها.

قدمت روايات الواقعية التاريخية نماذج عديدة للشخصيات الروائية وما تحمله من أفكار ورؤى إيجابية أو سلبية. وعل الجانب الإسلامي، أو المعبر عن التصور الإسلامي طالعنا شخصيات تمثل القدوة والمثال في تفكيرها ومواقفها، وأحلامها وتطلعاتها، وآلامها ومتاعبها، وكيف اعتصمت بالولاء لدينها وعقيدتها، وتغلبت على المصاعب بإيمانها وطاعتها لربه ونبيها، ولعلنا نجد في صورة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ورفاقه من الصحابة رضوان الله عليهم، خير مثال على ذلك، فقد صنعوا مجتمعا متضامنا في السراء والضراء، وكانوا مثالا للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل العقيدة وعزة الإسلام.، ويمكن أن تقيس على هذا – مع الفارق- شخصيات مثل مصطفى البشتيلي وأحمد طاهر بك، والشيخ عنبة المتولي والشباب مثل إبراهيم بن أحمد طاهر بك ، وإبراهيم الأغا، وأحمد

بن عبد العزيز شلبي، وغيرهم ممن وهبوا حياتهم للدفاع عن الأمة والوطن باحثين عن الشهادة ونصرة الدين.

بالطبع هناك من تغبّشت الصورة الإسلامية في أذهانهم بحكم الصراعات السياسية والمطابع الدنيوية كما نرى لدى شخصية على بن أميمة في الرايات السوداء، ومع ذلك فإن سلوكه الإسلامي مع من استجار به لم يتغير مع أنه قاتل أبيه!

أما من خانوا وجبنوا، فإنهم يمثلون نماذج بشرية موجودة في كل زمان ومكان. مثل أحمد المدبولي في أثناء الحملة الفرنسية.

وعلى الجانب الآخر نجد الشخصيات العدوانية والخائنة متمثلة في اليهود والمستعمرين الغزاة. والشخصية اليهودية تطالعنا بملامحها القاسية التي تكشف عن أنانية واستعلاء وكراهية لغيرها، فضلا عن وحشيتها في الغدر والتآمر والكيد، ورفض الجنوح للمنطق والعقل، واستباحتها لكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتؤذي من تراه عائقا لها عن تحقيق مطامعها ورغباتها، لا تعترف بصداقة ولا عشرة ولا جيرة، هدفها هو المال والمصلحة، ولا تجد غضاضة في عض اليد التي أحسنت إليها. وانظر إلى شخصيات حيي بن أخطب وسلام بن مشكم وكعب بن الأشرف وكنانة بن الربيع واليهودية اللعوب وزينب بنت الحارث .. وغيرهم. ثم هناك خلة أخرى بشعة وكريهة وهي النفاق، وتمثلها شخصية عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وكان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وكان خطره عظيما لأن المسلمين لا يستطيعون معاملته على أنه كافر فهو يعلن الإسلام ويشارك في

الحياة العامة ، بل يبذل الرأي والنصح مثل أي واحد منهم، مع أنهم يعلمون نفاقه وعداوته الدفينة، فكانوا أكثر حذرا منه، بل إن ابنه طلب أن يقتله، ولم يؤذن له.

ولأن الإسلام يأمر بالعدل، فقد علم المسلمين أن اليهود ليسوا سواء، وكانت صفية بنت حيي بن أخطب من النماذج اليهودية القليلة التي تستجيب للفطرة النقية وترفض الغدر والتآمر والمكر، وكانت تتابع ما يقوله النبي– صلى الله عليه وسلم- وتتأمله بعين العقل والمنطق، وكانت رافضة لمنهج زوجها ووالدها وزعماء اليهود وموقفهم من الدعوة والداعية، وقد بُشّرت بالرؤيا الجميلة التي شاهدت فيها قمرا يأتي من يثرب ويدخل في حجرها، وكان ذلك الحلم إيذانا بإسلامها وحمل لقب أم المؤمنين، وهناك شخصيات أخرى آمنت بالإسلام وصارت من المدافعين عنه.

وبالطبع؛ فإن شخصيات الحملات الاستعمارية تميزت بالوحشية الدموية، والعدوانية السافرة، مع أن بعضها حاول أن يخفي شهوته التدميرية بالأكاذيب والتدليس والمخاتلة مثل نابليون، ولكن هذه المحاولة كان مصيرها الفشل، وسقطت تحت تضحيات المقاومة الشعبية الباسلة.

وتبقى الشخصيات الخائنة التي عاشت بين المصريين، وتربت في أحضانهم، وعضت الأيدي التي امتدت إليهم بالرحمة والمودة، وجعلتهم يغتنون ويصيرون أفضل ثراء من أهل البلد الذي يعيشون فيه، فكان انحيازهم للعدو الغازي لا مسوغ له إلا شهوة الخيانة

وخسة التكوين النفسي، ومن أبرز الأمثلة شخصية قطان باشا، والخواجة يني.

أهم ما في روايات الواقعية التاريخية هو الصياغة الأدبية التي استخدمها نجيب الكيلاني، وهي كما قلت "السهل الممتنع" في لغة صافية، وأداء سلس، وتحقيق ما يسميه بعض النقاد "موسقة اللغة"، وتشعر أنك مع شاعرية رقيقة مرهفة، تلون السرد باستدعاء القرآن الكريم والحديث الشريف والمأثورات والشعر والزجل، والحلم والمناجاة ..

ويدعم لغة السرد حوار ذكي، يدفع بالحوادث والشخصيات إلى صميم البناء الروائي، ويشارك في الكشف عن الماضي والحاضر والمستقبل، ويسبر غور النفسيات المختلفة ويطرح فلسفتها وتصوراتها، بل يشارك في إتمام الحبكة الروائية ووصول العقدة إلى الذروة، وتتحقق فيه مواصفات الحوار المتألق وفقا لرؤية النقاد.

***

لو كان الأمر بيدي لقررت هذه الروايات على طلاب المدارس في المراحل المختلفة، ليعرفوا من خلالها مسيرة الدعوة الإسلامية، وطبيعة الأخلاق التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان المسلم في علاقاته وسلوكه وتصرفاته، وليرتبطوا بتاريخ بلادهم وأمتهم من خلال نماذج مضيئة يدفعها الإيمان إلى التضحية والجهاد والصبر في سبيل حماية العقيدة والأوطان، فضلا عن الاستمتاع بأدب شاعري رفيع ، نفتقده في معظم ما ينشر في أيامنا.

لقد حقق نجيب الكيلاني المعادلة الصعبة بين الالزام الذاتي بالتصور الإسلامي والأدب الهادف من ناحية، وبين أصالة الفن وسمو التعبير من ناحية أخرى.

رحمه الله.

***

أهم المصادر والمراجع

أولا- المصادر

نجيب الكيلاني:

أرض الأنبياء، دار البيان ، الكويت ، 1969.

حارة اليهود ، المختار الإسلامي ، القاهرة ، د.ت.

دموع الأمير، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت ،1405 هـ = 1985م.

الرايات السوداء، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1434هـ = 2013م.

على أبواب خيبر، المختار الإسلامي، القاهرة، د . ت.

عمر يظهر في القدس، كتاب المختار، القاهرة، د. ت.

طلائع الفجر ،مؤسسة الرسالة ، ط6 ، بيروت ، 1413هـ = 1993م.

قاتل حمزة ، ط 2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1407هـ = 1987م

مواكب الأحرار ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، 1413هـ = 1993م

نور الله(جزآن)، المختار الإسلامي، ط 20، القاهرة، 2005 .

النداء الخالد، مؤسسة الرسالة،ط5، بيروت، 1413هـ = 1992م

ثانيا- المراجع

.إدوين موير، بناء الرواية، ترجمة إبراهيم الصيرفي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1965.

جرجي زيدان: تاريخ الآداب العربية، ج4، مكتبة الحياة، بيروت، 1979.

جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986، ص11.

حلمي القاعود: الرواية التاريخية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004.

رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، دار الهلال، القاهرة،1992.

رمسيس عوض، صورة اليهودي في الأدب الإنجليزي، دار الهلال، القاهرة،1999.

سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997.

سيد قطب، معركتنا مع اليهود، دار الشروق، القاهرة، 1992.

سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984.

طه محمود طه، القصة في الأدب الإنجليزي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1385هـ =1966م.

عبد الله إبراهيم: السردية العربية ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003.
عبد الله التل، خطر اليهودية العالمية، دار القلم، القاهرة، 1964
عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت،1998.
عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2000.
فيليب فان تيغم: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، تر: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1967.
قاسم عبده قاسم: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1979.
مارون عبود، رواد النهضة العربية، دار العلم للملايين، بيروت، 1952.
مجدي وهبة وزكي المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984
مجموعة مؤلفين، نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلانيين الروس ، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين- الدار البيضاء ومؤسسة الأبحاث العربية- بيروت، 1982.
محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، ط6، 1981.
محمود حامد شوكت ، مقومات القصة العربية الحديثة فى مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1974م.
محمد يوسف نجم، فن القصة، ط 7، دار الثقافة، بيروت 1979.

مريم جمعة فرج: "قراءة في الرواية التاريخية"(مقال)، مجلة البيان، العدد: 46، 26 نوفمبر 2000، الموقع:
http://www.albayan.com.ae

نعمان السامرائي، اليهود والتحالف مع الأقوياء، كتاب الأمة32، الدوحة، 1412 هـ = 1992م.

الموسوعات:

موسوعة المورد، منير البعلبكي، 1991

موسوعة المصطلحات الأدبية.

ويكيبيديا العربية.

***

قائمة مختصرة بكتب للمؤلف

أولا- كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته .

تيسير علم المعاني .

الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، .

محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة .

المدخل إلى البلاغة القرآنية .

القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) .

تطور النثر العربي في العصر الحديث .

تطور الشعر العربي في العصر الحديث .

المدخل إلى البلاغة النبوية .

الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق .

ثانيا- سرديات:

رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان).

الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)،

زمن البراءة : النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية)

زمن الهزيمة : النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)

زمن الغربة: النيل لا طعم له، (الجزء الثالث من السيرة الذاتية).

شغفها حبا، (رواية).

محضر غش، (رواية).

شكوى مجهولة، (رواية).

منامات الشيخوخة، (قصص).

الرجل الأناني(رواية)..

اللحية التايواني(رواية). ، طنطا(مصر)..

الشمس الحارقة (رواية).

مكر الليل والنهار (رواية).

مالك الملك (رواية).

تغريبة معروف الإسكافي (رواية).

مجلة الأنس! (رواية).

أم سعيد (رواية).

الشجرة المباركة (رواية).

ثالثا- كتب أدبية ونقدية :

قصتي مع محمد عبد الحليم عبد الله (الغروب المستحيل).

الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة رابعة).

الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة.

إنسانية الأدب الإسلامي.

حصيرة الريف الواسعة. .

أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة،

الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية). .

الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية)

نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، بالاشتراك مع آخرين، تحرير وإشراف أسامة الألفي.

أمل دنقل عابرا للأجيال، بالاشتراك مع آخرين، تحرير وإشراف: أسامة الألفي.

مدرسة البيان في النثر الحديث.

الزاهد أنور الجندي: حياته. أدبه. فكره

لويس عوض : في ميزان الأدب والنقد .

المآذن العالية: رجال من ذهب .

حكايات الجواري والعبيد (الرواية المضادة).

المتنبي لا يخاف الإعراب.

الحلم والدهشة (دراسات أدبية)

رابعا- إعلام :

الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية،

خامساً- كتب للأطفال :

واحد من سبعة .

سادسا- كتب محققة :

فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية .

تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي.

أحسن ما كتبت.

المتنبي ، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) .